محمد سعيد الطريحي

المسيحية في الشام

مع عناية خاصة بحريق دمشق

(سنة 740هـ - 1340م)





6795

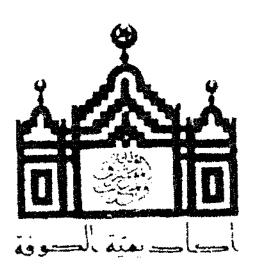
المسيحية في الشام

مع عناية خاصة بحريق دمشق

(سنة ٧٤٠هـ - ١٣٤٠م)



هولندا





للتأليف والترجمة والنشر

دمشق ـ حلبوني

تلفاكس 0112236468 جوال 0944330989

ص . ب : 11418

taakwen@yahoo.com

المسيحية في الشام

مع عناية خاصة بحريق دمشق

(سنة ٧٤٠هـ - ١٣٤٠م)

تأليف وتحقيق

محمّد سعيد الطريحي



الطبعة الأولى

هولندا ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨م

ISBN 90-809737-5-0

Printed by Kufa Academy, The Netherlands

Kufa Academy
Postbus 1113
3260 AC oud-beijerland
The Netherlands
E-mail: Kufaacademy@hotmail.com
Http:// WWW.almawsem.net

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

يعنى هذا البحث بحادثة تاريخية وقعت في عهد الدولة الأولى للعصر المملوكي (٦٤٨ ـ ٧٨٣ هـ)[1]، ففي السنة الأخيرة من ولاية تنكز زمن محمد بن قلاوون وفي السادس عشر من شهر شوال (٧٤٠ هـ ـ ١٣٤٠م) استيقظ الدمشقيون على نبأ مفجع حيث شبت الحرائق في الجامع الأموي وعدد من الأسواق والعمارات الهامة بدمشق، وسرعان ما تبين أن وراء هذا الحادث عمل إرهابي دُبر له بإحكام من قبل مجموعة صليبية خارجية نفذته بالتعاون مع عدد من عملائها في الداخل وقد وقع الخبر كالصاعقة في كافة الأصقاع الإسلامية، وخاصة لدى دولة المماليك القوية التي بسطت نفوذها في تلك الفترة على كثير من حواضر العالم الإسلامي ولا سيما في مصر وبلاد الشام، وكان الموضوع حساساً بالنسبة لها إذ أن دمشق كانت عاصمة بلاد الشام، ومقر نائب السلطنة بها، وكانت إذ ذاك قبلة للعالم الإسلامي يؤمها العلماء

---

(١) قامت دولة المماليك في مصر وعاشت طوال قرون ثلاثة، تأسست الدولة الأولى المسماة بالمماليك البحرية باستيلاء شجرة الدر أم خليل أرملة الصالح أيوب على السلطنة سنة ٦٤٨ هـ - ١٢٥٠م وانتهت بموت السلطان الملك الصالح زين الدين حاجي سنة ٧٨٤ هـ - ١٣٨٢م، وقامت الدولة الثانية بتولي السلطان الظاهر سيف الدين العثماني اليلبغاوي وانتهت بآخر سلاطينهم الاشرف طومان باي أثناء الفتح العثماني سنة ٩٢٢ هـ (زامباور : معجم الإنساب والاسرات الحاكمة في التاريخ / ١٦٣-١٦٤ دار الرائد العربي — بيروت ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠م)

والتجار من كل مكان بالمشرق والمغرب، وبها كانت أفضل الجامعات الإسلامية كدار الحديث الظاهرية، ودار الحديث الأشرفية، والناصرية الجوانية داخل باب الفراديس، وكانت أغرب الأبنية وأحسنها بنياناً، والنجيبية وغيرها، كما كان الجامع الأموي الكبير بدمشق الذي استهدف بهذه العملية، جامعة علمية تلقى به الدروس في شتى العلوم والفنون يتنافس فيها كبار العلماء لينالوا حظوة التدريس به، وتولى التدريس به الخطيب القزويني، وتقي الدين السبكي، وفَسر القرآن فيه عماد الدين ابن كثير. ومن الناحية السياسية فقد كان عهد الملك محمد بن قلاوون الذي استمر حكمه إلى ما يزيد على اثنتين وثلاثين سنة، حافلاً بالأحداث والوقائع، ومن ذلك هجوم التتار على دمشق سنة (٦٩٩ هـ - ١٢٩٩م).

وتبع ذلك انتصاره عليهم سنة (٧٠١ هـ ١٣٠١ م)، وفي داخل مصر أخمد الملك ثورات العربان بالصعيد المصري، وأخضع ملوك النوبة المسيحية بشمال السودان، وبعد فترات طويلة من الاضطراب والفوضى عم مملكته الهدوء النسبي أما موقفه من الإقليات الدينية فلم يكن على حال واحدة، فهو من جهة كان يتقرب للنصارى ويتخذ منهم الوزراء ونُظّار الخاص السلطاني، حتى أتهم بمحاباتهم وتمكينهم من رقاب الرعية، ومن جهة أخرى كان يضيّق عليهم إذ أمرهم بلبس العمائم الزرقاء، كما أمر اليهود بلبس العمائم الصفراء، وعلى السامريين لبس العمائم الحمراء تمييزاً لهم عن سائر الرعايا المسلمين، وهذا مما زاد في النفرة بين مواطني مملكته سواء في مصر أو الشام، فقد شبت حرائق القاهرة سنة (٧٢١ هـ) وأتهم بها أقباط مصر، فشرع الناس بتهديم سبع كنائس لهم، ونهبوها منهم، مما أدى إلى ردة فعل قوية أتجاه ذلك اذ تحزّبت

طائفة منهم تحت اسم المجاهدين، وكانوا يجتمعون ويخططون وينفذون عمليات الحرائق المنظمة ضد المعتدين عليهم مستخدمين (الحُرق المحشوة بالزيت والنفط والكبريت) لحرق المدارس والمساجد والدور، وبذلك عمت الفوضى وزاد قلق الناس وخوفهم، وهذه الحادثة جرت قبل نحو عقدين تقريباً من واقعة حريق دمشق ـ موضوع البحث ـ وبالرغم من المعالجات الوقتية التي كان الحكم يفرضها على النصارى، وعمليات الصلح المحدودة، فقد استمرت الاضطرابات الطائفية طيلة حكم الدولة القلاوونية، وكانت الفتنة تستفحل حيناً وتهدأ أخرى، ولم يكن ذلك بطبيعة الحال في صالح الرعية، بل كان المماليك يستفيدون منها بأنواع المصادرات، وفي إلهاء الشعب والتمكن منه على طريقة " فرق تسد " .

في هذا الجو الطائفي المحتدم كانت الشام تعيش وضعاً مشابهاً للقاهرة، لكن تنكز نائب السلطنة بدمشق وممثل الملك الناصر كان أكثر جرأة وتهوراً في قمع الشعب، اذ كان وصفهُ الكتبي بقوله " فاقداً للدهاء والحكمة ومدارة الناس " وقال مؤرخ آخر " كان جباراً مستبداً سفاكاً للدماء " وفي الأيام التي جرت بها حادثة دمشق لم تكن علاقته بولي نعمته الملك الناصر على ما يرام فقد شابها عدم الثقة والتوجس الشديد بين الجانبين بعد ثمانية وعشرين سنة من الانسجام والرضى المتبادل، وما أن أعلن (تنكز) عن إعدام النصارى المتهمين بالحريق والمساهمين فيه، حتى اتخذ الملك الناصر من ذلك الأمر ذريعة للفتك والبطش به ولعل الدافع لذلك هو الإستيلاء على الكنوز والأموال المقنطرة التي كانت بحوزة نائبه المغدور (تنكز)، وكان ذلك من أهم الأحداث السياسية التي شهدتها دمشق كنتيجة مباشرة وسريعة لحريقها الذي يعدُ الأكبر

والأخطار في تاريخ الشام الإسلامي على الإطلاق بالرغم من تعرضها لحرائق سابقة عديدة، وذلك لكون حادثة الحريق المعنية بدراستنا هذه لها أهميتها وحساسيتها على أكثر من صعيد فمن دلالاتها مثلاً :

١- أن الحريق كان عملاً إرهابياً محضاً (بحسب المفهوم المعاصر للمصطلح) كان هدفه إضعاف سلطة المماليك بأصابتهم إصابة مباشرة في قلب عاصمة الشام الكبرى " دمشق " بحرق المسجد الجامع الذي يمثل رمزاً إسلامياً لعموم المسلمين، وبأستهداف خزائن السلاح الممتلئة بالعدد الحربية والذخائر العسكرية بالإضافة إلى ضرب المتاجر ومحلات الذهب ودور الكسب والمهن الحرة والمنافع العامة ودور العلم والوراقة .

٢- تبين بأن أعضاء من أبناء الطائفة النصرانية بدمشق قد ساهموا فيه، وهذا مؤشر على حالة الغيظ والشعور بالمهانة والاضطهاد التي كانت تعاني منه أثناء الحكم المملوكي، ويشير كذلك إلى تورط مجموعة منهم بهذا الحدث بدون التحسب لعواقب الأمور وإفتقاد الحكمة والتفكير السليم لأنهم بهذا العمل المشين عَرَّضوا أهل ملتهم لأخطار مصيرية كانوا في غنى عنها في الماضي .

٣- أصيب نصارى الشام جراء ذلك بنكبة كبرى فقد عم الخوف والاضطراب بين صفوفهم وتدفقت الإشاعات الطائفية لتسلقهم بألسنة حداد فتنال من كرامتهم ومواطنيتهم كدعوى تسمم السكاكين في محلات الجزارة، ورمي السموم في خوابي الماء المعدة للسبيل، بالإضافة إلى مصادرة أموال طائلة من أثريائهم لتعويض المتضررين واعمار الأبنية والأوقاف المحترقة المخربة، بما في ذلك المأذنة الشرقية الماثلة إلى اليوم في الجامع الأموي فأنها قد نفضت وجددت من أموال النصارى .

٤- بدا واضحاً للعيان بأن المخطط لهذا العمل هو الدولة البيزنطية فالجاسوسان اللذان أُرسلا لتنفيذ المهمة " ميلاني و عازر " قد قدما من مدينة القسطنطينية .

٥- استعمال المواد الكيميائية في الحريق ليكون أبلغ أثراً وأكثر تدميراً وفتكاً بالانفس والممتلكات .

٦- ومن أهم الدلالات المتمخضة عن هذا الحادث، أن الحرية النسبية التي كانت تتمتع بها الاقليات الدينية في العهد المملوكي قد أفتقدت وطالما جرت حوادث التمييز الديني على عهد الملك الناصر وأحياناً لأتفه الأسباب فقد جرى مثلاً التضييق الشديد على النصارى، لمجردأن أحد ضيوف الحكومة رأى نصرانياً نبيلاً راكباً على دابة ولابساً ثياباً نظيفة وجميلة ومعه بعض الخدم الذين يمشون معه، فاستثار هذا المنظر رجل الحكومة، وأقام الدنيا ولم يقعدها على ذلة المسلمين !! حتى قال " النصارى تركب عندكم الخيول وتلبس العمائم البيضاء وتذل المسلمين " فطولب عند ذلك بطريرك النصارى بوجوب الإلتزام بعقود أهل الذمة وما إلى ذلك من قيود.

وخلاصة الأمر أن النصارى وهم أكثر الأقليات الدينية عدداً في بلاد الشام وأقدم المجموعات العرقية وجوداً فيه كانت تتحين الفرصة لكي تعيش كما يعيش الآخرون، لكنها أيضاً لا تخفي أو على الأقل بعضها لا يخفي تلك العدواة والثأر الذي ترجع جذوره الى أيام فتح دمشق[1]، ومن هنا لا يفوت هذا البعض الفرصة للإنتقام من المسيئين لها، فيما لو أتيح لهؤلاء المجال لفعل

---

(١) إذا صح ما ذكره الرحالة ابن جبير لحادثة انتقام نصارى الشام من الحجاج المسلمين في أواخر القرن السادس الهجري فإن ذلك مؤشر خطير على ما وصلت إليه الأمور من الحدة والعنف راجع رحلة ابن جبير ص٣٤- ٣٥ أحداث شهر محرم ٥٧٩هـ.

ذلك وقد يبدو هذا الأمر في صميم الدفاع عن النفس والعرض والمال والمقدسات، فالمعروف أن كنائسهم قد تعرضت للتخريب في بعض الظروف العصيبة، وعلى هذا فقد يصبر الصابرون منهم على هول ما يرون، وقد يفتقد البعض منهم الصبر ويكون لهم حينئذ حق الرد بالمثل فيستميتون في سبيل إرجاع ذلك الحق الى نصابه، دفاعاً عن وجوده، وحفظاً لدينهم ومكانتهم الإجتماعية والثقافية .

٧- النتائج التي أفضى إليها الحريق كانت كارثية، إذ تسببت بالقطيعة والتوجس واستمرار الوضع على ما هو عليه امتداداً الى الحكم العثماني، حتى إذا قربت شركة القوى الاستعمارية الأوربية في الشرق بدأت باستغلال ذلك بأفتعال الحمية المسيحية وعطف الحماية الأوربية، لكسب ود النصارى كما كان يفعل الصليبيون أبان غزواتهم على المنطقة، لكن النجاح في هذا المسعى كان ضيلاً جداً، وفشلت الحملات التبشيرية هي الأخرى من تحقيق النجاحات المرتقبة لمد النفوذ الأوربي بهذه الواسطة مثلما كان يتمناه ويخطط له المستعمرون .

٨- تأثير الحادثة سلبياً على الحالة العامة لنصارى الشام فقد تحول البعض منهم الى الإسلام كما يتبين من الفتاوى التي صدرت لإدانة الحادثة، ولا بُدّ أن الوضع المأساوي الذي أصاب العامة منهم أدى الى هجرة البعض منهم الى الأماكن القصية من البلاد أو حتى خارج الشام، ومن بقي منهم داخل أسوار مدينة دمشق اضطروا للتجمع في مناطق محددة أشبه بالغيتو، إذْ ما تزال حتى اليوم بعض المحلات والأحياء معروفة بطابعها النصراني، وفي أحد امتداداتها كانت وبقيت محتفظة حتى الآن كمركز للأقليات الدينية

بدمشق، كما هو الحال في المنطقة المتاخمة لشارع الخراب[1] أو شارع اليهود قديماً (شارع الأمين حالياً) حيث تعيش المجموعات الدينية النصرانية على اختلاف مذاهبها ولغاتها وأعراقها وتمتد بكثافتها السكانية الى باقي الأحياء ذات الطابع النصراني كالباب الشرقي وباب توما وما يليه، وكذلك الحال مع أبناء الطائفة اليهودية حيث كان تجمعهم الأكبر وكنائسهم ومدارسهم عند شارع الخراب ولم يكن التمييز خاصاً بالمجموعات الذمية فقد شمل ذلك من بجانبهم من الشيعة الدمشقيين[2] الذين حشروا مع أهل الذمة وتجاوروا معهم على الألفة والمحبة بحكم الواقع المعاش واستمر التمييز ضدهم حتى نهاية العهد العثماني وكانت المجموعة الإسلامية الشيعية تتركز في نفس الضاحية وما تزال الآن بكافة مؤسساتها الدينية[3]، وكان التعاطف والعيش المشترك الى حد ما يحمل صفة المحافظة على النوع والوجود، من أي خطر داهم قادم مع شعور عارم بالإندماج في ظل الحمية الاقلياتية المتعايشة وهو ما يعطي الجميع الشعور بالطمأنينة، ويقلل من شأن الاختلافات الدينية والعرقية واللغوية مهما كانت شديدة ومتباعدة .

هذه بعض الأفكار التي خرجنا بها حول الموضوع وربما نكون قد اقتربنا فيها من مغزى ودلالات تلك الحادثة المهولة التي تركت آثارها النفسية

---

(١) سمي بحي الخراب إما بسبب الغزو المغولي في القرن ١٤ب. م، أو بسبب الزلزال عام ١٧٥٩م. انظر تنقيبات حي الخراب بدمشق، مجلة الآثار السورية المجلد ٣٥ ص١١٩، ١٩٨٢م.

(٢) تقع منطقتهم منذ القديم بين المحلات التالية : الشاغور والقيمرية وباب توما ومأذنة الشحم، ويجاورهم من جهة الشاغور اليهود ومن الجهة الأخرى النصارى . وامتد وجودهم منذ القرن الماضي الى حي الامام جعفر الصادق (حي الجورة) وحي الصالحية (زين العابدين).

(٣) من أمثال ذلك : الجمعية المحسنية، الجمعية اليوسفية، جمعية الاحسان، جمعية إغاثة المرضى الفقراء، جمعية الرابطة الاجتماعية الأدبية، بالاضافة الى جامع الامام علي عليه السلام وجامع الزهراء عليها السلام.

العميقة في نفوس مواطني دمشق بمختلف انتمائتهم، بحسب ما عثرنا عليه من المدونات الخطية المتصلة بالحادثة، وبما أستفدناه من المعلومات التاريخية الإضافية التي حصلنا عليها من التواريخ التي رجعنا إليها.

وأبدا بوصف الأصل الخطي الذي كان أساس عملنا هذا، اذ لولاه لصرفنا النظر ربما عن التحقيق في الموضوع وقد كانت نقطة البدء فيه، أن صديقي الحميم Prof.Dr.Jan Just Witkan أستاذ علم المخطوطات الاسلامية وأمين المجموعات الشرقية في مكتبة جامعة لندن بهولندا، زارني ذات يوم شتوي من عام ٢٠٠٢ ووافاني بنبأ حول أوراق مخطوطة تتعلق بمسيحي الشرق، وكان يعرف يومها بأنني أعد كتاباً حول المراجع الإسلامية عن اليهودية والمسيحية، فطلبت منه تصويرها على الفور للنظر فيها على مهل، وبعد أيام تكرم صديقي المحترم بمصورة لكامل المجموعة الخطية المرقمة «or951 » ومنذ تلك اللحظة بدأت رحلة الكتابة حول هذا الموضوع وبدا لي أن واضع هذه المجموعة الخطية هو وراق أو كاتب كان مهتماً بموضوع (حريق دمشق) وتوثيق تلك الحادثة بعد أن تيسر له فيما يبدو الأوراق الرئيسية للقضية، فكانت المجموعة تحتوي على ما يلي :

«جزء فيه شروط أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، قصيدة متضمنة لحريق دمشق، نسخة المرسوم في معنى أهل الذمة، صورة المحضر الذي كتب بدمشق، نسخة الدرج الذي بدمشق، قصة بشير الرومي ..»

سبقت هذه الأوراق رسالة في علم تهذيب الأخلاق كما تضمنت رسائل أخرى جاءت بعد الإنتهاء من الأوراق الخاصة بقضية الحريق وتتأتى أهمية الأوراق لاتصالها بموضوع الأقليات الدينية في المجتمع الإسلامي، وهي اليوم

من القضايا الحيوية التي برزت في دوائر البحث العلمي والسياسي، مثلما كانت عبر قرون محلاً للنقاش والحوار، وقد استغلها الصليبيون فيما مضى لدي حملاتهم المتواصلة على الشرق بحجة حماية المقدسات والرعايا النصارى، وتأطرت هذه القضية اليوم تحت شعارات حماية الاقليات وحقوق الانسان وما الى ذلك من تسميات، وأخذ يتبلور وضعها القانوني في القرن العشرين، والواقع أن قضية (حريق دمشق) لا تعدو أن تكون إلا واحدة من القضايا التي يحسن بحثها تحت هذا الاطار، ذلك أن هذه القضية قد أتهم بفعلها أفراد من أقلية دينية حوكموا بعد ذلك ونفذ فيهم حكم الاعدام، وتبع ذلك مصادرات بالجملة لحقوق تلك الإقلية، ولم يكن من السهولة بمكان التعرف على كافة تفاصيل تلك القضية وبجميع أبعادها التاريخية والقانونية وخلفيتها الدينية لولا توفر المادة الوثائقية التي نجملها فيما يلي:

١- المجموعة الخطية المذكورة والتي ضمت الأمور الرئيسية في القضية بما في ذلك تفاصيل العملية الإرهابية واعترافات المتهمين بها، بالإضافة الى فتاوى علماء دمشق بشأنهم ومن جميع المذاهب السنية الأربعة المالكية والشافعية والحنفية والحنبلية وقد كانت إجابة مفتي الشافعية إجابة مختصرة ركز فيها على كلمتين هما انتقاص العهد مع النصارى، وأخذ أموالهم لتعويض الخسائر.

وفي إجابة مفتي الحنفية تشديد على ألزام النصارى ضمان ما أتلفوه وتخيير الإمام (الحاكم) بين قتلهم أو أجلائهم عن البلاد، وفي جواب مفتي المالكية تنبيه على نقض العهد الموجب للقتل وضرورة تعويض النصارى لما أتلفوه، أما مفتي الحنابلة علي بن المنجا فقد أفتى بأنتقاض العهد ونصَّ على

قتل النصارى وفي دراستنا للموضوع - خارج النصّ الليدني - وجدنا فتوى أخرى لأحد مشائخ الحنابلة وهو ابن القيم الجوزية (٦٩١-٧٥١هـ) وكان هذا من معاصري الحريق أيضاً وألمح إلى فتواه في هذا الأمر ضمن كتابه المسمى «زاد المعاد» ولا تختلف فتواه عن فتاوى المشائخ الذين سبقوه غير أن تنويهه هذا يشير إلى أن هنالك فتاوى أخرى في القضية لم ترد في المحضر الرئيسي للقضية وقد أثبتنا كل هذه الفتاوى بالإضافة إلى المحضر الرسمي القانوني لمحاكمة النصارى المؤرخ في ٩ذي القعدة ٧٤٠هـ وكذلك موضوع (الشروط المملوكية السلطانية على أهل الذمة) وقد كتب تحته ما يلي «نسخة المرسوم الشريف الوارد من الأبواب المولوية العالية» وهو فيما يظهر قد ربط بالقضية لكي تستكمل المحكمة مهمتها القانونية، وفي هذا المرسوم ما فيه من القيود والتضييقات على عموم أهل الذمة، وقد أوردنا كل ذلك ضمن الفصل الثالث من الأطروحة، مع تحقيق لجميع ما ورد في تلك النصوص من أسماء الأعلام والأمكنة والاصطلحات المختلفة.

٢- النصوص التأريخية التي وردت حول الحادثة، فمن حسن الحظ أن عدداً من المؤرخين المرموقين قد عاصروها وكتبوا عنها، أمثال: شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي «المتوفى ٧٤٨هـ»» وابن كثير الدمشقي (٧٠١ - ٧٧٤هـ) وعمر بن المظفر المعروف بأبن الوردي (المتوفى ٧٤٩هـ - ١٣٤٨م) وابن فضل الله العمري (المتوفي٧٤٩هـ - ١٣٤٨م)، والحسن بن حبيب (المتوفى ٧٧٩هـ - ١٣٧٧م)، وقد أثبتنا جميع النصوص التي ذكروها عن الحادثة، واتبعناها بما ذكره المؤرخون من بعدهم وهم: تقي الدين أحمد بن علي المقريزي (المتوفى ٨٤٥هـ - ١٤٤١م)، وتقي الدين ابن

قاضي شهبة الدمشقي (٧٧٩هـ ـ ٨٥١هـ/١٣٧٧ ـ ١٤٤٧م)، وعبد الحي بن العماد الحنبلي (المتوفى ١٠٨٩هـ ـ ١٦٧٨م) وعبد الله بن محمد البدري (المولود ٨٤٧هـ ـ١٤٤٣م)، وفي هؤلاء من فصَّل ومنهم من أجمل، وبما أن جميع مَنْ ذكرنا من المؤرخين المسلمين فقد كنَّا بحاجة فعلاً لمؤرخ من النصارى، وقد كفانا مؤونة ذلك مؤرخ وحيد منهم وهو المفضل بن أبي الفضائل (المعاصر للحريق والمتوفي بعد الحادثة بنحو ١٩ سنة) وفي نصّه الذي أورده ما يتطابق مع نصوص المؤرخين المسلمين، وبهذا ثبتت التهمة على مرتكبيها النصارى بقلم أحد أبناء نحلتهم، بما لا يفسح المجال لتكهنات أخرى، من قبيل إلحاق تلك التهم لأسباب دينية أو عنصرية، هذا إذا لم يظهر دليل جديد يُغيِّر الاتجاه في موضوع الدعوى وهذا الاحتمال يبقى قائماً، ذلك أن آلاف المخطوطات والوثائق التاريخية ما تزال حبيسة أدراج خزانات الكتب في الشرق والغرب.

ولكي تكون الاحاطة شاملة لحادثة الحريق وصلتها بنصارى الشام فقد كان من المفيد أن نلمَّ سريعاً بتاريخ هذه الطائفة منذ الفتح الإسلامي للشام سنة (١٢هـ ـ ٦٣٣م) وحتى القرون اللاحقة وصولاً إلى النصف الأول من القرن الثامن الهجري حيث وقعت حادثة الحريق في مستهل العقد الخامس منه.

وهذا ما دعانا للخوض في غمار الكتب والمدونات التأريخية لأستجلاء أبرز الأحداث ومعرفة الظروف التي مرَّ بها نصارى الشام، وحتى نلم بالموضوع من كافة جوانبه رأينا أن نتناوله في الفصل الأول تحت عنوان (المسيحية في بلاد الشام) والذي أستفتحناه بتمهيد حول مصطلح «الشام»، فنبذة تأريخية عن الفتح الاسلامي للشام فأصول نصارى الشام وأحوالهم بعد

الفتح الاسلامي ثم نُبذ مختصرة عن الصراع البيزنطي الإسلامي، والنزاع الصليبي ـ الإسلامي وخاصة ما يتصل منه بموضوع الشام والاقليمات النصرانية الشامية، وأثر ذلك في العلاقات الإسلامية النصرانية في الشرق فكثير من الأحداث المتعلقة بنصارى الشام كانت تنطلق من خلفيات ذلك الصراع الذي أستمر قروناً بما في ذلك النزاع البيزنطي الإسلامي الذي كان له أثره المباشر في اشعال الفتنة بحرق مدينة دمشق وهذا ما خصصنا له موضوع الفصل الثاني الموسوم بـ «حريق دمشق، مقدماته ودوافعه ونتائجه»، وكان الاستهلال فيه بنبذة تاريخية مختصرة عن الجامع الأموي وحرائقه وعن المأذنة الشرقية التي تصدعت أبان الحادثة المذكورة، ثم تطرقنا لأحوال الملك الناصر ووضع النصارى في عهده وعهد نائبه في الشام «تنكز» واستشهدنا بجميع ما استطعنا الحصول عليه من نصوص المؤرخين حول حريق دمشق.

اما موضوع الملاحق التي جاءت بعد استكمال الفصول الثلاثة من الدراسة فقد كان اثباتها لازماً ومتمماً للدراسة، لكونها متصلة بموضوع الدراسة مباشرة، كما هو الحال مع القصيدة التي قيلت في وصف حريق دمشق ولم يُعرف ناظمها، وهي قصيدة تفجع وأسىً بالغين جداً، فالحادثة كما وصفها افقرت الأغنياء واصابتهم بالخيبة والافلاس، فالصاغة كانوا يفتشون فيما بين الانقاض عن الذهب والفضة الذي ضاع في خضم هذا الحريق الهائل وكانوا مغبرين وحزانى يلفهم الأسف، وهو يُشبِّه يوم الثلاثاء الذي وقع فيه الحريق بيوم القيامة، وكأن جهنم ترسل بشواظ نيرانها في كل اتجاه بسبب المواد الكيماوية المستعملة فيه:

حكى جهنم ارسال الشواظ لها   لما عليه مذاب القطر قد قطرا

اما سوق الوراقين فقد أصبح شذر مذر تلعب فيه النيران كما تشاء وترى الدخان يصعد إلى عناق السماء محمراً ومسوداً من أثر الأحبار وآلات الكتابة:

ضنى على الورق المبيض كاتبها   فأحمر وأسود إذ فيه اللهيب قرا

ولم يوفر الحريق القناطر (أو الجسور الخشبية) على نهر بردى المجاور لمكان الحادثة، ولا الابنية المتاخمة له من التهديم والاندثار بسبب ذلك:

وكم فناظر قد هُدت وقد هُدمت   وكم مهول بناء عيل فأندثرا

وهيل من فوقه ما هِيل من خشب   أضحت مسندة تستوقف البصرا

واما الجامع الأموي فقد أصابه بأصابات بليغة كادت أن تهدم أركانه القوية:

وجاور الجامع المعمور حادثها   فكاد ينقضّ حتى ينقض الجدرا

كيف أن النار الحامية قد التهمت سوق السلاح وأحرقت السيوف والرماح والأقواس وما إليها من العُدَد الحربية:

ولم ير السيف والرمح الأصم له   عوناً فأحرق حتى القوس والوترا

وأخيراً يحمد الله ـ الناظم ـ على أن الحادثة ـ الذي جاءت باعتقاده قضاءً وقدراً قد أخمدت أخيراً بفضل (نائب السلطان) من دون تسميته بالاسم.

وبقية الأمراء الذين بادروا لإطفاء الحريق :

وهذه عبرة جاءت لمعتبر   في كل أمرٍ عجيب ينعمُ البصرا

فأخمد الله تلك النار حين طغت   بالأمر من نائب السلطان والأمرا

وإذا كانت ثمة غرابة، فإن الشاعر لم يصرح باسم الفاعل ولم يُعرِّج على ذكر النصارى الذين أُتهموا بالحريق، وقد يكون ذلك بسبب أن القصيدة قد نظمت بعد أيام قليلة من الحادثة وقبيل تبين الأمر واعتراف الفاعلين بها، وعلى كل حال فموضوع القصيدة كان هو الملحق الأول، تلاه الملحق الثاني

ويستشهد لأجل ذلك ببيت أبي العلاء :

أعبادَ المسيح يخاف صحبي ونحنُ عبيد مَنْ خلقَ المسيحا

ويصف بعد ذلك كيف أن التعذيب النفسي والجسدي الذي مارسه مماليك تنكز قد جعل المتهمين من النصارى أن يعترفوا بذنبهم (فأخذتهم الولاة بكل سبب، وضرب يجعل دمع العين صيّبا) وعند ذلك سُمِّرُوا على الجمال وصُلبوا كما ورد في (المرسوم الشريف) وطيف بهم نهارين ثم ضربوا بعد ذلك بالسيف في خاصرتهم فقطعوا الجثث نصفين نصفين ثم حرقت، وألقيت إلى حفير عميق، وأخيراً ينشد ابن الوردي أبيات في ذم النصارى، وعودة دمشق إلى ما كانت عليه من الحُسن والجمال.

والملحق الثالث،هو الآخر عبارة عن مقامة أنشأها صلاح الدين الصفدي (المتوفى سنة ٧٦٤ هـ ـ ١٣٦٣م) أحد الأدباء المعروفين في زمانه وهو ممن عاصر الحريق أيضاً، وهذه المقامة صورناها من ضمن مجموع خطي بمكتبة الاسكوريال برقم ٥٦٣ وقد عراها بعض التلف في آخرها أشرت له في مقدمة الملحق، وأكاد أجزم بأنَّ منشئها (الصفدي) قد كتبها بعد مقامة ابن الوردي مجاراة له بدليل أنه افتتحها بنعت الشخص الذي ابتدعه بوصف يخالف فيه لإسم الذي ابتدعه ابن الوردي والذي كان يشير إلى الماء، وها هو الصلاح الصفدي يسميه بأسماء النيران (شعلة بن أبي لهب عن أبي الزناد شهاب) وفيه من الوصف ما يشابه فيه مقامة ابن الوردي لكنه يختلف عنه في الأسلوب، وفي ضمن مقامته قصيدة له تعبر عن تأثره الشديد لهذا الحريق الذي وصل إلى عنان السماء :

غدت ناره في الجو تعلو وترتقي كأن لها عند النجوم أماني

ونالـت عنـان الجـو حتـى رأيتهـا   تُصَّـــرفه في كفهـــا بعنـــان

وفي الملحق الرابـع أثبتنـا نصـاً مخطوطـاً ورد في نفـس النسـخة الليدنيـة يتضمن بيان الإمام تقي الدين السبكي حول أهل الكتاب والتحذير مـن الغـزاة التتر، وكان هذا البيان قد قُـرئ بـدار الإمـارة بدمشـق، وأكثـر فيـه مـن الآيـات القرآنية والأحاديث النبوية ويشدد على وجوب الجهاد (والذي هو أعظم شأناً عند الله من الحج والعمرة والطواف) وكيف أن الله تعالى قـد فـرض أن يقاتـل أهل الكتاب من اليهود والنصارى إلى أن يسلموا أو يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صـاغرون، ويسـتمر السـبكي في بيانـه باستشـهادات تاريخيـة تؤيـد دعوتـه المذكورة.

ومن الجائز أن يكون السبكي قد ربط هذا البيان مع الإجابة التي تضـمنت فتـواه بشـأن الحريـق وأرسـلها إلى (تنكـز) لمـا لـه صـلة بـين الموضـوعين المطروحين يومذاك للنقاش.

وأما الملحق الخامس ففيه قدمنا تحقيقاً علمياً لقضـية كانـت مـن كـبرى القضايا التي يستشهد بها الباحثون والمستشرقون والكتـاب عامـة حـين يحـين وقت الكلام عن حقوق أهل الذمة والنصارى منهم على وجه الحصوص، وهذا هو موضوع الملحق الذي وجدنا مادته محفوظة ضمن (ملف قضية الحريـق) وفي ذات المخطوطة الليدنية (ص ٢١-ب إلى ص أ-٢٣).

وعلاوة على التحقيق الذي قمنا به لهذا النص فقد أتبعنـاه بفصـل سميـناه (شروح وتعليقات) تضمن دراسة (عهد الخليفة عمر بن الخطـاب أو شـروطه على النصارى) ولقد ناقشـت المؤيـدين لـه والمعترضـين عليـه أو المـتحفظين على ما فيه ونقلت نصوصاً لباحثين مسلمين ومسيحيين، عـرب ومستشـرقين،

ثم ثنّيت ذلك بما توفرت عليه من العهود العمرية على أختلاف رواياتها ومن ذلك العهدة العمرية لبطريرك القدس المسمى صفرونيوس، ثم عهد عمر لأهل بيت المقدس، ثم نص لعهد (مشكوك فيه) يدخل في نفس السياق، فعهد (موضوع) آخر زُعِمَ أنه من النبي للنصارى.

تبعته بقصة بشير الرومي، التي وردت ضمن ملفات القضية، وهذه القصة ليست لها علاقة مباشرة بها لكنها تستبطن علاقة ضمنية فالرومي هذا كان قد أسلم ثم ارتد إلى النصرانية والقصة تدور في سماء هذا الفلك الذي لا تخرج عنه قضيتنا، وقد فضّلت أن يدرج ضمن ما حققناه من نصوص وردت ضمنه، وعلى العموم للقصة ـ سواء صحت أو لم تصح ـ مداليلها على الحياة الدينية والحوار المتبع بين النصارى والمسلمين في ذلك العصر وأرجح أن تكون القصة موضوعة مستوحاة من الخيال الشعبي الذي ينتصر فيه دين على دين في حوار فيه كثير من التلفيق الواضح .

وفي موضوع آخر شديد الصلة وبالغ الأهمية بموضوع دراستنا وهو موضوع العهدة النبوية للنصارى، رأينا أن نخوض فيه، لنتبين مغزى وحقيقة تلك العهدة التي اختلف حولها المسلمون فضلاً عن أهل الكتاب أنفسهم، وقد أثبتت عدداً من النصوص المختلفة المصدر لهذه العهدة، وفي مقدمتها العهد النبوي الموجود بمكتبة دير سانت كاترين (في سيناء بمصر) على اختلاف التي بين أيدينا، وأثبتنا رأي السريان في ذلك، حيث أن هؤلاء القوم كانوا من نصارى الشرق وفي طليعة من يهمهم أمر العهدة، ليستخدموه في التخفيف من وطأة الأحكام والجزية المفروضة عليهم.

وأخيراً ختمنا بالملحق الثامن المتضمن لإلمامة مختصرة ومركزة حول ما

آل إليه أمر النصارى زمن بني عثمان الذين خلفوا المماليك وساروا مسيرتهم في معاملة النصارى، إذ كانوا يبدون الشدة أحياناً والرفق حيناً آخر، وقد عاش نصارى الشام في ظل العثمانيين بحقبة تاريخية تميزت بالوجود المسيحي الأوروبي والذي بدأت سفنه تتدفق على البحر المتوسط .

وكان لها ما لها من التأثير على وضع نصارى الشام فيما بعد، بدأنا البحث بفتح القسطنطينية (تلك العاصمة التي دُبّر فيها لحريق دمشق بإحكام وحنكة) ثم نراها تستسلم للمسلمين بعد حصار طويل وكأن محمداً الفاتح جاء منتقماً لحريق دمشق إذ فتح القسطنطينية حرباً وعنوة فأباح (السلطان) المدينة لجنده ثلاثة أيام فخرب جنوده الكثير من المعابد والقصور ونهبوا الناس ثم أمر بتحويل كنيسة آيا صوفيا إلى مسجد بعدها تطورت الأمور إلى منحى آخر إذ تدخل علماء الإسلام في تلك الديار إلى أهمية رعاية العهود المعطاة لعموم أهل الذمة.

ومن المهم أننا لخصنا بعض ما يتصل بالعلاقات النصرانية - الإسلامية في تلك الفترة، وأشرنا إلى أهم ما ورد في نصوص المعاهدات المنعقدة بين الطرفين كمعاهدة زشتوي، والخط الهمايوني، و بعض (الفرامين) التي كتبت آنذاك ونزوع العثمانيين أخيراً إلى احترام حقوق النصارى بعد الضغوط الأوروبية وظهور الإصلاحات الدستورية، وبذلك ختمنا دراستنا التي نرجو أن نكون بهذا العرض التاريخي وتحليل الأحداث، قد وفّقنا فيها لإبراز أهمية الموضوع الذي طرقناه حول المسيحية في الشام وحريق دمشق .

وباعتقادي أن إثارة هذا الموضوع على النحو الذي سلكنا فيه من التحقيق والبحث ونشر النصوص المعنية بالحريق ومناقشة آثاره على وضع الأقلية

النصرانية، يضعنا في مواجهة حقائق مهمة لابد للباحث في حقل دراسات الأديان أو الاجتماع من أخذها بنظر الاعتبار، ومن ذلك

١- أن الأقليات الدينية لا تنسى الاضطهاد والعنف الذي يمارس ضدها، بل تخفيه وتتكتَّم عليه، متكيفة مع محيطها الأوسع (الأكثرية) بأسلوب (التقية) والمدارة . ولهذا الأمر انعكاساته النفسية لأنها تُكرِّس عقدة الظلم بين حناياها، حتى إذا بدت الفرصة سانحة، انطلقت من القمقم وفَرَّت من عقالها بثورة من التمرد واستعمال العنف.

٢- إن الأكثرية التي تمارس اضطهاد وقمع الأقليات تتصدرها السلطة السياسية الحاكمة التي تستغل الشعور الديني لدى الطوائف لتشغلهم بمشاكلهم فتلهيهم عن أمور الحكم وتكسب مادياً ومعنوياً بهذا الإجراء فتضلل الرعية بإثارة النعرات الدينية .

٣- إن نشر ملف قضية حريق دمشق والتحقيق حول كافة ملابساته القانونية والتاريخية توضح أن نصارى الشام الذين تحوَّلوا إلى أقلية دينية تحت ظل الإسلام منذ سبعة قرون ونصف قبل حادثة الحريق بأنهم قد مرّوا بظروف مختلفة تقلبت بين الراحة والدعة والطمأنينة، وبين التوتر والاحتقان الطائفي والتعصب الديني المتبادل بينهم وبين مسلمي بلدهم لاسيما بعد اشتداد الفتن الهوجاء، أثناء الغارات المتبادلة مع الدولة البيزنطية، وخلال المد الصليبي الذي كان يستهدف بلاد الشام، وكذلك في ايام تسلط الظلمة على زمام السلطة وفي هذه الحال فالجور يشمل الجميع ولا ينصرف إلى الأقليات الدينية فحسب .

٤- للمؤسسات الدينية الإسلامية: المفتون، ورجال الدين، وأئمة المساجد والتكايا ورجال العلم في المدارس الدينية دور لافت في الصراع الديني الذي كان يجري داخل المجتمع الإسلامي في الشام وتختلف النظرة فيه من عصر إلى آخر بحسب الشخصيات الدينية المهيمنة والواقع السياسي الذي كان يعيشه البلد، وخلا الفترات العصيبة التي كانت مثاراً للحروب والمناوشات العسكرية مع الخارج فرجال الدين عموماً ينزعون إلى السلم الأهلي والمحافظة على الألفة والتماسك الاجتماعي والتعايش المشترك وإبراز النقاط الإيجابية في العهود النبوية، والشروط العمرية دون الخوض في القيود والتفاصيل المذلة وإن ما حدث أيام حريق دمشق من التضييق وإن شمل كافة اتباع الديانة النصرانية فإن العقاب قد خُصص به المتهمون الذين اعترفوا بالجرم وإلى هذا إشارات فتاوى الفقهاء، لكن التعويض كان على كافة النصارى وهذا فيه ما فيه من الظلم الفاضح، لأن أخذ الجميع بجريرة البعض لا يستقيم وأمور العدالة قال تعالى (ولا تزروا وازرة وزر أخرى).

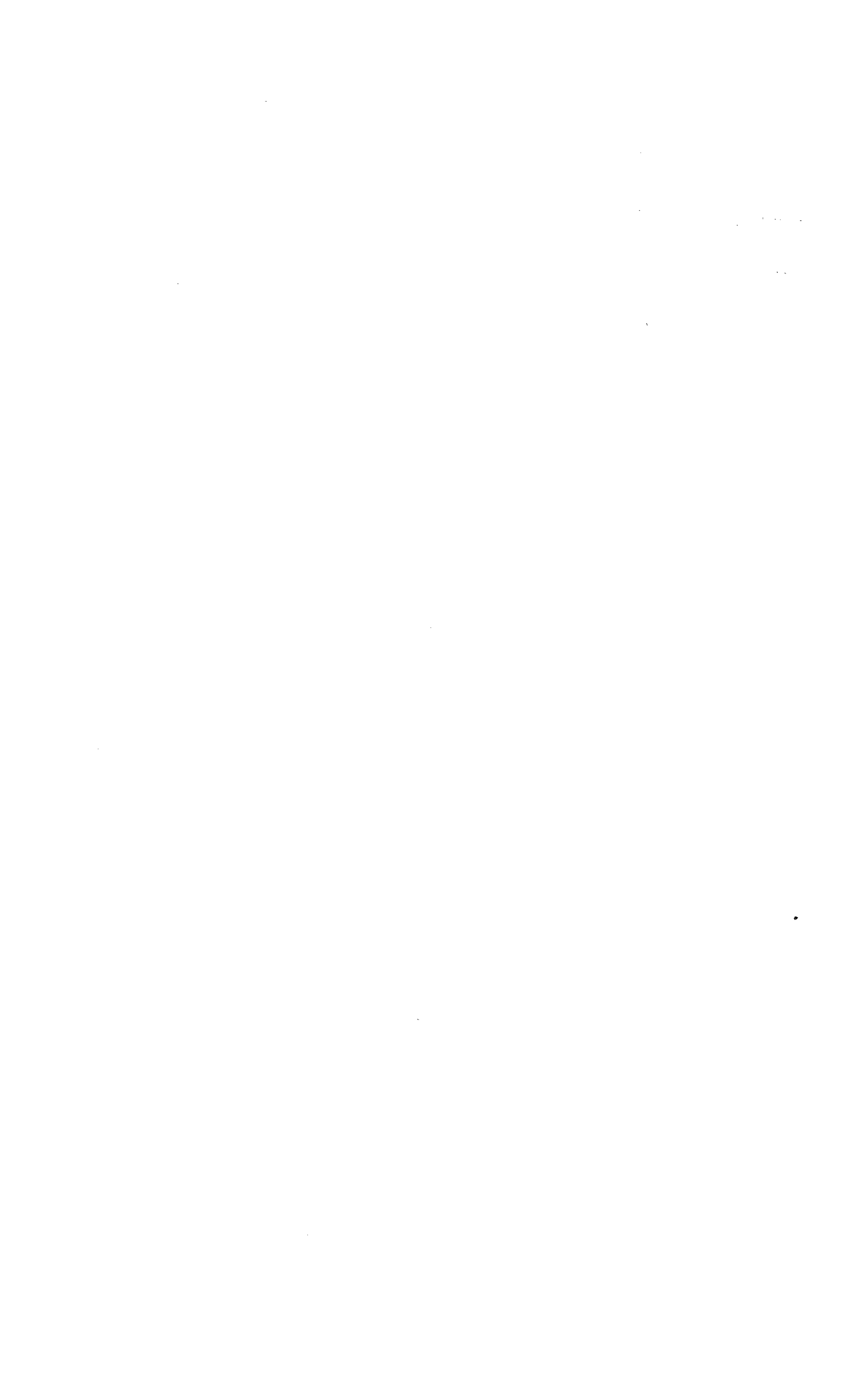
٥- العثور على ملف هذه القضية يعطي دفعاً للدراسات المختصة بنزاع الأديان والمعتقدات ووضع الأقليات الدينية، وللأبحاث الاجتماعية أيضاً إذ يمكن الاستفادة من نتائج تلك الفتن والأحداث المؤلمة لتفادي الاصطفافات الدينية ومواجهة المد الطائفي التي ابتُليت به المجتمعات البشرية ومنها مجتمعنا الشرقي، الذي كان مهد الأديان منذ فجر الحضارة الإنسانية وشرّفه الله بالديانات السماوية الثلاث وبالأمكنة المقدسة التي هي مهوى أفئدة المؤمنين من كل طائفة ودين، ولا أمل للجميع إلا بقبول

بعضهم للبعض الآخر تحت ظل السلام والتعاون والتفاهم المشترك.

وأخيراً فقد حاولت جهدي لإخراج هذه الدراسة بما فيها من النصوص المحققة على قدر استطاعتي ولم أدخر الوقت في سبيل إنجازه على الشكل الماثل الآن، معتذراً عما يجده الباحثون المختصون من خلل غير مقصود فاستيلاء النقص على سائر البشر أمر مفروغ منه، والكمال لله تعالى، وعليه الاتكال في سائر الأحوال، انه نعم المولى ونعم النصير.

هولندا

محمد سعيد الطريحي



الفصل الأول

المسيحية في بلاد الشام

«لمحات تاريخية»

تمهيد.

١- الفتح الإسلامي للشام.

٢- من أحوال نصارى الشام بعد الفتح الإسلامي.

٣- الصراع البيزنطي - الإسلامي.

٤- الحروب الصليبية.

٥- الصليبيون ونصارى الشرق.

٦- تأثر الصليبيين بالمسلمين.





❖ تمهيد حول مصطلح الشام:

أطلق العرب القدامى ـ وبخاصة أهل العراق ـ اسم الشام[1] على كل ما كان يقع وراء نهر الفرات[2] وهو الإقليم الذي يحده بحر الروم[3] (البحر الأبيض المتوسط) غرباً، والبادية من ايلة[4] إلى الفرات ثم من الفرات إلى حدود بلاد الروم (آسية الصغرى) شرقاً، وبلاد الروم حتى الثغور شمالاً ومصر وصحراء سيناء حتى رفح جنوباً[5]. وقدَّم كاتب جلبي الذي عاش في القرن الحادي عشر تعريفاً لحدود الشام أوسع من التعريف الذي ذكرناه، فهو يقول[6] أن الشام يحيط به من جهة الجنوب حد يمتد من رفح إلى صحراء سيناء إلى ما بين الشوبك وايلة إلى البلقاء، ويحيط به من جهة الشرق حد يمتد من البلقاء إلى مشاريق صرخد أخذاً على أطراف الغوطة إلى سلمية إلى مشاريق حلب إلى بالس، ويحيط به من جهة الشمال حد يمتد من بالس مع الفرات إلى قلعة بخم إلى البيرة إلى قلعة الروم إلى سميساط إلى حصن منصور إلى بهني إلى مرعش إلى بلاد سيس إلى طرسوس.

وقد اختلفت الأقوال في معنى اسم الشام فقيل إنما سمي بهذا الاسم لأنه

---

(١) وقيل الشام والشأم (محمد كرد علي، خطط الشام ٤٧/١).

(٢) ابن حوقل. صورة الأرض ص١٥٤، المقدسي. أحسن التقاسيم ص١٥٢.

(٣) ويقال له أيضاً بحر الملح أو بحر الشام (محمد كرد علي، خطط الشام ٩٤/١).

(٤) ايلة: مدينة قديمة على البحر الأحمر (القلزم) وهي على مقربة من العقبة اليوم (خطط الشام ٤٩/١).

(٥) ابن حوقل، صورة الأرض ص١٥٣. الأصطخري. المسالك والممالك ص٥٥، القلقشندي. صبح الأعشى ٧٥/٤-٧٦.

(٦) محمد كرد علي. خطط الشام ٤٩/١.

واقع إلى يسار الكعبة واليد الشومى هي اليسرى[1] وقيل لأنه شامة الكعبة[2]، وقيل من تشاؤم الناس إليه أو لشامات حمر وبيض وسود في أرضه[3] وقيل كذلك أن الاسم مأخوذ من شوم الإبل وهي سوادها[4]، وقيل بل سمي بهذا الاسم لكثرة قراه وتداني بعضها على بعض فتشبهت بالشامات كما جوزوا أن يكون الاسم مأخوذاً من الشؤم[5]. ومهما يكن فإن اسم الشام هو الذي أطلقه العرب على القطر الذي يتناول عامة البلاد الداخلة اليوم في فلسطين وسورية بحسب الاصطلاح الحديث. أما سورية فاسم أطلق على إقليم الشام منذ عهد الفراعنة وأصله (آشورية) وهي تسمية إغريقية أطلقت على البلاد التي خضعت للآشوريين. وقيل أنه سمي بسورية نسبة إلى صور ثغر الشام القديم.

قسم الجغرافيون العرب القدامى إقليم الشام إلى كور أو أجناد واستعمل لفظ الكورة للدلالة على التقسيمات الإدارية. أما لفظ «جند» فهو مصطلح عسكري - إداري. وأصل تسمية الشام أجناداً أن ولاية الأعمال في عهد الفتوحات الإسلامية الأولى كانت أقرب إلى التنظيم العسكري في بادئ الأمر. وكان العمال أو الولاة هم قادة الجند الذين يفتحون بلداً من البلدان. وقد سار أبو بكر على هذا النظام في فتح الشام فعقد اللواء لأربعة قواد ولّى كلاً منهم البلد الذي سار لفتحه، فكانت الشام أربعة أجناد هي دمشق وحمص والأردن وفلسطين[6].

---

(١) ابن عساكر، التاريخ الكبير ١٣/١.

(٢) المقدسي، أحسن التقاسيم ص١٥٢.

(٣) نفس المصدر والمكان.

(٤) ابن عساكر، التاريخ الكبير ١٣/١.

(٥) خطط الشام ٤٨/١.

(٦) جرجي زيدان. التمدن الإسلامي ١١٩/١-١٢٠.

وقد سُميت كل ناحية باسم الجند أو الفيلق الذين يتقاضون أعطياتهم فيها[1]. وفي عهد معاوية جعل الشام خمسة أجناد بإضافة جند قنسرين الذي جعلت قصبته حلب[2] وكان من قبل ضمن جند حمص. أما الجند السادس وهو العواصم والثغور فكان جزء من حمص فأفرده الرشيد عنه وجعله جنداً مستقلاً قصبته أنطاكية[3] وهكذا أصبحت الشام ست كور أو أجناد هي فلسطين والأردن ودمشق وحمص وقنسرين والعواصم والثغور، وقد جرى على هذا التقسيم الإداري أغلب الجغرافيين العرب[4].

يعتبر موقع الشام (سورية) موقعاً عظيم الأهمية، فهي تطل على البحر الأبيض المتوسط الذي يربط قارات العالم القديم الثلاث آسيا وأفريقية وأوروبا وبسبب هذا الموقع الممتاز، كانت سورية منذ القديم معبراً للأقوام والأمم وجسراً مرت عليه الهجرات البشرية لوقوعها بين آسيا الصغرى ومصر وقربها من العراق والجزيرة العربية ومن ثم اقتحم هذا الإقليم كثير من الأقوام قديماً وحديثاً كالحيثيين والآشوريين والمصريين واليونان والرومان والعرب والصليبيين، فبعد انقراض مملكة الحيثيين في القرن الثامن قبل الميلاد على يد الآشوريين غلب اسم (آرام) على أغلب سورية بسبب سكنى الآراميين فيها ولكن هذه البلاد ظلت تتداولها أيدي الآشوريين والبابليين والمصريين حتى استولى عليها الفرس وظلت بأيديهم حتى سنة ٣٣٣ قبل الميلاد، حيث قضى الإسكندر المقدوني على دولة الفرس، وأصبحت الشام ولاية يونانية تابعة

---

(١)خطط الشام ٥/٦.

(٢) الغزي. نهر الذهب في تاريخ حلب ٢/٢٠.

(٣) نفس المصدر والمكان.

(٤) المقدسي ص١٥٤، ابن حوقل ص١٥٤، الأصطخري المسالك والممالك ص٥٦.

لسلوقس أحد قواد الإسكندر، وهو الذي أكمل بناء أنطاكية وسماها باسم أبيه أنطيوخس وظلت الشام خاضعة لحكم السلوقيين القاسي، فلما ضاق الشاميون بحكامهم اليونان استنجدوا بملك أرمينية فاستولى على البلاد في سنة ٨٣ق.م وظل فيها حتى احتلها الرومان في سنة ٦٦ق.م (٥٠) وظلت سورية تحت حكم الرومان بعد انقسام دولتهم في ٣٩٥م إلى غربية وشرقية، فأصبحت ضمن أملاك الإمبراطورية الرومانية الشرقية (أي البيزنطية) حتى الفتح العربي. وقد تركت كل الأقوام المذكورة آثاراً قوية أو ضعيفة في تكوينها البشري وتراثها الحضاري، غير أن العرب كانوا أقوى هؤلاء جميعاً تأثيراً وطابعاً.



١ـ الفتح الإسلامي للشام

عُرفت دمشق قبل الإسلام مدينةً تابعة للإمبراطورية البيزنطية، وكانت بالنسبة للبيزنطيين مركزاً استراتيجياً هاماً للحدود الجنوبية للإمبراطورية، وبعد ظهور الإسلام بدأ الصدام مع البيزنطيين على عهد النبي (ﷺ) الذي أرسل إلى الشام بضع حملات اشتبكت معهم في عمليات حربية محدودة كانت أُولاها في مُؤتة[1]، وعلى عهد أبي بكر عقد المسلمون العزم على فتح الشام منذ عام ١٢هـ /٦٣٣م وبعد سلسلة من الحوادث والاشتباكات العسكرية مع البيزنطيين في جنوبي سورية وفلسطين تمكن الجيش الإسلامي من حصار دمشق لمدة أربعة أشهر (من ربيع الثاني إلى رجب من عام ١٤هـ) وتم فتحها مساء الأحد (١٥ من رجب عام ١٤هـ / ٣ أيلول ٦٣٥م) حيث تمكن خالد بن الوليد وجنده من اقتحامها من جهة الباب الشرقي[2]، وتم الاستيلاء عليها عنوة ثم استمر الفتح حتى أمست جميع بلاد الشام تحت سيطرة المسلمين وتخلل

---

(١) مؤته: قرية من قرى البلقاء في حدود الشام. قال المهلبي: على اثني عشر ميلاً من أذرح ضيعة تعرف بمؤته بها قبر جعفر بن أبي طالب، (معجم البلدان ٥/٢١٩ـ ٢٢٠) وهي اليوم من المدن الشهيرة في المملكة الأردنية الهاشمية، ومزار جعفر ومن استشهد معه من الصحابة هناك من المزارات المشهورة. قال حسان بن ثابت:

فلا يبعدن الله قتلى تتابعوا بمؤته منهم ذو الجناحين جعفر

(٢) راجع التفاصيل في كتاب: تاريخ فتوح الشام، رواية محمد بن عبد الله الأزدي، تحقيق عبد المنعم عبد الله عامر، الناشر مؤسسة سجل العرب، القاهرة ١٩٧٠، ص٩٤ وما بعدها في «مسير خالد بن الوليد إلى دمشق ومحاصرة أهلها». وكتاب غزوات ابن حُبيش للمنصور الموحدي عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن يوسف بن حبيش، تحقيق د. سهيل زكار، ج١، دار الفكر بدمشق ١٩٩٢، ص٢٠٢-٢٠٣، وما قبلها في ذكر فتوح الشام.

ذلك معركة فاصلة بينهم وبين الجيش البيزنطي، وقعت على اليرموك وهو نهر يقع إلى الشرق من نهر الأردن وبحيرة طبرية في رجب سنة ١٥هـ - ٦٣٦م هُزم فيها البيزنطيون وتراجعت فلولهم إلى ما وراء الأناضول.

واتخذ خالد مع بقية القادة والجنود منازلهم بدمشق وقرى الغوطة[1]، ويبدو انهم وجدوا في الأديرة النصرانية القائمة هناك مبتغاهم من الاقامة في ابنية جاهزة وفَّرت لهم الراحة والطمأنينة بعد شهور طويلة من القتال والحياة تحت ظلّ الخيم المتنقلة عبر المعسكرات المضنية التي كانت تقام في الصحراء والفضاوات النائية عن المدنيّة[2].

وكان نزول خالد في دير يُدعى "دير صليبا" أو "دير السائمة" ويقع على ميل من الباب الشرقي ونظراً لإقامته فيه سُمي هذا الدير باسم (دير خالد)، وكان لهذا الدير موقعاً جميلاً جداً كما يبدو من هذه الأبيات التي قيلت فيه:

جنةٌ لُقِّبت بدير صليبا … مُبدعاً حُسنه كمالاً وطيبا
جئتُه للمُقام يوماً فظلَنا … فيه شهراً وكان أمراً عجيبا
شجرٌ محدقٌ به ومياهٌ … جارياتٌ والروض يبدو ضُروبا[3]

ولم يكتفِ خالد بالسيطرة على هذا الدير بل كان له محل اقامة اخرى في

---

(١) الغوطة لغة: مجتمع النبات، والمقصود هنا بالغوطة: الكورة التي منها دمشق كانت من أنزه بلاد الله وأحسنها منظراً (معجم البلدان ٢١٩/٤) ولحبيب زيات رسالة بعنوان "الحوطة في قرى الغوطة".

(٢) يراجع بحث طه الهاشمي: خالد بن الوليد في العراق، مستل من مجلة المجمع العلمي العراقي ص١ وما بعدها.

(٣) معجم البلدان ٥٠٧/٢. دار صادر ١٩٩٥.

دير قرب دير البقر، وهو دير حَرْملة بن الوليد قرب جوبر[1].

أما دير سمعان[2] - وقد كان لليعاقبة[3] - فهو الدير الثالث الذي جعله خالد مسرحاً لنشاطه وحركة جنده، يقع خارج باب توما[4]، ويظهر أنه كان واسع الصحن ولولا ذلك لما اتخذه مسجداً مؤقتاً يصلي به الجند فروضهم ولذلك يمكن أن يكون محل هذا الدير أول مسجد للمسلمين بدمشق. وقد بقيت أطلاله قائمة، ومعروفة بنفس الاسم على الأقل حتى أواسط القرن الثامن عشر (١٧٣٧ - ١٧٤٠م) في الفترة التي زار فيها دمشق الرحالة البريطاني ريتشارد بوكوك Richard Pococke وأشار خلالها لهذا الدير تحت اسم "Church of St. Simon Stylites" وتعليقاً على ذلك يقول الباحث أحمد نوري ايبش: " ولا يعني ذلك أن دير سمعان كان باقياً إلى الزمن المذكور، ولكن بوكوك يعني دون شك مسجد خالد وزاوية الشيخ أرسلان، اللذين أُقيما

---

(١) جوبر: قرية بالغوطة في دمشق، قيل فيها:

إذا افتخر القيسي، فاذكر بلاءَه ... بزرَّاعة الضحَّاك شرقيَّ جَوْبَرَا

وقد نسب لجوبر الكثير من المحدثين والأعلام (معجم البلدان ٢/١٧٦—١٧٧) وجوبر معروفة حتى اليوم قرب دمشق.

(٢) دير بنواحي دمشق، وعنده قبر عمر بن عبد العزيز، وفيه يقول الشاعر:

قد غيبوا في ضريح الترب منفرداً ... بدير سمعان قسطاس الموازين

وسمعان المنسوب له الدير هو المعروف لدى النصارى بشمعون الصفا (معجم البلدان ٢/٥١٧).

(٣) اليعاقبة هم أصحاب يعقوب البرادعي Jacub Baradeus القائل بوحدة طبيعة المسيح وكان أسقف كرسي ادسا Edessa كما يسميها اليونان، أو الرها كما يسميها السريان والعرب وأورفا لدى الترك. واليعاقبة اليوم هم السريان الأرثوذكس وهم من أعرق كنائس المسيحية الأصيلة.

(٤) باب تُومَاءَ، أحد أبواب مدينة دمشق، وفيه يقول عبد الرحمن بن أبي سرح:

وأنا على بابٍ لتوماء زَمْني ... وقد حانَ من باب لتوما حُيونُها

(معجم البلدان ١/٣٠٧) وما يزال هذا الموضع معروفاً عند الباب الشرقي لدمشق الحالية.

ثمة مكان الدير "[1].

وقد كانت لخالد تجربة سابقة في التعامل مع النصارى فهو الذي فتح (دومة الجندل)[2] التي كان ملكها اكيدر بن عبد الملك الكندي وكان نصرانياً وفي رواية ابن اسحاق " أن خالداً قدم بأكيدر على رسول الله، فحقن له دمه، وصالحه على الجزية، ثم خلّى سبيله، فرجع إلى قريته ". وتقدم خالد في العراق من الجنوب إلى الشمال حتى فتح عين التمر (قرب كربلاء) وكانت فيها كنيسة كبيرة. وجد فيها اربعين غلاماً يتعلمون الانجيل فأخذهم[3].

وفي وقعة الّيْس على نهر الفرات (قرب الشنافية حالياً)[4] اشتبك خالد مع

---

(١) مجلة الحوليات الاثرية العربية السورية، المجلد ٣٥ (سنة ١٩٨٥).

(٢) دومة الجندل: عدها ابن الفقيه من أعمال المدينة المنورة. سميت بدوم بن إبراهيم. وقال ابن سعد: سميت دومة الجندل لأن حصنها مبني بالجندل، وقد افتتحها خالد بن الوليد عنوة سنة ٩هـ ثم أن النبي (ﷺ) صالح أكيدر الملك بن عبد الملك على دومة، وآمنه وقرر عليه وعلى أهله الجزية، وكان نصرانياً فأسلم أخوه حُريث فأقره النبي (ﷺ) على ما في يده ونقض أكيدر الصلح بعد النبي (ﷺ) فأجلاه عمر في من أجلى من مخالفي الإسلام إلى الحيرة، فنزل في موضع منها قرب عين التمر وبنى به منازل وسماها دومة وفي ذلك يقول أكيدر:

يا من رأى ظعناً تحمّل غدوةً   من آل أكدرَ، شجوُه يعنيني

قد بُدّلت ظعناً بدار إقامة   والسَير من حصن أشمَّ حصين

معجم البلدان ٢/٤٨٧ – ٤٨٨.

(٣) ابن الاثير:الكامل في التاريخ ٢/٢٦٤ وما بعدها، فتوح البلدان: ١١٨، وقال البكري " وبكنيسة عين التمر وجد خالد بن الوليد الغلمة من العرب الذين كانوا رهناً في يد كسرى وهم متفرقون بالشام والعراق ومنهم جد الكلبي العالم النسابة وجدّ ابن ابي اسحاق الحضرمي النحوي وجدّ محمد بن اسحاق صاحب المغازي؛ ومنهم الحسن بن أبي الحسن البصري " معجم ما استعجم ٣١٩/١.

(٤) كانت الشنافية المركز العام لتجارة الفرات الأوسط وتقع على ضفتي عمود الفرات المكوّن من فرعيه ــ فرع الكوفة وفرع أبو الكفوف ــ في غربيها، وتتبع مركز قضاء الشامية (محافظة=

الفرس وكان على مقدمة جيشهم حلفائهم عربٌ الضاحية من أهل الحيرة ونصاراهم، وكانت مقاتلة خالد لعرب الضاحية ما أثار حفيظة قومهم من النصارى، لأن خالداً أصاب في تلك الموقعة نصارى بكر بن وائل[1]، وغاية ما نتوصل إليه من هذه الحادثة سعة انتشار النصرانية بين القبائل العربية المقيمة في العراق.

وبالتالي مهدت تلك العمليات العسكرية لفتح مدينة الحيرة أهم قصبة في غرب الفرات والحاضرة النصرانية العربية التي كانت تحظى بدعم الفرس بل كانت تخضع لسيطرتهم المباشرة بعدما انهوا حكم المناذرة فيها، ولطالما اتخذوها دولة حاجزة بين إمبراطوريتهم والإمبراطورية البيزنطية، وقد تم فتح الحيرة واخضاع النصارى للحكم الإسلامي وربما يكون الجيش وقادته قد اتخذوا من ممتلكات النصارى أو اديرتهم مراكز أو محلات للإقامة كما جرى فيما بعد في بلاد الشام حين توجه إليها خالد (أواخر المحرم من سنة ١٣هـ / أواخر آذار من سنة ٦٣٤م).

=القادسية) وتبعد عن القضاء المذكور جنوباً ٤٥ كيلو متراً. الحسني: العراق قديماً وحديثاً /١٦٠ بيروت ١٩٨٠ مطبعة دار الكتب.

(١) وفي هذا قال أبو محجن الثقفي، وكان قد حضر هذا اليوم وأبلى بلاءً حسناً:

وما رمت حتى خرقوا برماحهم ... ثيابي وجادت بالدماء الاباجلُ

مررت على الانصار وسْطَ رحالهم ... فقلتُ ألا هلْ منكم اليومَ قَافلُ؟

وقرّبتُ روّاحاً وكوراً وغرفةً، ... وغودرَ في (أُليّس) بكرٌ ووائل

معجم البلدان. ج١ ص٢٤٨.

٢ ـ من أحوال نصارى الشام بعد الفتح الإسلامي

قام بين المسلمين والمسيحيين الذين أخضعهم الإسلام، تعاهد بتبادل المنافع، فمقابل الابقاء على حياة أهل الذمة من اليهود والنصارى عامة يقدم هؤلاء فدية للمسلمين، ونظير السماح لهم بالتصرف بأحوالهم يقدمون إلى بيت المال جزية معينة (capitation Poll-TAX).

واشترط عليهم عمر بن الخطاب لبس الزنار، ونهاهم عن التشبّه بالمسلمين في ثيابهم وسروجهم ونعالهم وأمر أن تكون قلانسهم مضّربة، كما أمر نساءهم بعدم ركوب الرحائل، وقد جاء في كتابه إلى واليه في العراق " مُروا من كان على غير الإسلام أن يضعوا العمائم، ويلبسوا الاكسية، ولا يتشبّهوا بشئ من الإسلام " وكتب في رسالة اخرى " لا يركب نصراني سرجاً، ولا يلبس قباء ولا طيلساناً ولا سراويل ذات خدمة ولا يمشين بغير زنّار من جلد.. " وبالرغم مما يبدو في هذه الرسائل من التشدد فقد جعل عمر صدقات النصارى من بني تغلب في فقرائهم دون ضمها إلى بيت المال[1]. وروى ابو عبيد القاسم بن سلام في كتابه الأموال عن نافع عن أسلم مولى عمر ابن الخطاب " أن عمر أمر في أهل الذمة ان تجزّ نواصهم، وأن يركبوا على الأكف، وأن يركبوا عرضاً، وأن لا يركبوا كما يركب المسلمون وأن يوثقوا المناطق قال أبو عبيد " يعني الزنار "[2].

---

(١) الديارات النصرانية في الكوفة ٣٠ ـ ٣٣.

(٢) الأموال لأبي عبيد ص٦٦ـ٦٧ والزنار ما يربط في وسط النصارى والمجوس، انظر القاموس المحيط ٤٢/٢، الأكف: جمع أُكاف بضم الهمزة وهي البرذعة. والمقصود أن يركبوا على الأكف بالعرض بحيث تكون رجلا الراكب إلى جهة وظهره إلى جهة. وفي رواية اخرى نقلها ابن عبيد ايضا في الاموال ص٦٧ ان عمر أمر اهل الذمة بربط الكستيجان في اوساطهم=

وكانت ميسون زوجة معاوية أول ملوك بني أمية بالشام نصرانية يعقوبية المذهب، وحُكي ان معاوية كان يتحكم في الخلافات الواقعة بين اليعاقبة والملكانية[1] في بلاد الشام، وقيل أنه نصَّب طبيبه النصراني ابن اثال مديراً لمقاطعة حمص[2] وهي وظيفة مالية لم يسبق لنصراني أن وصل إليها[3].

ولما خاصم النصارى حساناً بن مالك الكلبي إلى عمر بن عبد العزيز في كنيسة بدمشق قال له عمر: " ان كانت من الخمس عشرة كنيسة التي في عهدهم فلا سبيل لك إليها[4] ".

ورُوي انه لما خاصمت العرب في كنيسة بدمشق يقال لها كنيسة ابن نضر كان معاوية أقطعهم إياها فأخرجهم عمر بن عبد العزيز منها فدفعها إلى النصارى فلما ولي يزيد ردها إلى بني نضر[5].

وفي كتاب سجل يحيى بن حمزة أن النصارى ذكروا لعمر بن عبد العزيز أن عتقاء العرب قد سخروا بهم وبرئيسهم وبدينهم وجماعتهم من أهل

=ليعرف زيهم من زي اهل الإسلام، والكستيجان جمع كستيج بضم الكاف وهو خيط غليظ يشده الذمي فوق ثيابه دون الزنار. وزاد ابن قدامة في المغني ٩/٣٦٠ بانه امر اهل الذمة ان يتميزوا بكناهم ايضاً

(١) الملكية أو الملكانية وهو المتواتر في الكتب بإحدى الفرقتين الدينيتين اللتين نشأتا في مصر المسيحية قبل الإسلام. وكان قيامهما نتيجة الخلاف المذهبي الذي قام بها وبسائر بلاد الدولة الرومانية الشرقية حول طبيعة المسيح وجوهره ومشيئته وأقنومه.

(٢) ابن آثال ذكره ابن ابي اصيبعة في طبقات الاطباء ١/١١٦ وقال: " كان طبيباً متقدماً من الاطباء المتميزين في دمشق نصراني المذهب ولما ملك معاوية اصطفاه لنفسه.. وكان كثير الاعتقاد فيه والمحادثة معه ليلاً ونهاراً وروى صاحب الأغاني (١٥:١٣) كيف قتله خالد بن المهاجر لأنه سقى بامر معاوية سُماً عمّه عبد الرحمن، وعلى الجملة كان معظم أطباء بني أمية في الشام من المسيحيين (راجع لويس شيخو: النصرانية وآدابها. القسم الأول ص٣٦٦ ــ بيروت١٩١٢).

(٣) فيليب حتي: تاريخ العرب (مطول) ٢/٢٥٩ طبع سنة ١٩٥٣.

(٤) خطط الشام: ٦/ ٨.

(٥) المصدر السابق

القرى وأن أولئك العتقاء أحلاف وفرقٌ وأنهم غلبوهم على كنائسهم وسألوا الوفاء لهم بما في عهدهم وبما في الكتاب الذي كتبه لهم خالد بن الوليد عند فتح مدينتهم فأمرهم ان يأتوا بحجتهم فأتوا بكتاب خالد بن الوليد فاذا فيه " بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أعطى خالد بن الوليد أهل دمشق يوم فتحها أعطاهم أماناً لأنفسهم ولأموالهم وكنائسهم لا تهدم ولا تسكن لهم على ذلك ذمة الله وذمة الرسول عليه الصلاة والسلام وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين لا يعرض لهم أحد إلا بخير إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية. شهد بهذا الكتاب يوم كتب عمرو بن العاص وعياض بن غنم ويزيد بن أبي سفيان وأبو عبيدة بن الجراح ومعمر بن غياث (عتاب) وشرحبيل بن حسنة وعمير بن سعد ويزيد بن نبيشة وعبد الله بن الحارث وقضاعي بن عمر وكتب في شهر ربيع الأول سنة خمس عشرة[١] ".

قال يحيى بن حمزة فنظرت في كتابهم فوجدته خاصة لهم، وفحصت عن أمرهم فوجدت فتحها بعد حصار، ووجدت ما وراء حائطها آثاراً وضعت لدفع الخيل ومراكز الرماح، ونظرت في جزيتهم فوجدتها وظيفة عليها خاصة دون غيرهم، ووجدت أهلها عند فتحها رجلين رجلاً رومياً قتلته الحرب أو نفته، ومساكنهم وكنائسهم قسمة بين المسلمين معروفة لا تخفى، ورجلاً من أهلها حقن دمه هذا العهد، فمساكنهم وكنائسهم مع دمائهم لهم لم تسكن، ولم تقسم معروفة ليس تخفى، فقضيت لهم بكنائسهم حين وجدتهم أهل هذا العهد وأبناء البلد، ووجدت من نازعهم لفيفاً طرأ وذلك لو أنهم أسلموا بعد فتحها كان لهم صرفها مساجد ومساكن. فلهم في آخر الدهر ما لهم في أوله وأثبت في الأصول قبل وأشهد الله عليه وصالح المؤمنين، وفاء بهذا العهد الذي عهده لهم السابقون الأخيار فلم يكن بينهم خاصة في ذلك اختلاف نظر لهم..

(١) خطط الشام ٦/ ٨.

وقضيت لمن نازعهم بما كان لهم فيها من حلية أو آنية أو كسوة أو عرضة أضافوا ذلك إليها أن يدفع ذلك إليهم بأعيانها إن قدروا عليه وسهل قبضه، أو قيمة عدل يوم ينظر فيه شهد الله على ذلك(1).

وبالرغم من انتصاف عمر بن عبد العزيز للنصارى في هذه الحادثة فقد جرى في عهده لأول مرة إحصاء للرهبان النصارى فأخذت الجزية منهم عن كل راهب، وهي أول جزية أخذت من الرهبان(2).

والأمويون هم قد سبقوا الجميع في التشدد على أهل الذمة ففي زمن عبد المللك بن مروان أمر بزيادة الجزية والخراج على أهل الذمة(3)، وزادها أكثر من بعده ولده هشام بن الملك(4) ويروي الجهشياري عن سليمان بن عبد الملك أنه قال لعامله "هبلتك أمك احلب الدر فإذا انقطع فاحلب الدم والنجا"(5).

وبحسب المصادر المسيحية فات نصارى الشام قد لحقهم ظلم كبير خلال العهد الأموي كما يذهب إليه الارشيمندريت اثناسيوس حاج بقوله:

"لقد لحق البطريركية الانطاكية أضرارٌ غير يسيرة، إذ كان مؤمنوها الملكيون من المناوئين للعرب، على حين أن اليعاقبة كانوا موالين لهم: نجم عن ذلك رضى العرب على اليعاقبة، وتنكّرهم للملكيين، الذين اتُّهموا دائماً بالميل إلى الروم والتجسّس لهم. وهذا ما حدا الأمويين إلى تحريم قيام بطاركة ملكيين على الكراسي البطريركية الثلاث، فبقي كرسي أنطاكية في

---

(1) خطط الشام ٦/ ٨.

(2) المقريزي: الخطط ٣٩٤/٤ القاهرة ١٣٢٦هـ.

(3) عبد العزيز الدوري: العصر العباسي الأول ص٩ بغداد ١٩٤٥.

(4) المقريزي: الخطط ٣٦٤/٤.

(5) الجهشياري: كتاب الوزراء ٥١ ــ ٥٢ القاهرة ١٩٢٨.

حالة فراغ من بطريرك عليها خلال معظم القرن السابع. في هذه الفترة، نشط رهبان دير مار مارون قرب أفاميا، والرهبان والمؤمنون التابعون له، فأقاموا لهم بطريركاً. وهكذا تأسست البطريركية المارونية، التي سيعترف بها مروان الثاني (٧٤٤- ٧٤٨)."[1]

وجاء في تاريخ الكنيسة: "إن حالة المسيحيين عموماً، والملكيِّين خصوصاً، على إثر الفتح العربي، أخذت تسوء تدريجياً، حتى غدت في أواخر القرن السابع لا تطاق: لم يكفهم ما أرهقهم به عبد الملك (٦٩٢) من الضرائب، حتى كانت سياسة الوليد الغاشمة فأمر سنة ٧١١ بقتل كل المسيحيين الذين وقعوا أسرى في حرب الروم، كما أنه حاول إرغام كل قبيلة تغلب على المروق من دينها، واغتصب كنيسة القديس يوحنا الكبرى بدمشق. وهكذا نرى الخلفاء الأمويين يخرجون على سياسة التسامح التي نهجوها في بدء حكمهم، ليستدرجوا المسيحيين بشتى الأساليب إلى انتحال الإسلام. فعمر الثاني (٧١٧ـ٧٢٠) أعفى المسيحيين المارقين من دينهم، من الجزية على الأعناق، وحرّم قبول شهادة مسيحي على مسلم، واستعمال النواقيس، حتى الصلاة على صوت عال. ويزيد الثاني (٧٢٠ ـ ٧٣٤) أصدر أمراً سنة ٧٢٣ بتدمير الصوَر المقدسة في المعابد والبيوت على السواء"[2].

---

(١) الرهبانية الباسيلية الشويريه: في تاريخ الكنيسة ١٦/١ بيروت ١٩٧٣.

(٢) (تاريخ الكنيسة فليش ومارتين م٤ ص٧٩٧). الرهبانية الباسيلية ١٧/١.

وفي العهد العباسي بنى أبو جعفر المنصور كنيسة في دمشق لبني قطيطاني الغوريق، ذكر ذلك ابن عساكر[1]. ولما وقع حريق في كنيسة مريم بدمشق أيام أحمد بن طولون امر أن تفرق على أهل الحريق سبعون ألف دينار ففضل عنهم أربعة عشر ألف دينار فأمر أن تفرق عليهم على قدر سهامهم ثم أمر ففرّق على أهل دمشق وغوطتها مال عظيم فأقل من أصابه من ذلك دينار[2]. ونقل ابن المعمار الحنبلي قصة تتعلق باضطهاد تعرض له النصارى بمصر قال:

يحكى انه في بعض السنين وقع حريق بمسجد بمصر، وكان في جواره فندق للنصارى، فظن المسلمون ان النصارى احرقوا المسجد فاحرقوا الخان وقبض السلطان على جماعة من الذين احرقوا الخان وكتب لهم رقاعا ونثرها عليهم وكان في بعضها القتل وفي بعضها القطع وفي بعضها الجلد وأمر كل واحد منهم أن يتناول رقعة ليفعل به ما فيها وكان فيهم رجل له والدة وقد خرج رقعته القتل فقال له بعض الجماعة: انت لك والدة وقد خرج في رقعتي الجلد، خذ رقعتي واعطني رقعتك لأفديك حتى لا تحزن امك عليك، ففعلا ذلك، فسمع السلطان بقصتهما فأمر باطلاق الكل إكراما للمؤثر على نفسه[3].

وكانت الفترة بين أواخر العهد العباسي فترة كثرت فيها الصراعات مما كان يؤدي إلى عدم الاستقرار وإلى اضطهاد المسيحيين نتيجة لذلك ففي مقابل

---

(١) ومع ذلك فقد قاسى نصارى المشرق الويلات خلال هذا الحكم خاصة ايام المتوكل العباسي، ولأجل ذلك شارك نصارى حمص سنة ٢٤٠ هـ (٨٥٣ ـ ٨٥٤ م) في الثورة ضد العباسيين،وبعد فشل الثورة انتقم منهم المتوكل شر انتقام (ثورات بلاد الشام) المورد، العدد: ١ السنة ٤ (١٩٧٥) ص٢٠.

(٢) تردد ذكر كنيسة مريم (الكاثوليكية) بدمشق كثيراً ولا سيما في حوادث نهبها أو حرقها أو تهديمها، انظر خطط الشام ٦/ ١٠- ١١.

(٣) كتاب الفتوة ص٢٨٣ ـ٢٨٤.

حالة الأمن التي ذكرها الحاج برنارد الحكيم أثناء زيارته للقدس عام ٨٧٠م نجد أن الأحوال اضطربت في عهد الدولة الطولونية التي دخلت القدس في حكمها عام ٨٣٣م حيث قاسى النصارى وحكم عليهم بلبس زي خاص بهم وحرم عليهم ركوب الخيل إلا أن الأحوال ازدادت سوءاً في عهد الدولة الاخشيدية إذ قام والي القدس في عهد كافور الاخشيدي محمد بن إسماعيل الصنهاجي باضطهاد بطريرك القدس يوحنا فتوجه إلى مصر وشكاه إلى الملك كافور فما كان من الوالي عند عودة البطريرك إلا أن قام ومعه جمهور من المسلمين واليهود بمهاجمة البطريركية ودمرها ثم أحرقوا كنيسة صهيون وكنيسة القيامة وقتلوا البطريرك وأحرقوا جثته على عمود في ساحة قسطنطين ويعتقد مؤلفا "خلاصة تاريخ كنيسة أورشليم الأرثوذكسية" شحادة خوري ونقولا خوري أن هذه الأفعال التي شقت على مسيحي الشرق أغضبت البابا في روما وولدت له أفكاره أن يجهز حملة عسكرية على فلسطين وأن يوحنا ملك الروم اغتنم فرصة اختلال الأحوال في بلاد الشام سنة ٩٧٢م فاستولى على بيروت ثم زحف على القدس واستولى عليها إلا أن المنية أدركته فانسحب جيشه في نفس الوقت الذي استولى فيها الخليفة المعز لدين الله الفاطمي على مصر ثم احتل بلاد الشام دون مقاومة[1].

ولا بد أن يكون للصراع المستمر بين البيزنطيين والمسلمين انعكاساته السلبية على أحوال النصارى المقيمين بدمشق وبلاد الشام عموماً فبدأت السياسة تنال من بيوت العبادة حتى اذا أحس الحاكم المسلم أن قومه في شدة في ديار الحرب انتقم من أهل ذمته في ديار الإسلام وسلّط العامة من طرف

---

(١) أبحاث ودراسات في التاريخ العربي: ٣٤٨ـ٣٤٩. مقال (المسيحية العربية في القدس) للسيد رؤوف أبو جابر.

خفي ليخربوا كنائس النصارى وبيعهم، فلما غـزا نيقفـور دومستيقس جزيـرة كريت في اسطول ونازلها في النصف من المحرم سنة ٣٥٠هـ وحاصرها ثمانية أشهر وفتحها وخرّب ما فيها من المساجد وسبى مـن أهلـها خلقـاً كـثيراً قـام المصريون فخربوا بعض ما عندهم من الكنائس انتقاماً من الروم على فعلتهم.

وفي السنة الأخيرة من رئاسة البطريـرك قسيما وهـي سنة ثلاثـة عشـرة وثلاثمائة أحرق المسلمون كنيسة مريم بدمشق ونهبوا ما فيها وتتبعوا كنـائس اليعاقبة والنساطرة. وقال ابن بطريق: إن هـذه الحادثـة وقعـت في رجـب سنة اثنتي عشرة وثلاثمائة وذلك أن المسلمين في دمشق ثاروا فهدموا كنيسة مارت مريم الكاثوليكية، وكانت عظيمة كبيرة حسنة أنفق فيها مائتا ألف دينار، ونهبوا ما كان فيها من آنية وغير ذلك من حلي وستور، ونهبـت ديـارات خاصـة ديـر النساء الذي كان في جانب الكنيسـة وشـعثوا كنـائس كـثيرة للملكيـة، وهـدموا كنيسة النسطورية. وثار المسلمون بالرملة وهدموا للملكية فيها كنيستين كنيسة مار قزماس وكنيسة مار كورقس وهدموا كنيسة عسقلان وقيسارية وذلك سـنة (٣٦١). وثار المسلمون بكنيسـة بيت المقدس وأحرقوا أبواب كنيسة قسـطنطين القبلية سنة (٣٢٥).

وهكذا كان الداعي إلى ذلك ما وقع من اضطهاد المسلمين في الروم على الغالب فلم يجد ملوك الإسلام واسطة لتخفيف الشر الواقع على رعاياهم مـن أهل الإسلام إلا بالضغط على النصارى في ديارهم والتأثير في ملوك النصـارى بضربهم في اكبادهم في كنائسهم وهي مهوى قلوب أبنائهم في بيـت المقـدس وما إليها بدليل أن أبن البطريق[1] الذي أورد تلك الحوادث قال:

---

(١) أبن البطريق: التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق. مط الآباء اليسوعيين بيروت ١٩٠٢.

وقع بين الروم والمسلمين هدنة مرضية في سنة ست وعشرين وثلاثمائة وقال في حوادث السنة التالية: إن المسلمين ثاروا في عسقلان فهدموا كنيسة كبيرة تعرف بكنيسة مريم الخضراء ونهبوا جميع ما فيها وأحرقت، وعاضد المسلمين اليهود في هدمها. وكان اليهود يشعلون النار في الحطب ويجرونه بالبكر إلى أعلا السقوف حتى يحرقوها وينحل رصاصها وتقع عمدها وخربت الكنيسة وبقيت خربة. وروى أيضاً أن الصناحي والي القدس اضطهد بطريرك القدس فاستعدى عليه ملك مصر فأعداه فلم يستمع الوالي لذلك وأختبأ البطريرك في كنيسة القيامة فهاجمها الوالي وأحرقوا أبوابها وسقطت القبة، وتوجه الرعية إلى كنيسة صهيون وأحرقوها ونهبوها، وهدم اليهود وأخربوا أكثر من المسلمين.

ووقعت في العصور التالية بعض حوادث من تخريب كنيسة أو بيعة كان السبب فيه داخلياً كأن يميل أهلها إلى عدو خارجي يداهم القطر، فقد استطالوا سنة (٦٥٨هـ) على المسلمين كما قيل فنهبهم المسلمون وخربوا كنيسة مريم بدمشق وكما وقع لهبة الله النصراني متولي خزانة السلطان فإنه " كان تمكن من المسلمين وآذاهم، ورفع منار النصارى وتسلطوا بجاهه على المسلمين، وجدد لهم بناء كنيسة مريم وشيد بنيانها، ورفع بابها، وحسن عمارتها، ثم هدم ما زاده، وأعيدت الكنيسة إلى ما كانت عليه، وتولى النصارى هدم ذلك بانفسهم "[١].

---

(١) زارها ابن جبير ووصفها بقوله: "وليس بعد بيت المقدس عندهم أفضل منها، وهي حفيلة البناء، تتضمن من التصاوير أمراً عجيباً، تبهت الأنظار وتستوقف الأبصار، ومرآها عجيب، وهي بأيدي الروم ولا اعتراض عليهم فيها" أبحاث المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام ١٩٧٤، عمان ص٢٢٨.

وفي سنة ٦٩٤هـ/ ١٢٩٥م جلس السلطان غازان على التخت وأمر بإلزام أهل الذمة الغيار فكانت علامة النصارى شدَّ الزنّار في أوساطهم واليهود خرقة صفراء في عمائمهم فداموا على ذلك شهوراً ثم أزيل بمجرد تسلط العوام عليهم وطمع الجهال بهم.

وفي هذه السنة أصدر الأمير نيروز أمراً يقضي بتخريب كنائس النصارى واليهود وقتل رؤسائهم وكان هذا الأمر في مراغة وبغداد وغيرها من الأمكنة[1].

وفي تاسع شوال سنة ٦٩٦هـ/ ١٢٩٧م هاجم [كنيسة الربانيين اليهود بدمشق] بعصابته الفاسق المشهور بقبائحه خضر بن ابي بكر بن موسى العدوي، شيخ الملك الظاهر بيبرس البندقداري. ونهب ما فيها من الآلات والامتعة. وأحرق التوراة. قال النويري: " وأخرج اليهود منها وجعلها زاوية. وعمل لأصحابه بسيسة عشرة قناطير بالدمشقي. فاكلوا منها. وحضر المغاني فعمل سماطاً ورقصوا على بقية البسيسة بارجلهم. فما أفلح بعد ذلك. فاجتمع اليهود. وخرجوا عن مظالم كانت بينهم. ورفعوا اصواتهم بالدعاء وقالوا " يا محمد بن عبد الله نحن في ذمتك وعهدك. لا دولة لنا ولا سلطان. فانتصر لنا. " فكانت حادثة السيل. وخرج الشيخ خضر من الكنيسة على صورة منكرة"[2].

وهذا السيل الذي أشار اليه النويري. هو الذي فاجأ دمشق في غد اليوم نفسه. وعلا سور دمشق قدر رمح. وفي بعض المواضع أحد عشر ذراعاً فيما

(١) نزهة المشتاق ١٤٨ ـــ ١٤٩.

(٢) نهاية الأرب ٢٩ / ٤٤ ـــ ٤٥ مخطوط باريس نقلاً عن الخزانة الشرقية ٣ / ٦٩.

قالوا. واتلف الجسور والابنية. واخرب المنازل والدور. وردم الأنهار بالطين. واقتلع الاشجار من اصولها. وأخذ الطواحين بحجارتها. وأهلك زهاء عشرة آلاف نفس وكان خلق كثير من الروم والعجم قدموا حجّاجاً. ونزلوا بالميدان فغرقوا عن آخرهم كما غرقت جمالهم ودوابهم[1].

وفي سنة ٧٢١ هجرية (١٣٢٢م) أمر السلطان أبو سعيد بهادر المغولي أن توضع العلائم على الذميين من نصارى ويهود تمييزاً لهم من الإسلاميين عند وقوع الفتن فاسلم كثير من الذميين.

وفي سنة ٧٣٤ (١٣٣٣ ـ ١٣٣٤) الزمت النصارى واليهود ببغداد بالغيار[2] ثم نقضت كنائسهم ودياراتهم واسلم منهم ومن أعيانهم خلق كثير منهم سديد الدولة وكان ركناً لليهود عَمَّرَ في زمن يهوديته مدفناً خسر عليه مالاً طائلاً فخرب مع الكنائس. وجعل بعض الكنائس معبداً للمسلمين وشرع في عمارة جامع بدرب دينار وكانت بيعة كبيرة جداً[3].

وكان بدمشق قوم على شاكلة القاضي الباعوني دأبهم دائماً التعلل على أهل الذمة. والتجني عليهم بأيسر الأسباب والحجج توصلاً إلى مصادرتهم واذيتهم للانتفاع منهم. وفي هذه السنة نفسها حصل حريق شديد شرقي الجامع الأموي ووُجد يهودي قريباً منه. فاتُهم انه الفاعل وأمسك وضرب. قال

(١) الخزانة الشرقية ٦٩/٣.

(٢) الغيار بالكسر: البدال وعلامة أهل الذمة كالزنّار ونحوه (القاموس المحيط ١١٠/٢) والمقصود بهذا الغيار الذي كان عمر بن الخطاب أول من فرضه على أهل الذمة، مغايرة لما عليه المسلمون في الأمور التالية: في لباسهم، وفي شعورهم، وفي ركوبهم، وفي كُناهم. انظر المغني لأبن قدامه ٩ / ٣٦٠.

(٣) نزهة المشتاق: ١٤٩.

ابن قاضي شهبة: " فاعترف على أناس. يقال ان الوالي امره بذلك. فسأل النائب القضاة فقالوا لم يثبت عليه شيء. فامر النائب بتحريقه. فاخرج إلى تحت القلعة فقتل وأحرق، وانكر الناس ذلك على الناس ذلك النائب. وغالب الناس يعتقد انه بريء. وطُلب جماعة من اليهود الذين أقرّ عليهم وأخذ منهم شيء. وكتب في اليهود إلى السلطان. فوصل كتابه بمصادرة اليهود وأن يؤخذ منهم مال كثير. فعوقب بعضهم.

ثم ورد مرسوم باطلاقهم. وان لا يؤخذ منهم شيء مما كان قُرر عليهم "[1].

وفي سنة (٨٥٦هـ /١٤٥٢ م) صدر مرسوم الملك بالكشف على الأديار وبهدم ما استجد بدير صهيون في القدس وانتزاع قبر داود من أيدي النصارى فهدم البناء المستجد، وفيها أخرج المسجد من دير السريان وصار زاوية وهدم البناء المستجد ببيت لحم وفي كنيسة القيامة وكشفت جميع الأديار وهدم جميع ما استجد بها. وفي سنة (٨٩٥هـ/ ١٤٨٩م) هدمت القبة التي احدثها النصارى في دير صهيون. والسبب في ذلك على ما يبدو للنظر أن الدولة في تلك الأيام حاذرت من أن يكون من بعض الأديار والكنائس أماكن يعتصم فيها، تساعد في الأيام العصبية على أن تكون ثكناً وقلاعاً لمن يداهم الشام من غير اهل الإسلام.

ومن وجهة نظر النصارى أنفسهم فان الحكّام قد تشددوا في اخذهم بقوانين لم تتح لهم فُرصاً سياسية متكافئة، ولم تعاملهم معاملة مواطنين متمتعين بحقوق المواطنية التامة بل معاملة الهامشيين.

---

(١) الخزانة الشرقية ٤ / ٧٠ نقلاً عن مخطوطة ذيل ابن قاضي شهبه، مخطوطة باريس ١٥٩٩، ص ٨١ و١٠١ ــ ١٠٢.

لكن هـذه المعاملـة الهامشـية لم تكـن مختصـة بالنصـارى حسـبما يـذكر الباحث المسيحي جان موريس فييه "ـ فانهم كمـواطنيهم المسـلمين عـانوا مـن آثار الأحداث الداخلية كالاضـطرابات السياسـية بخاصـة. أمـا مـن حيـث هـم نصارى فربّما أصابتهم أحياناً عقابيل العداوات والنِّزاعات الخارجية مـع أمـراء يقال عنهم نصارى أيّ بيزنطيّين أو صليبيين. وكان عليهم أن يـدفعوا ثمـن قلّـة تبصُّرهـم كلّمـا انسـاقوا إلى مـا كـان المسـلمون يعدّونـه اسـتفزازات: الجنـائز الصاخبة، قرع النـواقيس، التيـه بـالثراء، الخ. أمّـا العوامـل المؤديـة إلى ضـمور جماعة النصارى، وهي ممّا يصعب قياسه، فمن أهمّها مناخ متزايد الثقـل مـن الضـغط الاجتمـاعي والتمييـز الشـرعيّ، أو حتـى الإذلال: الضـرائب الخاصـة، وقوانين التميّز بالملابس التي كانت تفرض بين الفينة والفينة والتي كانت ترسّخ فيهم الشعور الجارح بعدم الانتماء، أو حتى بالانتباذ"[1].



(١) أحوال النصارى في خلافة بني العباس: ٣٨٣ بيروت ١٩٩٠.

٣ـ الصراع البيزنطي ـ الإسلامي

منذ أن استولى المسلمون على بلاد الشام انحسر دور نصارى البلاد إلى أقلية مستضعفة محاولة استرداد بعض ما سلف من ماضي مجدها وهيمنتها ولكن هيهات فالدنيا دول، وهاهي الدولة الأموية في أوج قوتها وعظمتها ومن الصعب بل المستحيل الجريان ضد التيار المتلاطم الأمواج، فتعلقوا بعدئذ بالأمل في امدادات الدولة البيزنطية أو هكذا ظهرت آمالهم في الوقت الذي طمحت انظار المسلمين للسيطرة على أملاك البيزنطيين فاستولوا على جزائر قبرص ورودس وكوس واستولوا على شبه جزيرة Cyzicus التي لا تبعد إلا قليلاً عن القسطنطينية وتوالت ضربات المسلمين رغبة في تصويب الضربة القاضية إلى قلب الإمبراطورية البيزنطية، وكانت القوة الإسلامية كانت تتجدد دائماً في الوقت الذي تتنامى فيه عزائم بيزنطة في ردّ الغزو الذي كان يتهددهم كل آن، ولهذا كانت الحرب مستمرة بين الطرفين طيلة الحكم الأموي والعباسي واتخذ الصراع بينهما صفة الحرب المقدسة غير أن الجانبين لم يحرزا ما يبتغيان من النتائج ومن ثم أتخذ القتال بينهما صورة حرب الحدود التي تنشب من حين إلى آخر بين الفريقين فاستولى جانب من الاسطول الإسلامي على أزمير سنة (٦٧٢هـ ـ ١٢٧٣م)، بينما احتل الجانب الآخر ليكيا وقليقية، وتعرضت كريت للهجوم في نفس السنة، وحاصروا القسطنطينية لمدة سبع سنوات (٦٧٣ ـ ٦٧٩هـ / ١٢٧٤ـ ١٢٨٠م) فتعرضت القسطنطينية كل صيف للحصار من قبل الاسطول الإسلامي، ولم يكبح جماحه إلا ذلك السلاح المعروف بالنيران الاغريقية الذي أخترعه مهندس مسيحي سوري أسمه كالينيكوس Callinicus الذي كان قد فرَّ من سورية بعد فتح المسلمين

للشام[1]، ولعل هناك جالية مسيحية سورية ضخمة كانت تعيش في المنفى تعمل على العودة وتتحيّن الفرص للثأر من الفاتحين الجدد وما كالينيكوس إلاّ واحداً من عشرات المعارضين للحكم الإسلامي، وقد ترتّب على النيران التي اخترعها ان تعرضت سفن المسلمين للحرائق سنة (٦٧٩هـ / ١٢٨٠م) وتراجع المسلمون عن الاستيلاء على القسطنطينية.

وعلى عهد المأمون العباسي تحركت قوات توماس الصقلبي (المنشق على الإمبراطور ميخائيل الثاني) صوب بلاد الشام لغزوها لكنه ارتد عنها بعد أن عقد معاهدة مع المأمون تقضي بتحالفها ضد الإمبراطور ميخائيل. غير أن المأمون أمر بمواصلة هجمات المسلمين على الجزر القريبة من كريت واحتلوا كريت وما يحيط بها من الجزر واستولوا على دير لاتروس واستمر المسلمون يحكمون كريت نحو قرن ونصف من الزمان[2].

وعلى عهد المعتصم العباسي قاد الافشين جيشاً لفتح عمورية واشتبك في معركة فاصلة مع البيزنطيين في ٢٥ شعبان (٢٢٣هـ / ٨٣٨م)، وأنزل بهم هزيمة ساحقة وقصد الخليفة عمورية بعد تدمير انقرة فحاصرها حتى استسلمت في ١٣ اغسطس ٨٣٨م ونقل المعتصم معه إلى سامرا أثنين وأربعين اسيراً من ذوي

---

(١) ذكرة المؤرخ جيبون وقال انه رجل من بعلبك وانه هو الذي نقل النار اليونانية إلى الروم وكان هؤلاء يومئذ في ابان حاجتهم اليه ليردوا به هجمات العرب عن القسطنطينية وغيرها، وبالغ الروم في كتمان اسماء المواد التي يتألف منها ذلك المزيج فظلّ امر هذه النار مكتوماً حتى اطلع عليها العرب فاذا هي مزيج من الكبريت وبعض الراتنجات والأدهان في شكل سائل يطلقونه من اسطوانة نحاسية مستطيلة كانوا يشدونها في مقدم السفينة فيقذفون منها السائل مشتعلاً ويطلقونه بشكل كرات مشتعلة أو قطع من الكتان المشبع بالنفط فيقع على السفن ويحرقها (الهلال السنة ٢٢، ١٩١٣ م).

(٢) الدولة البيزنطية: ٢٧٦، ٢٨٠-٢٨١.

المكانة، ثم تجهّز المعتصم لمهاجمة القسطنطينية واعدّ لذلك اسطولاً مؤلفاً من ٤٠٠ سفينة ابحرت من موانئ الشام سنة (٢٢٨ ـ٢٣٣هـ/ ٨٤٢ ـ ٨٤٧م) وجابه من الفتن ما جعله عاجزاً عن مواصلة الجهاد الديني لكن الأيام التي تلت شهدت استيلاء المسلمين ليس على البحر المتوسط فحسب بل على وتساليا[١]، وعلى عهد الدولة الحمدانية احرز المسلمون انتصارات باهرة على البيزنطيين، وفي العهد الفاطمي بقيت صقلية محافظة على قوتها وظل البيزنطيون يدفعون الجزية إلى الفاطميين حتى زمن نقفور فوكاس[٢].

لكن اسطول البيزنطيين انتصر على الفاطميين في مياه الشام وأسر كثيراً من قوادهم فطلب الخليفة المستنصر المهادنة. وأوفد في سنة (٤٤٧هـ - ١٠٥٧م) القاضي أبا عبد الله القضاعي لتسوية الخلاف بينهما بيد أن السياسة البيزنطية أثرت جانب السلاجقة الذين ظهروا في أواخر القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) وانتزعوا بلاد الأناضول وآسيا الصغرى من الدولة البيزنطية، وهددوا القسطنطينية وانتزعوا بيت المقدس (٤٧١هـ/١٠٧٨م) من الفاطميين[٣]، وقد قام المسلمون سنة (٧٨١هـ/١٣٧٩م) بهجوم عنيف في جوف املاك الدولة البيزنطية وأحرزوا انتصاراً حاسماً في ثغر تراقيسيون واضطرت الإمبراطورة ايرين أن تدفع للخليفة العباسي جزية سنوية مقدارها سبعون الف دينار، وما كاد يتولى نقفور العرش، حتى امتنع عن دفع الجزية ولهذا تحرك المسلمون سنة(٨٠٦هـ /١٤٠٣م) بجيش ضخم فاستولى على حصون منيعة تقع باطراف الإمبراطورية واحتل هرقلة واستولى على الطريق

---

(١) الدولة البيزنطية: ٢٨١-٢٨٥.

(٢) المصدر السابق: ٤١٨-٤٢١.

(٣) المصدر السابق: ٤٢٦-٤٢٨.

المؤدية إلى قيصرية ومن هناك ارسل قوة كبيرة إلى اقليم انقرة الأمر الذي اضطر معه نقفور إلى دفع خمسين ألف دينار مقابل انسحاب القوات الإسلامية. ثم اخذ المسلمون يعملون للاستيلاء على جزيرة قبرص فنجحوا في ذلك وفي عام (٨٣٦هـ /١٤٢٧م) استولوا على مدينة بالرمو Panarmos ثم أخذوا يستولون على سائر جزيرة صقلية وصاروا يتعرضون لسواحل ايطاليا والتعرض لتجارتها وبذلك انهارت سيطرة بيزنطة على البحر المتوسط.

٤ـ الحروب الصليبية[1]

حين استتب الأمر للسلاجقة في بلاد الشام وقفوا للصليبيين Crusaders بالمرصاد، وفي هذا العصر ازدادت كثافة الحملات التي وجهها المسيحيون في أوربا إلى الشرق وظهرت الروح الحربية في الكنيسة بفعل دخول العناصر المتشددة في الدين المسيحي واحتفاظها بنَزعتها الحربية وساعدها في ذلك رغبة الكنيسة في بسط نفوذها على الشرق كما فعل الإسلام من قبل وتأسيس مستعمرات لاتينية فيها، وهكذا بسط البابا نفوذه على غربي اوربا، وانطلقت الحملة الصليبية الأولى في ١٥ اغسطس (١٠٩٦م/٤٨٩هـ)، وتبعتها الحروب الصليبية (١١٠٠ ـ ١١٠٤) التي أخفق فيها الصليبيون اخفاقاً تاماً وساعدت على تقوية الوحدة بين المسلمين كما ظهر ضعف الصليبين في الشام، فقل عدد الحجاج وضجر اهل أوربا لهذا الاخفاق، وفي الحرب الصليبية الثالثة انتهى الأمر بعقد صلح الرملة بين صلاح الدين وريتشارد قلب الأسد سنة (٥٨٨هـ/ ١١٩٢م) وأصبحت فلسطين أرضاً اسلامية ما عدا الجزء الضيق الذي يقع بحذاء الساحل ويمتد من صور إلى عكاء.

---

(١) كان يُشار لهذه الحروب في بداياتها باسماء شتى منها: الارتحال، التجوال، الحملة،الطريق إلى الأرض المقدسة، السير على طريق الرب، أما مصطلح (الحرب الصليبية) فقد ظهر لأول مرة في أوائل الربع الأخير من القرن السابع عشر، حينما استخدمه المؤرخ الفرنسي لويس ممبور، مسمياً بحثه (تاريخ الحروب الصليبية) سنة ١٦٧٥م، وفي المانيا يعود التعبير إلى ليسنغ، راجع ميخائيل زابوروف: الصليبيون في الشرق. ترجمة: الياس شاهين (موسكو، ١٩٨٦، ص١٣ ــ ١٤). والمصادر العربية الغربية عن هذه الحروب كثيرة ومتنوعة، وقد قام الاستاذ كوركيس عواد بكتابة (ثبت) مستفيض فهرس فيه (١٨٢) مصدراً من مصادر هذه الحروب بما في ذلك الكتب والرسائل والفصول والمقالات والنبذ التي عني فيها مؤلفوها بتدوين أخبار تلك الحروب ونشر الثبت في مجلة المورد العدد ٤، السنة ١٦ (سنة١٩٨٧) (ص٢٣٢ ــ ٢٤٨).

وحين انطلقت الحملة الصليبية الرابعة (١٢٠٢ ـ ١٢٠٤م) كان الضعف قد أخذ من دول الغرب كل مأخذ بعدما فقدوا من العدد والعدة في حروبهم مع الشرق، ولهذا فلم يكن لهذه الحملة نتيجة سوى اضعاف وسائل الدفاع عن القسطنطينية أمام الحملات التي تلت هذه الحروب فلم تكن ذات اهمية من حيث نتائجها لأن العاطفة الدينية التي اتقدت في الحرب الأولى خمدت جذوتها وحلّت محلها الروح المادية، وليس أدل على ذلك من أن الحملات التي وجهت إلى مصر كانت ابتغاء الربح التجاري بدلاً من أن توجه إلى بيت المقدس.

واذا كانت الحروب الصليبية قد انتهت بطرد الصليبيين من المشرق وانتصار المسلمين، واذا كانت اخفقت في بث الطمأنينة في نفوس المسيحيين الشرقيين كما سيتضح فيما بعد فانها قد حققت في شعوب اوربا وملوكها روح الاتحاد من أجل هدف واحد، ودعمت مراكز الملوك، وقضت على نظام الاقطاع الذي حلّ محله نظام القومية بين الشعوب، واتاحت الفرصة للغربيين على الوقوف على معالم الحضارة الإسلامية، وايقظت النشاط الادبي في اوربا، كما أثّرت في الحياة الداخلية والاقتصادية عند ملوك اوربا بصورة عامة وفي العلاقات الخارجية بين الدول المختلفة، وفي العلاقات التي تربط القارة الاسيوية بأوربا وما تبع ذلك من اكتشاف الأراضي الجديدة من القرن الثالث عشر إلى القرن الخامس عشر.

٥ـ الصليبيون ونصارى الشرق

كان الصليبيون يطلقون على الجماعات الشامية المسيحية المحلية، لفظ " السريان المسيحيون rienz CrestiensuS "، وقد اشتهر من بينهم الأرمن، والموارنة، والنساطرة، واليعاقبة، والاقباط، والسريان، والبيزنطيين، وهم جميعاً من الطوائف المسيحية الشرقية.

وقد احتقر الصليبيون الغربيون هؤلاء المسيحيين الشرقيين عموما، وأحسوا نحوهم بالكراهية نتيجة للخلافات المذهبية، ولعله من الواضح أن فئة البيزنطيين أو اليونانيين كانوا أبغض فئات المسيحيين الشرقيين إلى الصليبيين، بسبب التخوف دائما من تآمرهم مع الإمبراطورية البيزنطية ضد مصالح الصليبيين. ومع ذلك فإن الصليبيين لم يطردوهم أو يقضوا عليهم ـ كما فعلوا مع اليهود ـ وإنما استبقوهم لمهارتهم اليدوية وقيامهم بالخدمات والأعمال الحقيرة التي أنف الصليبيون الغربيون من القيام بها[1]. أما الأرمن فقد كانوا أحسن حالا، وشجعهم ملوك بيت المقدس على الهجرة إلى أراضي المملكة

(١) "ولم يعط النصارى العرب حتى حق أن تكون لهم رئاستهم الروحية أولاً لأنهم عرب لا يوثق بهم وثانياً لأنهم كانوا ينتمون إلى الكنيسة الشرقية التي كانت مختلفة عن الكنيسة اللاتينية التي سيطرت على مقدرات الأمور في هذه الفترة وقد ولدت هذه الأحوال نقمة في نفوس المسيحيين العرب من سكان الأراضي الواقعة تحت الاحتلال الصليبي ولم تجد لها متنفساً إلا عند وصول رايات جيش صلاح الدين إلى القدس لحصارها فالمصادر تؤكد هذا التعاون الكبير الذي أبدوه في مساعدة الجيش القادم بتزويده بالأرزاق وإدارة شؤونه المالية ولا شك أن الأخبار التي كانوا ينقلونها إلى السلطان والدور الفاعل الذي قاموا به أثناء الحصار وعند سقوط القدس كانت مدعاة لتقدير صلاح الدين وقادة جيشه علماً بأن السلطان كان كذلك يعطف ويساعد الأقباط لأنهم من رعاياه في مصر والأحباش جيرانه والسريان والموارنة لأنهم وطنيون" رؤوف أبو جابر: المسيحية العربية في القدس ضمن كتاب: أبحاث ودراسات في التاريخ العربي ص٣٥٢ـــ٣٥٣.

ومُدنها لتعميرها بعد أن هجرتها نسبة كبيرة من سكانها المسلمين. كذلك نسمع عن تولى الأرمن بعض الوظائف الهامة في الدويلات الصليبية بالشام، فضلا عما كان هناك من تزاوج بينهم وبين الصليبيين الغربيين.

وفي أيام لويس التاسع بالغ مسيحيو الشرق في الحفاوة بلويس والالتفاف حوله، وتطلع الجميع لرؤيته والتحدث إليه، كما أصبح اسمه وشخصه موضع الفضول والاحترام. يذكر جوانفيل أنه أثناء عودة الجيش الصليبي من يافا شمالا إلى صيدا لتحصينها، جاء إليه جماعة من أرمينية العليا في طريقهم للحج إلى بيت المقدس، وطلبوا منه السماح لهم برؤية الملك القديس. وكان سرورهم عظيما عندما حظوا بهذه المقابلة، وأخذوا يبتهلون إلى الله من أجله.

هكذا تمتع لويس بتأييد اللاتين في الشرق، الذين نظروا إليه بوصفه ملكا عليهم، ومع أنه لم يكن يحمل لقبا شرعيا. وذلك بعكس معاصره الإمبراطور فريدريك الثاني الذي لم يستطع غزو قلوب أولئك اللاتين، على الرغم من الالقاب الضخمة التي كان يحملها، والتي عددها العيني في مؤلفه عقد الجمان ويرجع الفضل في التفاف الفرنج حول لويس التاسع إلى مساعيه لما فيه مصلحتهم، تحقيقا لغرض في نفسه[1].

ولم يكن الأرمن هم الطائفة الوحيدة من الطوائف المسيحية الشرقية التي اتصل بها لويس التاسع واختصّها بعنايته أثناء إقامته في سورية. فقد توطدت

---

(١) لويس التاسع أو القديس لويس (١٢١٤ــ١٢٧٠) ملك فرنسا (١٢٢٦ــ١٢٧٠) قام بحملته الصليبية على مصر سنة ١٢٤٨ تاركاً أمه وأخاه وصيين على العرش وبعد أن هزم وأسر في المنصورة ١٢٥٠ افتدى، لكنه بقي في القدس حتى سنة ١٢٥٤. رفع إلى مقام القديسيين سنة ١٢٩٧ ويقع في ٢٥ أغسطس (الموسوعة الميسرة ٢/١٥٨٥).

العلاقات كذلك بينه وبين جماعة الموارنة[1] بجبل لبنان وقد قام هؤلاء بدور ملحوظ في تاريخ الحركة الصليبية، واتجهت أهواؤهم منذ البداية إلى الصليبيين، وأبدوا ميلا شديداً نحوهم وكان من نتيجة ذلك أن أنس إليهم الفرنج، وأدخلوهم تحت حمايتهم. وساعد على ذلك أن عقيدة الموارنة كانت تتفق إلى حد بعيد مع مبادئ العقيدة الرومانية الكاثوليكية.

وعلاقة لويس بهؤلاء ترجع إلى سنة (٦٤٦هـ/١٢٤٨ م) عندما نزل بقواته في قبرص، حيث رحبت به جاليتهم المقيمة هناك. ولم يكتفوا بذلك، بل اشترك عدد كبير منهم معه في الحملة على مصر، وأبلوا بلاء حسنا في واقعة المنصورة[2].

وبعد إطلاق سراحه وإبحاره إلى عكا، أرسل امير الموارنة بجبل لبنان وفداً يتألف من خمسة وعشرين ألفا من أتباعه على رأسهم أحد كبار الطائفة ويدعى سمعان، ليكون في استقبال الملك عند وصوله، فبعث لويس من عكا في (٢١ مايو ١٢٥٠م /٦٤٨هـ) ـ أي بعد أسبوع واحد من مقدمه إليها ـ برسالة ريقة إلى أمير الموارنة وإلى رجال الدين وعامة الشعب الماروني، وفيها

(١) الموارنة: طائفة مسيحية كاثوليكية، ظهرت في وادي نهر العاصي سنة ٤٠٠هـ مؤسسها القديس مارون، نزحت إلى جبال لبنان، احتفظت بثقافتها العربية مع ارتباطها بالكنيسة الغربية، وتعد اليوم من أهم الطوائف الدينية في لبنان. يراجع كتاب تاريخ الطائفة المارونية لاسطفان الدويهي، وكتاب تاريخ الموارنة لضو.

(٢) تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى للدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور. دار النهضة ــ بيروت ١٩٧٦. وكتاب العدوان الصليبي على بلاد الشام للدكتور جوزيف نسيم يوسف. دار النهضة بيروت ١٩٨١ وكتاب الحروب الصليبية لارنست باركر. دار النهضة بيروت (د. ت) وكتاب الجبهة الإسلامية في عصر الحروب الصليبية للدكتور حامد غنيم ابو سعيد ــ دار الثقافة ــ القاهرة ١٩٨٤ م.

يشكرهم على حفاوتهم به، وعلى الهدايا التي حملها الوفد إليه. ويؤكد لهم اهتمامه بأمرهم وأنهم موضع رعايته، وأنه يعتبرهم كالفرنسيين تماما، من حقهم أن يتمتعوا بكافة الامتيازات التي يتمتع بها رعاياه.

توجه في ختام رسالته إلى البطريارك الماروني[1] ورجال الدين طالبا منهم التمسك بأصول العقيدة المسيحية على المذهب الكاثوليكي[2]. وهذا يعزز الرأي حول اتفاق الموارنة واللاتين في العقيدة

وقد وقع المسيحيون المحليون بين مطرقة الصليبين من جهة وبين سندان المسلمين الذين لا يثقون بهم من جهة أخرى، وكانت عداوة الصليبين لهم عقائدية، أما المسلمون فبسبب الخيانات الكثيرة التي حامت بهم من قبل مواطنيهم النصارى، ومن ذلك ان نصارى حلب وحارم[3] ارسلوا سراً إلى الصليبين أمام انطاكية في أوائل سنة (١٠٩٨م /٤٩٢هـ) يخبرونهم باجتماع القوات الإسلامية في حارم وهي قلعة تقع على بُعد ثلاثين كيلومتراً تقريباً من

---

(١) كان بطريارك الموارنة في ذلك الحين يسمى سمعان، ومقامه بانطاكية وقد حكم من سنة ١٢٤٥ م إلى ١٢٧٧ م، وأرسل إليها البابا انوسنت الرابع في ١٢٤٦ م لوران الدومينيكاني نائبا من قبله للسعي بشأن توحيد الكنيستين الشرقية والغربية. وكان البطريارك سمعان على علاقة طيبة بالبابوية في روما. وهو الذي كتب إليه البابا اسكندر الرابع يشكره علىق بوله الافرنج المهاجرين إلى لبنان مع طائفته، ويفوضه بأمورهم الروحية. أنظر طوبيا العنيسي: البطاركة الأنطاكيين الموارنة ص٢٣ ــ٢٤، الدويهي: سلسلة بطاركة الطائفة المارونية ص ٣١١ ــ ٣١٢، دريان: أل الطائفة المارونية ص ٥٩، الدبس: تاريخ سورية مجلد ٦ ص٣٧٣.

(٢) هذه الرسالة ما زالت محفوظة عند الموارنة بمكتبة البطريركية المارونية بلبنان، وتوجد ترجمة حرفية لها بالعربية في: الدويهي: تاريخ الطائفة المارونية ص ١١٠ ــ ١١١، دريان: أصل الطائفة المارونية ص٥٧ ــ ٥٩ (هذا الهامش والهامش السابق بمراجعة عن كتاب العدوان الصليبي على بلاد الشام ص٣١٤).

(٣) حارم: بكسر الراء: حصن حصين وكورة جليلة اتجاه انطاكية، ثم اصبحت من اعمال حلب. سميت بذلك لحصانتها يحرمها العدوّ وتكون حرماً لمن فيها معجم البلدان ٢/٢٠٥.

انطاكية، إلى الشرق منها، وعن خطتهم بمهاجمة انطاكية وبسبب ذلك وضع بوهيموند خطة سريعة لمواجهة الموقف وهكذا فشلت تلك الخطة وما كانت لتفشل لولا مساعدة المسيحيين المحلين بل ان المسلمين اندحروا وارتدوا نحو حصن حارم وحققوا بعد هجومهم وفي اعقابهم الصليبيين الذين استولوا على حارم وحققوا نصراً كبيراً نظراً لأهميتها في حماية انطاكية من ناحية حلب. وكانت الريبة والشك والحذر هي التي جعلت ياغي سيان صاحب انطاكية المسلم ان ينظر إلى النصارى الذين بها نظرة تصنفهم ضمن اعدائة، فلما أحسَّ باقتراب الصليبيين " خاف من النصارى اولئك "، ولذلك أخرجهم بحجة حفر خندق يحمى المدينة، ولما أرادوا دخول أنطاكية، عند العصر منعهم وتركهم يشتركون مع الصليبيين في حصارهم، في حين تحفظ هو على أهلهم " وكف أيدي المتطرقة إليهم ".

هذه هي الرواية العربية عن موقف أهل أنطاكية المسيحيين، أما الرواية اللاتينية فتختلف تماما لأنها تقول إن " الأرمن والسريان الذين كانوا بداخل المدينة أسرعوا بالخروج والهروب منها تاركين خلفهم نساءهم وأولادهم بالمدينة، فاستفسروا منا عن هدفنا وأمدونا بمعلومات عن كافة اسرار المدينة ". ومن هاتين الروايتين المتناقضتين يبدو لنا أن أهل أنطاكية، من السريان والأرمن تنازعهم تياران متعارضان، فقرروا الانتظار حتى يروا من المنتصر وعندئذ ينضمون إلى جانبه. هذا إلى أنه من المرجح أن يكون ياغي سيان بلغه خيانة بعض المسيحيين في انطاكية فاتخذ ذلك ذريعة للتضييق عليهم عندما علم باقتراب الصليبيين، فزج بالبطريرك في السجن، وطرد كثيرا من أعيان

المسيحيين، واستولى رجاله على كتدرائية القديس بطرس واتخذها اسطبلا لخيوله.

ولم يكد يمضي وقت قليل على ضم أنطاكية للإمبراطورية البيزنطية في عهد حنا شمشقيق، إلا وبدأ رجال الدين البيزنطيون حملة اضطهاد ضد إخوانهم رجال الدين الأرمن كذلك حدث بعد أن اتخذ الأرمن آنى عاصمة لهم، أن تعرّض بطرس الأرمني ثم ابن اخيه جاجك الأول (٩٩٠ – ١٠٢٠م / ٣٨٠ ـ٤١٢هـ) لمتاعب جديدة بقصد إجبارهم على التسليم بمبادئ الكنيسة الأرثوذكسية. أما الملوك الذين تخلوا عن ممالكهم الوراثية للإمبراطورية البيزنطية ليأخذوا بدلاً منها إقطاعات في كابا دوكيا، فقد وجدوا أنفسهم فريسة لضغط الأباطرة البيزنطيين حتى يعتنقوا مذهب الكنيسة الأرثوذكسية ولذلك نجد المؤرخين المعاصرين من الأرمن - مثل متى الرهاوى - يظهرون ارتياحهم للكارثة التي حلت بالبيزنطيين في مانزكرت، بل لقد بلغ بهم الأمر إلى مديح ملكشاه والأمراء لما حققه من راحة بال للأرمن. وقد اتّهم البيزنطيون القوات الأرمنية التي اشتركت في موقعة ملازكرت بأنها تقهقرت ولم تثبت، كما أنه حدث بعد موقعة مانزكرت بأن انتقم المهاجرون الأرمن في كابادوكيا باضطهاد رجال الدين الأرثوذكس من ذلك أن جاجك الثاني ملك آني السابق قبض على مطران قيصرية الأرثوذكسي وحبسه في سجن محكم ومعه كلب شرس حتى قضى نحبه وقد رد البيزنطيون على ذلك بأن نصبوا كمينا للملك جاجك الثاني حتى تصيدوه وقتلوه سنة (١٠٧٩م/٤٧٢هـ).

ولم يكن حنق المسيحيين السريان على البيزنطيين أقل شدة، لا سيما بعد أن استرد البيزنطيون أنطاكية والرها وهنا أيضاً أساء رجال الدين البيزنطيين

إلى الكنيسة المحلية. لذلك لم يتمالك ميخائيل السرياني نفسه من الفرح عندما حلت الهزيمة بالإمبراطور البيزنطي رومانوس الثالث على يد المسلمين قرب حلب سنة ١٠٣٠م/٤٢١هـ). وتعبر كتابات ميخائيل السرياني تعبيراً صادقاً عن استيائه لأن البيزنطيين يضطهدون السريان واليعاقبة، وقال إنه لذلك يفضل سيطرة الأتراك السلاجقة على حكم البيزنطيين لأن الأتراك ينبهون ويسلبون ولكنهم لا يتعرضون للعقيدة، في حين أن اضطهاد البيزنطيين لحرية العقيدة أشد نكاية وأسوأ أثراً.

وهكذا يبدو ان الحركة التي قامت بها الإمبراطورية البيزنطية في القرن العاشر لاسترداد أراضيها وتوطيد نفوذها في شرق آسيا الصغرى وفي بلاد الشام أدت إلى استياء مختلف العناصر التي كان من الممكن أن تظل حليفاً طبيعياً للإمبراطورية ضد الصليبيين الكاثوليك وقد كان لهذا الشعور أثره في تسهيل قيام الامارات اللاتينية في الشرق لأن الأرمن والسريان واليعاقبة لم يشعروا بنفور من الصليبين الغربيين مثلما نفروا من البيزنطيين الأرثوذكس. وهكذا نظر الأرمن في قليقية والرها إلى الصليبيين الغربيين على أنهم محرورهم وحلفاؤهم، كما أن عصر الحروب الصليبية شهد تقارباً ملحوظاً بين الكنيسة الأرمينية والبابوية هذا في الوقت الذي أحسن الصليبيون الغربيون معاملة الأرمن والسريان بوجه عام، إذْ وجدوا فيهم حلفاء طبيعيين ليس ضد المسلمين فحسب، وانما ضد البيزنطيين أيضاً.

وعند دخول الصليبيين إلى الشام طردوا رجال الدين الأرثوذكس واستحوذ أخوانهم الكاثوليك على كل شئ ليظهروا جشعا كبيرا في امتلاك الأراضي

والأموال[1]. عدا الهبات والهدايا التي انهالت عليهم. وهكذا تميزت الأديرة والكنائس التي أقامها الصليبيون بالشام بوفرة ثروتها واتساع أملاكها التي لم تقتصر على بلاد الشام، بل امتدت إلى القارة الأوربية نفسها. ويكفى أن نعرف أن أحد تلك الأديرة - وهو دير جبل صهيون في بيت المقدس - امتلك سنة (١١٧٨م / ٥٧٤هـ) حياً بأكمله في مدينة القدس ذاتها مع تمتعه بحق فتح بوابة في أسوار المدينة. وكانت لذلك الدير أيضاً ممتلكات وأراضى وبساتين وأسواق في عسقلان ويافا ونابلس وقيسارية وعكا وصور وأنطاكية وقيليقة، بل إن بعض الخيرين من حجاج بيت المقدس وهبوا ذلك الدير بعد عودتهم إلى أوربا ضياع وأملاكا فصارت له ممتلكات في صقلية وإيطاليا فضلا عن فرنسا. وهذا مثل واحد من أمثلة كثيرة يضيق المقام عن ذكرها، وإنما سقناه لنأخذ فكرة عامة عن مدى ثروة الكنيسة ومؤسساتها في الشام على عصر الحروب الصليبية. ويبدو أن تلك الثروة الطائلة التي تمتعت بها المؤسسات الدينية أثارت حقد النبلاء في بلاد الشام. لاسيما وأن ممتلكات الكنيسة معفاة من الضرائب كما كان رجالها معفين من الخدمة العسكرية، مما جعل النبلاء والفرسان يشعرون أن الكنيسة ورجالها يتضخمون على حسابهم ويجمعون الأموال والثروات، في الوقت الذي يتحملون هم المغارم وعبء الدفاع عن الكيان الصليبي بأجمعه في بلاد الشام.

---

(١) وهناك شواهد كثيرة على الاضطهاد الصليبي لأهالي الشام، يمكن الرجوع إلى بعضها في كتاب: ملامح العنف والإرهاب الصليبي في بلاد الشام أواخر القرن الخامس الهجري - الحادي عشر الميلادي، تأليف: جمعة ومحمد مصطفى الجندي، مكتبة مدبولي - القاهرة ٢٠٠٦.

وحين دارت الدائرة على (بيت المقدس) الذي كان زاخراً باعداد المسيحيين المحليين، فان المسلمين من جانبهم لم يكونوا يطمأنون إلى المسيحيين الشرقيين بعدما فعلوه من الترحيب بالصليبيين ومساعدتهم وبخاصة في أنطاكية والرها، ولهذا السبب كانوا قد طردوهم من بيت المقدس ولما استولى الصليبيون على بيت المقدس وكثير من أقاليم الشام، فانهم عمدوا بدورهم إلى طرد المسلمين منها. وهكذا أمست بيت المقدس تشكوا فراغا ضخما ونقصا كبيرا في السكان بعد أن فقدت معظم أبنائها المحليين من المسلمين والمسيحيين على السواء.

هذا في الوقت الذي كان الصليبيون أنفسهم قلة، وتعجل كثير من الحجاج الوافدين من الغرب في العودة إلى أوطانهم بعد زيارة الأماكن المقدسة. فإذا أضفنا إلى ذلك أن الصليبيين الذي أستقروا في الشام اشتغلت غالبيتهم بشئون الحرب والحكم، وأنهم كانوا موزعين على عدد كبير من المدن والمعاقل لحراستها، أدركنا مدى حاجة مملكة بيت المقدس بوجه خاص إلى سكان نشيطين تطمئن إليهم للنهوض بأعباء النشاط العمراني من زراعة وتجارة وصناعة وغيرها.

ولما كان من المستحيل أن يفكر بلدوين في الاعتماد على المسلمين في هذه المهام فإنه لم يبق أمامه سوى المسيحيين المحليين، وبخاصة المشتتين منهم شرقي نهر الأردن وفي حوران. وكانت بلاد الشام بوجه خاص تضم طوائف عديدة من المسيحيين المحليين مثل الموارنة في طرابلس والسريان والأرمن في أنطاكية والأرمن والنساطرة في الرها. وعندئذ فتح الملك بلدوين الأول أبواب مملكته أمام هذه الطوائف جميعها واتصل بهم سرا وأغراهم على

الهجرة إلى المدينة المقدسة حتى اكتظت بيت المقدس بأعداد من الأرثوذكس والأرمن.

وهكذا يمكن القول بأن مملكة بيت المقدس قامت على أساس الترابط الشديد بين سكانها من المسيحيين الغربيين الكاثوليك من جهة والمسيحيين الشرقيين من جهة أخرى. وقد استطاع الملك بلدوين الأول أن يوفق بين الجميع رغم اختلاف مذاهبهم، ليعملوا جميعاً في إنعاش الأرض المقدسة وحمايتها. ولتحقيق هذا الترابط شجع بلدوين الأول التزاوج بين المسيحيين الغربيين والشرقيين، وضرب هو نفسه مثلا لذلك بزواجه من شرقية، وإذا كان قليل من الأمراء الغربيين قد أقبلوا على الزواج من المسيحيات الشرقيات فإن جمهرة الفرسان الصليبيين وصغار جندهم لم يجدوا غضاضة في ذلك، الأمر الذي أدى إلى ظهور جيل مولد في بلاد الشام قدر له أن يحمل عبء الدفاع عن الصليبيين فيما بعد عندما تناقص عدد الوافدين من الغرب[1].

وأخيراً فإن المسيحيين الشرقيين بما تعرضوا له من اضطهاد على يد الصليبيين بالرغم من حالات الانفراج النسبية تنفي الاعتقاد بأن الحروب الصليبية اتت ردّ فعل للاضطهاد الذين تعرض له المسيحيون - الشرقيون والغربيون - في البلدان الإسلامية، وتؤكد على أن ذلك ادعاء باطل لا يتفق وروح الإسلام وطبيعة الدعوة إليه، وما أحاط به القرآن أهل الكتاب من رعاية

(١) وقد ذكر Thompson أن ثمة زيجات تمت بالشام في عصر الحروب الصليبية بين الصليبيين والعرب وأطلق على أبناء هذه الزيجات اسم (Pullani) أى الأفراخ. كذلك أشار إلى أن الأرثوذكس كانوا أحط طبقة في المجتمع الصليبي ببلاد الشام، وقد خشى الصليبيون دائماً تآمرهم مع الدولة البيزنطية أو المسلمين، ولو أنه لم يكن غنى للصليبيين عنهم، بسبب معرفتهم باللغات.

Thompson: Economic & Sociol History of the Middle Ages , Vel.I.P398

وعناية، وما أمر الله به محمداً عليه الصلاة والسلام من دعوتهم إلى دينه بالحكمة والموعظة الحسنة ﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠﴾﴾[1].

ويثبت التاريخ أن المسيحيين عاشوا دائماً في كنف الدولة الإسلامية عيشة هادئة هانئة، تشهد عليها الرسالة التي بعث بها ثيودسيوس بطريرك بيت المقدس سنة ٨٦٩ إلى زميله إجناتيوس بطريرك القسطنطينية، والتي امتدح فيها المسلمين واثنى على قلوبهم الرحيمة وتسامحهم المطلق، حتى أنهم سمحوا للمسيحيين ببناء مزيد من الكنائس دون أي تدخل في شؤونهم الخاصة، وذكر بطرق بيت المقدس بالحرف الواحد في رسالته: "إن المسلمين قوم عادلون، ونحن لا نلقى منهم أى أذى أو تعنت"[2] حقيقة إن التاريخ يشير إلى تعرض المسيحيين أحياناً في بعض البلدان الإسلامية لنوع من الضغط أو الاضطهاد، ولكن هذه حالات فردية شذت عن القاعدة العامة التي حرص الإسلام دائماً عليها، وهي التسامح المطلق مع أهل الكتاب وإذا كان بعض المؤلفين الأوربيين قد تمسكوا بهذه الحالات الفردية وأرادوا أن يتخذوها دليلا على تعسف حكام المسلمين مع المسيحيين في عصر الحروب الصليبية، فلعل هؤلاء الكتاب نسوا أو تناسوا ما صحب انتشار المسيحية ذاتها من اضطهادات ومجازر بدأت منذ القرن الرابع للميلاد واستمرت حتى نهاية العصور الوسطى.

---

(١) سورة آل عمران: الآية /٢٠/. ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ • فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾. (سورة الشورى: الآيات /١٤-١٥/).

(٢) Thompson: Economic & Sociol History of the Middle Ages , Vel.I.P385

وحسبنا ما قام به خلفاء الإمبراطور قسطنطين الأول من اضطهادات لإرغام غير المسيحيين على اعتناق المسيحية، وما قام بـه شـارلمان في القـرن الثـامن مـن فرض المسيحية على السكسون والبافاريين والآفار بحد السيف حتـى أنـه قتـل من السكسون وحدهم في مذبحة فردن الشهيرة أكثـر أربعـة آلاف فـرد جملـة واحدة، وما ارتكبه الفرسان التيتون وفرسان منظمة السيف من وحشـية وقسـوة بالغة في محاولتهم نشر المسيحية في القرنين الثالث عشر والرابـع عشـر بـين البروسـيين واللتـوانيين وغيرهـم مـن الشـعوب السـلافية قـرب شـاطئ البحـر البلطي[١] هذا كله فضلا عما أتاه المبشرون الجزويت في القـرن السـابع عشـر من عنف لنشر المسيحية في الهند[٢].

ويضيف أحد كبار المؤرخين الأوربيين إن حالات الاضطهاد الفردية الـتي تعرض لها المسيحيون في البلدان الإسلامية في الشرق الأدنى في القرن العاشر بالـذات لا يصـح أن تتخـذ بـأى حـال سـبباً حقيقيـاً للحركـة الصـليبية، لأن المسيحيين بوجه عام تمتعوا بقسط وافر من الحريـة الدينيـة وغـير الدينيـة في ظل الحكم الإسلامي فلم يسمح لهم فقط بالاحتفاظ بكنائسهم القديمـة، وإنمـا سمح لهم أيضاً بتشييد كنائس وأديرة جديدة جمعـوا في مكتباتهـا كتبـاً دينيـة متنوعة في اللاهوت[٣].

وإذا كان دعاة الحروب الصليبية في أواخر القرن الحادى عشـر قـد دأبـوا على الدعاية لحركتهم في غرب أوربا عن طريق المناداة بأن أحوال المسيحيين في آسيا الصغرى والشام قد ساءت تحت حكم السلاجقة، فإن هناك أكثر مـن

(١) سعيد عاشور: أوربا العصور الوسطى ج١ ص٣٩، ١٩٤، ٦٤٣ ـــ ٦٤٩.
(٢) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام ص٣١١.
(٣) Vasiliev: Byzantine Empire. 1.p.393.

مؤرخ أوروبي مسيحي منصف قرروا في صراحة تامة أن السلاجقة لم يغيروا شيئاً من أوضاع المسيحيين في الشرق، وأن المسيحيين الذين خضعوا لحكم السلاجقة صاروا أسعد حالا من إخوانهم الذين عاشوا في قلب الإمبراطورية البيزنطية ذاتها، " وأن ما اعترى المسيحيين في الشام وآسيا الصغرى من متاعب في ذلك العصر، إنما كان مرده الصراع بين السلاجقة والبيزنطيين لأنه لا يوجد أي دليل على قيام السلاجقة باضطهاد المسيحيين الخاضعين لهم "(١).

ومما يؤكد على ايضاً ان الانتصارات التي احرزها صلاح الدين الأيوبي على الصليبيين دفعت الاثوذكسية اليونانية وسائر المذاهب المسيحية الشرقية للترحيب بعودة الحكم الإسلامي كما يقول الباحث ارنست باركر، واضاف ان سبب الترحيب هو:

" ما اشتهر به المسلمون من التسامح الديني، وللعداء التقليدي بين القسطنطينية وروما، فضلا عن عداء الإمبراطورية البيزنطية للصليبيين لا سيما بعد وفاة مانويل، وجنح اندرونيكوس كومنين إلى اقامة نوع من التحالف مع المسلمين، وارسل اسحاق كومنين إلى صلاح الدين يهنئه بالاستيلاء على بيت المقدس، وطلب تجديد التحالف ضد اللاتين، وان يعود القسس الارثوذكس إلى الأماكن المقدسة والخلاصة ان ما أشتهر به صلاح الدين من التسامح والرحمة والمرؤة، لم يغير في الأوضاع السائدة، واطمأنت العناصر المخالفة للمسلمين في الدين، إلى التغيير الجديد.

أما المسيحيون في الغرب، فاعتبروا انتصارات صلاح الدين كارثة شديدة الخطورة، وتعلقت ارستقراطيتهم بالأمل في استرداد ما كان لهم من سلطان،

---

(١) I Thompson: Economic and Social History of the Middle Ages, vel.l. P.391

وشجعهم على ذلك ان بعض المعاقل والحصون لا زالت في ايدي الصليبيين، وان صور اضحت قاعدة قوية لهم، واكثر من ذلك ان اوربا ادركت خطورة انتصارات صلاح الدين، وترتب على ذلك ما حدث من الاعداد للحملة الصليبية الثالثة[1].

(١) ارنست باركر: الحروب الصليبية ص١٨٤ بيروت دار النهضة العربية.

٦ـ تأثر الصليبيين بالمسلمين

إن الصليبيين الذين وفدوا من غربي أوروبا على بلاد الشام في ذلك العصر كانوا في مستوى حضاري أحط بكثير مما كان عليه المسلمون بالشام من رقي حضاري فكري ومادي، الأمر الذي جعل الصليبيين يحاولون التشبه بالمسلمين ومحاكاتهم والتأثر بأوضاعهم، وليس العكس وبعبارة أخرى إن الأقليات الصليبية الغربية في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر للميلاد لم تستطع أن تحتفظ بمقوماتها وعاداتها وأصولها الغربية سليمة ونقية، وإنما اضطرت بحكم انحطاط مستواها الحضاري من ناحية وقلة أعدادها دون وصول إمدادات منتظمة تغذيها بطريقة ثابتة من ناحية أخرى ـ إلى أن تكتسب الكثير من صفات وعادات المجتمع الإسلامي الأرقى في مستواه الحضاري والذي قدر لها أن تعيش متناثرة وسطه.

ويبدو هذا الأمر بوضوح في سخرية كتاب المسلمين المعاصرين من ضعف المستوى الحضاري للصليبيين بالشام وخشونة عاداتهم وتقاليدهم وخلل أوضاعهم الاجتماعية فبالإضافة إلى القصص العديدة التي رواها أسامة بن منقذ بالذات، ليدلل بها على ضعف المستوى الحضاري والاجتماعي عند الصليبيين، نجده يقولها في صراحة أن الصليبيين الذين عاشوا بالشام وجاوروا المسلمين تهذبت أخلاقهم وأنسوا بعشرة المسلمين، أما "من هو قريب العهد بالبلاد الفرنجية فهو أجفى أخلاقاً"[1].

ولم يلبث أن تطرق إلى المجتمع الصليبي بالشام الكثير من العادات

---

(١) أسامة بن منقذ: كتاب الاعتبار: ١٣٤.

الشـرقية الإسـلامية الـتي اسـترعت انتباه البـاحثين. فهـا هـي نسـبة كـبيرة مـن الصليبيين تأخذ عن المسلمين تربية الذقون ولبس الثيـاب الفضفاضـة الواسـعة التي تناسب جـو الشـرق. وهـا هـم أفـراد الطبقـة الاسـتقراطية مـن الصـليبيين يعيشون في قصور فخمة تتميز بما في داخلها من أحـواش وفسـقيات للميـاه، وبما ازدانت به من زخارف ونقوش عربية رائعة. بل لقد نبذوا الأسلوب الغربي في إعداد الطعام وطهيه، واستمرؤا الأطعمة الشرقية، وصـار السـعيد فـيهم مـن استطاع الظفر بطباخات شرقيات لا يأكل "إلا مـن طبـيخهن"[1]. أمـا نسـاؤهم فقـد أعجـبن بالأزيـاء الشـرقية وتـركن ملابسـهن التقليديـة ليرتـدين السـترت الشرقية الموشاة بخيوط الذهب والفضة، وحـاكين المسـلمات في الـتردد علـى الحمامات الإسـلامية لتقـوم البلانـة بتحفيفـيهن وتنظيـف أجسـادهن، بـل لقـد اتخذن الحجـاب علـى الوجـه ـ لا تحشـماً ـ وإنمـا رغبـة منهم في محاكـاة المسلمات الأرقـى حضـارياً، فضـلاً عـن اعتقـادهن بـأن الحجـاب يـثير حـب الاستطلاع عند الرجال، ويزيد المرأة حسناً بنسيجه الموشى بالذهب.

وهكذا احتفظ المجتمع الإسلامي طوال القرنين اللذين قضاهما الصـليبيون في بلاد الشام بأصوله وتقاليده ومثله، في حين اضطر برابرة الغرب إلى التخلي عن الكثير من أصولهم، بل لقد وجدوا لذة وفخراً في التشبه بالمجتمع الأرقـى الذي عاشوا وسطه، الأمر الذي أثار روح الاستياء عند بعـض كتـاب الصـليبيين منذ وقت مبكر. وها هو فوشيه Foucher أحـد المـؤرخين الصـليبيين الـذين أرخوا للحملة الصليبية الأولى، يكتب بعد انقضاء الربع الأول من القرن الثـاني

---

(١) المصدر السابق.

عشر، أي قبل أن يمر خمسون عاماً فقط على استقرار الصليبيين في الشام، فيقول ما نصه "... واحسرتاه!! بعد أن كنا غربيين صرنا الآن شرقيين تماماً في هذه البلاد (الشام). وغدا الايطالي أو الفرنسي الذي يعيش في هذه البلاد جليلياً أو فلسطينياً، والذي قدم من ريمز أو شارتر غدا صوريا أو أنطاكيا لقد نسينا أوطاننا الأولى وصار معظمنا لا يعرف عنها شيئاً وها هم البعض منا وقد أتوا إلى هذه البلاد ليمتلكوا البيوت والرقيق... وغدا الذي كان غربياً بالأمس مواطناً شرقياً اليوم...!!"[1].



---

(١) Foucher de Chartres (Rec. Hist. Occid. Tome3) p.360.
أبحاث المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام ص٢٣٨ـ٢٣٩، عمان ١٩٧٤ المجتمع الإسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية للدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور.

الفصل الثاني

حريق دمشق سنة ٧٤٠هـ - ١٣٤٠م

«مقدماته - دوافعه - نتائجه»

١- نبذة عن الجامع الأموي وحرائقه.

٢- المأذنة الشرقية.

٣- أحوال الملك الناصر.

٤- أحوال النصارى في عهده.

٥- نيابة تنكز على الشام.

٦- وقائع الحريق في كتب التأريخ.





١ـ نبذة عن الجامع الأموي وحرائقه

لما أقام المسلمون بالشام اتخذوا من المكان الذي كان قديماً معبداً وثنياً لجوبيتر مسجداً لهم، وكان قد اشغل قسم من حرم هذا المعبد لكي يكون كنيسة باسم القديس يوحنا المعمدان، وقد أبقى العرب على هذه الكنيسة وشغلوا القسم الغربي من الحرم حيث صلى خالد بن الوليد متجهاً إلى مكة مع صحابة الرسول في المكان الذي أُنشئ فيه محراب وهو المحراب الأول في الإسلام والذي اطلق عليه اسم محراب الصحابة.

وروي أن أبا عبيدة كتب للنصارى كتاب امان واقرّ بايدي النصارى أربع عشرة كنيسة، واخذ منهم كنيسة مار يوحنا بحكم ان البلد فتحه خالد بن الوليد من الباب الشرقي بالسيف واخذت النصارى الأمان من أبي عبيدة وهو على باب الجابية فاختلفوا ثم اتفقوا على أن جعلوا نصف البلد صلحا ونصفه عنوة فأخذ المسلمون نصف هذه الكنيسة الشرقي فجعله أبو عبيدة مسجداً وكانت قد صارت إليها إمارة الشام فكان أول من صلى فيه أبو عبيدة ثم الصحابة بعده في البقعة التي يقال لها محراب الصحابة ولم يكن الجدار مفتوحاً بمحراب محنى وإنما كان المسلمون يصلون عند هذه البقعة المباركة، وكان المسلمون والنصارى يدخلون من باب واحد وهو باب المعبد الاصلي الذي كان في جهة الغرب لكنيستهم ويأخذ المسلمون يمنة إلى مسجدهم. ولا يستطيع النصارى أن يجهروا بقراءة كتابهم ولا يضربون بناقوس إجلالا للمسلمين.

ولما ولي امارتها معاوية بنى دار الامارة وسماها (الدار الخضراء) وسكنها معاوية أربعين سنة والأمر على ذلك.

وفي عهد الوليد بن عبد الملك أزيلت الكنيسة وانشأ الوليد الجامع الأموي الكبير المعروف حتى اليوم، قال ياقوت: -

"وكان الابتداء بعمارته في سنة ٨٧، وقيل سنة ٨٨، ولما أراد بناءه جمع نصارى دمشق وقال لهم: انا نريد أن نزيد في مسجدنا كنيستكم، يعني كنيسة يوحنا، ونعطيكم كنيسة حيث شئتم وان شئتم اضعفنا لكم الثمن، فأبوا، وجاؤوا بكتاب خالد بن الوليد والعهد وقالوا: انا نجد في كتبنا انه لا يهدمها أحد إلاّ خنق، فقال لهم الوليد: فأنا اول من يهدمها، فقام وعليه قباءٌ اصفر فهدم وهدم الناس ثم زاد في المسجد ما اراده واحتفل في بنائه بغاية ما امكنه.."[(١)].

وفي رواية ابن عساكر ان حين صارت للوليد بن عبد الملك عزم على أخذ بقية هذه الكنيسة وإضافتها إلى ما بأيدي المسلمين وجعل الجميع مسجداً واحداً وذلك لتاذي المسلمين بسماع قراءة النصارى وسألهم ان يخرجوا عن بقية الكنيسة ويعوضهم اقطاعات كثيرة عرضها عليهم وان يقر لهم اربع كنائس لم تدخل في العهد وهي كنيسة مريم وكنيسة المصلبة وكلاهما داخل الباب الشرقي وكنيسة تل الجبن وكنيسة حميد بن درّة التي بدرب الصيقل فأبوا ذلك أشد الاباء فقال ائتونا بعهدكم الذي بأيدكم في زمن الصحابة فقرئ بحضرة الوليد فاذا كنيسة توماً التي كانت خارج باب توما لم تدخل العهد وكانت فيما يقال أكبر من كنيسة مريحنا فقال أنا اهدمها وأجعلها مسجداً فقالوا بل يتركها أمير المؤمنين وما ذكر من الكنائس ونحن

---

(١) معجم البلدان ٢/٤٦٥ ــ ٤٦٦.

نرضى بأن يأخذ بقية كنيسة مريحنا فأقرهم على تلك الكنائس وأخذ منهم بقية الكنيسة[1].

ثم أمر الوليد بالهدم فجاءت أساقفة النصارى وقساوستهم وقد ندموا فقالوا يا أمير المؤمنين إنا نجد في كتبنا أن من يهدم هذه الكنيسة يجن فقال أنا أحب أن اجن في الله والله لا يهدم فيها أحد قبلي ثم صعد المنارة الغربية وكانت صومعة عظيمة فإذا فيها راهب فأمره بالنزول منها فأبى الراهب فأخذ بقفاه وحدّره منها ثم وقف على أعلى مكان منها فوق المذبح الأكبر الذي يسمونه الشاهد وأخذ فأساً وضرب اعلى حجر فألقاه فتبادر الامراء والاجناد إلى الهدم بالتكبير والتهليل والنصارى تصرخ بالعويل على درج باب البريد وجيرون وقد اجتمعوا فامر الوليد صاحب الشرط أن يضربهم وهدم المسلمون جميع ما كان من آثارهم من المذابح والابنية والحنايا حتى بقي صرحة مربعة ثم شرع في بنائه بفكرة جيدة على هذه الصفة الحسنة واستعمل الوليد في هذا المسجد خلقاً كثيراً من الصناع والمهندسين والمرخمين. وكان المستحث على عمارته أخوه سليمان بن عبد الملك ويقال ان الوليد بعث إلى ملك الروم يطلب منه صناعا في الرخام والاحجار وغير ذلك ليعمروا هذا المسجد على ما يريدوأرسل يتوعده إن لم يفعل ليغزونّ بلاده بالجيوش وليخربن كل كنيسة في بلاده حتى القيامة التي بالقدس الشريف ويهدم كنيسة الرُّها وجميع آثار الروم. فبعث ملك الروم صناعا كثيرة جداً وكتب إليه يقول له ان كان ابوك فهم هذا الذي تصنعه وتركه فانه لوصمة عليك وان لم يفهمه وفهمته انت فانه لو

---

(١) حادثة تحول الكنيسة إلى مسجد رويت في عدد كثير من المصادر K.A.C CRESWELL: EARLY MUSLIM ARCHITECTURE, OXFORD 1932.

صمة عليه فاراد انْ يكتب إليه الجواب واذا بالفرزدق الشاعر دخل عليه فأخبره بما كتبه ملك الروم فقال يا أمير المؤمنين انت جعلت أخاك سليمان هو القائم بأمر العمارة والجواب بنص القرآن " ففهمّناها سليمان وكلا اتينا حكماً وعلما"، فأعجب ذلك الوليد وأمر أن تُبنى القبّة التي في وسط الرواقات التي يقال لها قبّة النسر[1] فحفروا لأركانها حتى وصل إلى الماء وشربوا منه ماء عذباً زلالا ثم وضعوا فيه جراز الكرم وبنوا فوقها بالحجارة فلما ارتفعت الاركان عقدوا عليها القبة فسقطت. فقال الوليد وقد أعياه أمرها لبعض المهندسين اريد أن تبني لي أنت هذه القبة. فقال على أن تعطيني عهد الله وميثاقه أن لا يبني فيها أحد غيري وأن لا يعارضني فيما أرومه. ففعل ذلك بنى الأركان ثم سترها بالبواري والحصر واختفى سنة لا يعلم الوليد أين ذهب ولا يستطيع أن يدع أحداً يتمّها.فلما كان بعد العام حضر على الوليد فقال له: كيف حتى عطلت البناء قال لأمر خفى على أمير المؤمنين وعلى البنائين ثم قال يا أمير المؤمنين احضر معي حتى أوافقك على ذلك فلما حضر الوليد

---

(١) وهي التي يسميها ابن جبير بقبة الرصاص وقد وصفها (في رحلته) بما يلي: "إنها من أعظم ما شاهده من مناظر الدنيا العربية وهياكلها الهائلة البنيان قال: إنها مستديرة كالكرة وظاهرها من خشب قد شد بأضلاع من الخشب الضخام مؤلفة بنطق من الحديد ينعطف كل ضلع عليها كالدائرة، وتجتمع الأضلاع كلها في مركز دائرة من الخشب أعلاها، وداخل هذه القبة وهو ما يلي الجامع المكرم خراتيم من الخشب منتظم بعضها ببعض قد اتصل اتصالاً عجيباً، وهي كلها مذهبة بأبدع صنعة من التذهيب مزخرفة التلوين، بديعة القرنصة، وفي الجدار حجارة يزن كل واحد منها قناطير مقنطرة، لا تنقلها الفيلة فضلاً عن غيرها، فالعجب كل العجب من تطليعها إلى ذلك الموضع المفرط السمو. وكيف تمكنت القدرة البشرية لذلك، فسبحان من ألهم عباده إلى هذه الصنائع العجيبة". ويلاحظ أن ابن بطوطة يختصر الوصف الذي حكاه ابن جبير، ويُعتقد أن أصل كلمة النسر ناتجة عن أصل إغريقي (AETOS) رحلة ابن بطوطة. انظر ٣٠٧/١ تحقيق: التازي.

وكشف الحصر والبواري عن الاركان فاذا هي هبطت بعد ارتفاعها حتى ساوت الأرض. فأعجب الوليد و[رجال] الدولة وخلع عليه. ثم أكمل بناءها وعقدها [1].

ومن قصيدة للنابغة الشيباني يذكر فيها بناء هذا الجامع على انقاض الكنيسة المذكورة، ويذكر عجائب عمارته:

قلعت بيعتهم عن جوف ... فصخرها عن جديد الأرض

كانت إذا قام اهل الدين فابتهلوا ... باتت تجاوبنا فيها الأساقيف

أصوات عُجم إذا قاموا بقربتهم ... كما تصوّت في الصبح الخطاطيف

فاليوم فيه صلاة الحق ظاهرة ... وصادق من كتاب الله معروف

فيه الزبرجد والياقوت مؤتلق ... والكلس والذهب العقيان مرصوف

ترى تهاويلهم من نحو قبلتنا ... يلوح فيه من الألوان تفويف

يكاد يُعشي بصير القوم زبرجه ... حتى كأن سواد العين مطروف

وفضة تُعجب الرائين بهجتُها ... كريمها فوق أعلاهن معطوف

وقبة لا تكاد الطير تبلغها ... أعلى محاريبها بالساج مسقوف

لها مصابيح فيها الزيت من ذهب ... يضيء من نورها (لبنان)

فكل إقباله - والله زينه - ... مبطن برخام (الشام) محفوف

في سرة الأرض مشدود جوانبه ... وقد أحاط بها الأنهار والريف

فيه المثاني وآيات مفصلة ... فيهن من ربنا وعد وتخويف

وكان الوليد قد انفق على بناء المسجد مالاً وفيراً يقدر بأربعمائة صندوق

(١) نزهة الانام ص٢٩ وما بعدها.

في كل صندوق أربعة عشر ألف دينار أي ما يعادل خراج المملكة لسبع سنوات واستمر انشاؤه وزخرفته تسع سنوات[1]، وواقع الجامع اليوم يؤكد ما كان عليه من الروعة والجمال على الرغم مما تعرض له من الزلازل والحرائق التي نوجزها بما يلي:

١- وقع الحريق الأول في حرب المصريين المغاربة أي الفاطميين مع العراقيين (سنة ٤٦١هـ- ١٠٦٨م) فأُحرقت دار مجاورة للجامع فتعلقت النيران به فاحترقت سقوفه المبطنة بالذهب وفصوصه، وسقطت القبة وبعد تعمير المسجد أعيدت إلى ما كانت[2].

٢- في سنة ٧٤٠هـ (١٣٣٩ ـ ١٣٤٠م) وقع الحريق الثاني وهو موضوع بحثنا هذا، وقد عمَّ جميع الجامع وما حوله من الأسواق، ودلائل المحضر الرسمي لهذه الحادثة وجميع الوثائق المنشورة هنا تشير إلى مؤامرة خارجية وخطة احكمتها الأيادي البيزنطية لضرب دمشق الإسلامية.

٣- في سنة (٧٥٣هـ /١٣٥٢م) كان الحريق الثالث عند باب جيرون فاتصل بالباب وبالنحاس الأصفر فنزعوه وكسروا خشبه وكان من نحاس دمشق ومعاملها.

٤- في سنة) ٨٠٣هـ ـ ١٤٠٠م) تعرض الجامع للحريق بعد مجيء تيمور وحرقت خزانة المصاحف والكتب فأعيد سنة (٨٠٥هـ/١٤٠٢م) إلى قريب ما كان عليه.

---

(١) وصف ابن بطوطة في رحلته ٣٠٦/١ وما بعدها مسجد دمشق وصفاً دقيقاً وذكر جميع أنواع الزينة فيه وقباب الجامع وصوامعه وأبوابه وأئمته كما لم يفته ذكر مستغلات الجامع ومجابيه، وأهمية ما وصفه أنه يأتي قبيل الحريق الذي ندرسه الآن بأربعة عشر سنة فقط.

(٢) القلانسي، تاريخ ٩٦-٩٧، البداية والنهاية ٩٧/١٢-٩٨.

٥- والحريق الخامس وقع في (٢٧ رجب سنة ٨٨٤هـ/ ١٤٧٩م) وكان من شهوده المؤرخ شهاب الدين أحمد بن محمد بن عُمر الشهير بابن الحمصي (٨٤١ ـ ٩٣٤هـ) وكان حريقاً كبيراً جداً وهذا بعض ما وصفه به: " وفي ليلة الأربعا المُسفر صباحها عن سابع عشرينه حصل بليةُ عظيمة لم يقع نظيرها، ولا في فتنة تمرلنك[1]، وهو أنه حُرق في هذه الليلة المذكُورة، وقت عشاء الآخرة، الجامع الأموي بدمشق، من أوّله إلى آخره، ولم يَسْلَم منه سوى مشهد النايب، المعروف بسيدنا عثمان، ومشهد الشيخ خطاب المعروف بسيدنا علي بن الحسين رضي الله عنهما ومن الرواق الشمالي قطعة لا غير واحترقت المنارة الغربية، وسقط رأسها على رجل فمات. وأحرق سوق الأخفافيّين، وسوق العنبرانيّين، وسوق السيّوريّين، وسوق الحريريّين، وسوق التجّار، والحبّاكين، الصفين، المعروف بسوق الذراع. والصاغة الكبيرة العتيقة.

وذهبت للناس، في هذه الليلة، أموال، ونهبت حواصل ودكاكين، وغير ذلك. وكانت ليلة منكرة فظيعة، تقشعر من ذكرها الجلود.

وكان سبب هذا الحريق، على ما ذكر، أن شخصاً أدمي يقال له أبو بكر بن علوان البديري ساكن في علوي باب البريد في طبقة على باب الجامع الأموي الصغير الملاصق لمرتفق باب البريد، أمر زوجته أن تعمل له دهن شمع، فسقط القار على قِنب، ولم يعلموا، فاشتعل القِنب، فلما رأوا ذلك خافوا، فنقلوا حوايجهم، ولم يعلموا أحداً، فقويت النار، وانتقلت إلى سوق الأدمّيين فاشتغلت الناس باخذ الحوايج من الحوانيت، وتركوا طفي النار،

(١) في هذا إشارة إلى حريق الجامع سنة ٨٠٣ هـ، في فتنة تيمورلنك.

وبعضهم بالنهب، فقويت النار إلى أن أحرقت الأدميين، وانتقلت إلى العنبرانيّين، فاحترقت وخرجت النار منها فدخلت من قمرية مكسورة بالجامع الأموي لضيق باب المنارة الغربية من القبلة فشعلت بالنار في سقف الجامع من جهة الغرب والقبلة، ثم قويت إلى أن احترقت بقية السقوف.

ثم أمر الصارمي إبراهيم بن منجَك (المعمار) بقطع سقف الجامع عند باب الساعات خوفاً على بيته، فقطع خشبتين، فلأجل ذلك لم يحترق مشهد الشيخ خطاب ولا بقية الرواق.

وأما مشهد النايب فعدم احتراقه لأن سقوفه قصيرة، فاصلاً بينها الجدران، فلم تحكم النار عليها.

وكنت حاضراً لغالب هذه الأمور، أنقُل البسط أنا ورفاقي إلى صحن الجامع، وأنخي الناس على حملهم من داخل الجامع إلى الصحن، وأمرت بفك المنبر لمّا قربت منها النار وحمل المصحف العثماني والربعات والصريح الذي للوقف، وكنا قد عملنا حصرا جدداً رقاعاً لم ير مثلها، ووضعت عند شباك مشهد النايب، فجاءت النار من الشباك فأحرقتها، ولم يحترق المشهد، ولله الحمد.

وذُكر أنه في فتنة تمرلنك لم يحترق. وكان ملك الأمرا قانصوه اليحياوي قبل الحريق بشهرين قد رسم بعمارة الجامع ووقفه. وكان قد جدد الرخام في الحايط القبلي من أوله إلى أن وصلت النصارى الموجهين في هذه الليلة إلى ضريح سيدي هود عليه السلام من الحايط القبلي المذكور. وكان قد جدد الطراز القبلي المذهب من أوله إلى آخره. فلما وقع الحريق ذهب الطراز، واحترق الرخام وتساقط، وصار كالملح يذهب. (وسقطت فصوصه وقماريه،

وذاب الرصاص الذي كان على الجانبين) وذهبت محاسن الجامع وعينه الرخامية.

وكان كلما سقط منه جملون من النار يسمع دويه كالرعد القاصف وصار الناس ينظر بعضهم (بعض) في الليل من شدة النار.

وكان عند الناس عزاء عظيم وبكاء، حتى الذمة صارت تنظره وتبكي. وجاءت الناس من القرى والبلدان، فشرعوا عند رؤيته يبكوا"[1]، وعلى الجملة فقد كانت الحرائق بعموم دمشق تنشب بين فترة واخرى ولسبب أو لآخر، ومنها ما كان قرب الجامع ولكن لم يصل اليه، كما هو حال الحريق الحادث عام (٧٩٥هـ ـ ١٣٩٢م) في سوق الدهستان وسوق الوراقين والساعات ونصف المعزية من شرقي الجامع، ومن ذلك الحريق الذي وقع سنة (٧٥٧هـ ـ ١٣٥٦م)، فتلف منه ستمائة حانوت سوى البيوت وقدر التلف ما يزيد على مليون درهم[2] وتبعته حرائق اخرى بالصالحية وداخل باب الصغير وأماكن اخرى في البلد[3].

---

(١) حوادث الزمان ووفيات الشيوخ والاقران، المجلد الأول ص٢٣٢ ـــ٢٣٣، ذكر محقق الكتاب ان خبر هذا الحريق ورد كذلك في (وجيز الكلام للسخاوي ٨٩٨/٣، وتاريخ ابـن سـباط ٩٠٢/٢، وتاريخ البصروي ٨٨، ونيل الأمل ٢/ورقه ٢٩٨ أ، وتاريخ الأزمنة ٣٦١) حوادث الزمان ٢/هامش ص٢٣٣.

راجع ايضاً نفس المجلد من حوادث الزمان ص٢٣٥ ـــ ٢٣٦ (حول خسائر الحريق المذكور الجهود لإعادة عمارة الجامع).

(٢) وقع هذا الحريق ايام الامير علاء الدين أمير علي المارداني الذين قام نائباً بدمشق نحـو خمـس سنين ونصف ومن سوء الاتفاق ان وقعت في زمنه عدة حرائق كبيرة في دمشق نقصت كثيراً من عمرانها، ذكرها محمد أحمد دهمان في كتابه ولاة دمشق في عهد المماليك راجـع ص٢٠٩ ـــ ٢١٠.

(٣) السلوك للمقريزى ٤ / أحداث سنة ٧٥٧، وانظر البداية والنهاية ١٤ / ٢١٠.

ولعل آخر ما تعرض له من الحرائق عام (١٣١٠هـ/ ١٨٩٣م) حيث سرت النار إلى جذوع سقوفه فالتهمتها في أقل من ثلاث ساعات فدثر آخر ما بقي من آثاره ورياشه، وحرق فيه مصحف كبير بالخط الكوفي كان جيء به من مسجد عتيق في بصرى وقيل عنه انه المصحف العثماني[(١)].

وقال عنه الدكتور عفيف بهنسي[(٢)]:

" حريق الجامع الأموي الكبير عام ١٨٩٣، كان آخر وأعنف نكسة أصيب بها الجامع، فلقد أتى الحريق على جميع خشبيات الجامع وزخارفه، وجميع نوافذه وأبوابه. حتى أصبح الجامع أطلالاً لا يبدو منه إلا جدرانه ومآذنه، وقد صور ماكس فان برشيم الجامع بعد حريقه، فبدا بشكل مؤسف.

وفقد الجامع نتيجة هذا الحريق الهائل كسوته الخزفية الرائعة التي كانت تغطي أقساماً هامة من داخل حرمه، نراها واضحة في صورة التقطها فون اوبنهايم قبل الحريق وفي نفس العام، وفيها تبدو سجاجيد الخزف بمساحة تزيد عن ثلاثة أمتار مربعة تتوسط الكسوات الرخامية على جدارن الحرم من الجهة القبلية، كما نراها في أعلى المنبر وعلى طرفي المحراب ونلاحظ عدم

---

(١) خطط الشام ٥/٢٦٢.

(٢) (عفيف بهنسي: القاشاني الدمشقي) الحوليات الاثرية العربية السورية، المجلد ٣٥ (١٩٨٥ م) ص٢٢ ـــ ٢٣. وكانت دمشق قد تعرضت لحريق كبير بعد قدوم احد وزراء الدولة العثمانية المسمى محمد سليم باشا وثورة الاهالي عليه، وقد أرخ لهذه الحادثة أحد كتاب الحكومة الدمشقيين في كتاب منه نسخة مخطوطة في مكتبة برلين برقم ٩٧٨٧، وقد نشرت جلها في كتاب بعنوان: "مذكرات تاريخية تتضمن بيان ثورة دمشق والحريق الكبير منها وقدوم ابراهيم باشا إلى الشام.. الخ " وقد عنى بنشرها وتعليق حواشيها الخوري قسطنطين بن الباشا المخلص، وطبعت بمطبعة القديس بولس في حريصا (لبنان)، انظر ص٢ وما بعدها. ويذكر الكاتب في اواخر الكتاب عدد من الحوادث التي جرت في الشام ضد النصارى راجع ص٢٤٠ ـــ ٢٤٩.

وجود الشريط الكتابي المتضمن سورة الرحمن، والذي اضيف بعد الترميم، في بداية القرن الحالي وفي صورة أخرى لماكس فان برشيم نرى ألواحاً خزفية كانت تغطّي أجزاء من واجهة الحرم المطلة على الصحن.

ومن المؤكد أن هذه الألواح التي لم تعد موجودة مع بقايا الجامع بعد الحريق، قد تسربّتْ خارج سورية. ولم يكن الأمر صعباً إذ أنَّ الجامع أصبح خربة. يعبث بأنقاضه العابثون زمناً. وقد كشف النقاب عن مصير هذه الألواح، وتبين ان بعضها موجوداً في متحف فيكتوريا وألبرت في لندن، وبعضها في متحف المترو بوليتان في نيوريوك، كما يوجد قسم منها في المتحف الإسلامي في القاهرة".

"وقد تم حديثاً اكتشاف مجموعة كبيرة من الوثائق في متحف الفن التركي والإسلامي في استانبول كانت في الجامع الأموي بدمشق. وقد نقلت إلى استانبول بعد الحريق الذي شب في الجامع سنة ١٨٩٣م. وتحتوي هذه المجموعة على الكثير من قطع المصنفات مكتوبة على الرق والكاغد، وتحتوي أيضاً على قطع من القرآن الكريم على شكل سجلات مطوية (لفائف) من الرق ووثائق بأديه الحج أو العمرة بالنيابة وكثير من المحاضر والسجلات الحكمية. وإن بعض هذه الوثائق يعود إلى القرن الثاني أو الثالث للهجرة[١]".

---

(١) قاسم السامرائي: مقدمة في الوثائق الإسلامية: ٧٦-٧٧.

- J. Sourdel-Thomine-D. Sourdel, A Propos des Documents de la Grande Mosquee de Damas conservés a Istanbool. In: Revue des Études Islamiques. XXX III. (1965). Pp. 73- 85
- ory. S. Un Nouve au Type de Mushaf. In: REI XXX II. (1965) Pp. 87- 149.

وأما ما أصابه من حوادث الزلازل فمن ذلك ما كان سنة (٥٩٧هـ / ١٢٠٠م) حيث تداعت سقوفه ورُمي بعض المنارة الشرقية وسقط ١٦ شرفة وتشققت، قبة النسر وآخرها زلزال عام (١١٧٣هـ / ١٧٥٩م) وقد تخربت فيه القبة المذكورة مرة أخرى والرواق الشمالي.



٢ـ المأذنة الشرقية

في المسجد الأموي ثلاث مآذن:

١- المئذنة الشرقية، وتسمى مئذنة عيسى أو المئذنة البيضاء.

٢- المأذنة الغربية وكلاهما انشئ على قاعدة الصومعة القديمة، أما الصومعتان الواقعتان على طرفي الجدار الشمالي فقد أُزيلتا.

٣- والمئذنة الثالثة هي مئذنة العروس التي أنشأها الوليد بن عبد الملك ومئذنة عيسى التي أصيبت في هذا الحريق، ورممت بعد هذا الحريق وفي عصور اخرى بعد ذلك حيث تعرضت إلى كثير من التهديم. ونقل البردعي في حاشيته على شرح العقائد ما نصه: ونزول عيسى من السماء عند المنارة البيضاء في شرقي جامع دمشق ويمكث عيسى في الأرض بعد قتل الدجال سبع سنين وليس بين اثنين عداوة ثم يرسل الله ريحاً باردة من قبل الشام فلا يبقى على الأرض أحد في قلبه مثقال ذرة من خير الا قبضة الله فيبقى شرار الناس فيأمرهم الشيطان بعبادة الأوثان وهذا يثبت ما قاله عليه السلام لا تقوم الساعة على أحد يقول الله الله.

ونقل الحصكفي الدمشقي في كتابه أثناء وعظه بجامع دمشق وبالشام ينزل عيسى وهو المبشر بخاتم الانبياء فيقرر عند نزوله دين محمد صلى الله عليه وسلم ويحكم به ولا يقبل من أحد غير دينه ويكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويصلي خلف امام المسلمين ويقول ان هذه الأمة ائمة بعضهم لبعض اشارة إلى انه متبع لدينهم غير ناسخ له.

نقل ابن الوردي في الخريدة ونقل صاحب معجم البلدان ان المنارة الواقعة

شرقي جامع دمشق تسمى المنارة البيضاء وهي كانت ديدبانا للروم وصيرت منارة وهي التي تقدم ذكر نزول عيسى منها. ويزعمون ان فيها قطعة من الحجر الذي ضربه موسى بن عمران عليه السلام فانبجست منه اثنتا عشرة عيناً وهي تعرف اليوم بمنارة عيسى[1]، ونقل ابن عساكر في تاريخه انه يهبط المسيح عيسى عليه السلام عند القنطرة البيضاء على باب دمشق الشرقي تحمله غمامة. ونقل عبد الغني النابلسي الدمشقي في مجموع احاديثه حديثاً رواه الطبراني في مسنده انه ينزل عيسى عند المنارة البيضاء في شرقي جامع دمشق وهذا يضعف قول بعضهم انه ينزل في بيت المقدس[2].

والمنارة اليوم ذات بدن مضلّع وفي أعلاها مخروط أُنشيء في العهد العثماني

(القرن ١٥ - ١٦م) وانما سُميت كذلك للاعتقاد بعودة ظهور المسيح عليها.



(١) معجم البلدان ٢/٤٦٩ (طبعة ١٩٩٥ دار صادر).

(٢) منتخبات التواريخ لدمشق ص٣٦٨. وجميع الروايات المتعلقة بالمأذنة الشرقية مذكورة في هذا الكتاب.

٣ـ أحوال الملك الناصر

وقـع هـذا الحريـق في السـادس عشـر مـن شـهر شـوال (سـنة ٧٤٠هـ/ ١٣٤٠م) وهذه هي السنة الأخيرة من ولاية تنكز زمـن محمـد بـن قـلاوون بـن عبد الله الصالحي، ابو الفتح (٦٨٤ ـ ٧٤١هـ ١٢٨٥ ـ ١٣٤١م)، مـن كبـار ملـوك الدولة القلاوونية[١] والذي كانت اقامته في طفولته بدمشق، وولي سـلطنة مصـر والشام سنة ٦٩٣هـ وهو صبي ثم خلع منها بعد عـام تقريبـاً، واعيـد للسـلطنة بمصر سنة ٦٩٨هـ لكن الحكم الحقيقـي كـان بيـد الأمـير بيـبرس الجاشـنكير ونائب السلطنة الأمير سلّار، واستمر نحو عشرين سنة حتى ضـاق صـدره مـن تحكمهمـا وتظـاهر بـالحج فخـرج إلى الكـرك وأقـام بهـا فخلعـه الامـيران المذكوران لكنه عاد إلى مصر منتصراً وعاد إلى عرشـه سـنة ٧٠٩هـ وامتلـك قيادة الدولة فخطب له بمصر وطرابلس الغرب والشام والحجاز والعراق وديار بكر والـروم وغيرهـا واتتـه هـدايا ملـوك المغـرب والتكـرور والنوبـة والـترك والفرنج، واستمر حكمه ٣٢ سنة و٢٥ يوماً كانت له فيها سيرٌ وأنباء[٢].

---

(١) وتعرف بالمماليك البحرية تميزاً لهم عن المماليك البرجية، قامت دولتهم سنة (٦٤٨ــ٧٩٢ هـ ـ م ـ ١٢٥٠ ـ ١٣٨٩م) راجع زامباور: انساب الاسرات الحاكمة ص١٦٢ ـ ١٦٣. وفي كتاب الأدب في العصر المملوكي للدكتور محمد سلام زغلول ١/ ١٨ أن دولة المماليـك البحرية انتهت بموت السلطان الملك الصالح زين الدين حاجي سنة (٧٨٤هـ-١٣٨٢م). وقد عرف هؤلاء الحكام ومنهم الملك الناصر محمد بن قلاوون باسم المماليك البحرية نسبة إلى بحر النيل الذي عليه قلعة الروضة حيث سكن مماليك الصالح نجم الدين أيوب.

(٢) ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة ٤ /١٩١ ـ ٢٦٥ رقم ٤٢٤٨ دار الكتب الحديثة بمصر. وعلى ما يظهر ان النصارى كانوا على عهده في احسن حال بل انهم على ما يروي ابن كثير في البداية والنهاية ١٤ /٩٩ حوادث سنة ٧٢١ هـ انهم ثاروا على المسلمين ثورة صاحبة ـ بسبب هدم بعض كنائسهم في القاهرة فشبوا فيها حريقاً هائلاً كاد يحرقها برمتها، فتغاضـى عنهم السلطان فتمادوا في الطغيان وقاموا بعمليات عديدة من الحرائق، حتى أصيب النـاس=

حفلت مدة حكم الملك الناصر محمد ببعض الأحداث الكبار منها استيلاء التتار على دمشق بعد هزيمته في وقعة وادي الخازندار سنة ٦٩٩هـ-١٢٩٩م، أمام غازان، واضطر بعدها إلى الهروب هو وفرقة من جنده جنوباً في الطريق إلى مصر، وقطعت الخطبة باسمه في دمشق بعد استيلاء التتار، ثم أعيدت بعد استعادتها من أيديهم. كذلك كان في عهده فتح جزيرة أرواد من بلاد الإفرنج.

وكتب للناصر النصر في وقعة دمشق الثانية عند مرج الصفر سنة ٧٠١هـ-١٣٠١م، وكان لثباته مع فرسان خاصة مماليكه سبباً مباشراً لهذا النصر، فقد اكتسحت خاصته صفوف التتار، وأعقبهم بقية الجيش فبددوا جحافلهم، ولم تغرب شمس اليوم، إلا ورايات الناصر تعود مظفرة إلى أبواب دمشق ثم تدخل القاهرة ويلقاها الناس بالأفراح والتهليل وحضر هذه الوقعة ووصفها وصف عيان اثنان من كبار مؤرخي العصر هما أبو الفداء والنويري.

وبعد النصر كتب الناصر إلى غازان رسالة أخرى ملؤها التيه والاعتداد، يتهدده فيها هو هذه المرة باجتياح بلاده إن لم يخلد إلى السكينة ويكف عن غاراته على الشام.

=بالذعر والخوف، وصعد الناس المآذن وأقبلوا على الصلاة والدعاء وضجوا بالتكبير وكثر النحيب والبكاء، وكان يوماً مروعاً مشهوداً لم ير الناس قط أفظع منه هولاً ولا مثله ترويعاً.وجاء في كتاب الملل والنحل والاعراق ـــ هموم الاقليات في الوطن العربي ص٤٠٣ حول هذه الحادثة ما يلي: [عرف العصر المملوكي امثلة من العنف المتبادل بين المسلمين والقبط، وتتضمن " خطط المقريزي" ما يمكن ان يسمى بالاصطلاح الحديث "تحقيقاً صحفياً " عن فتنة طائفية حدثت في عهد السلطان محمد بن قلاوون. وبدأت بحركة عام ٧٢٠ هـــ تم فيها هدم كنيسة الزهرية (بمصر القديمة) وتطورت إلى هدم أربع وخمسين كنيسة في جميع أنحاء البلاد، وبعد شهر بدأت النيران تشتعل في عدد من أحياء القاهرة، وقبض على " ثلاثة من النصارى" ارشد إلى عدد من الرهبان، فازداد هياج العامة وفتكوا بالنصارى، " وتجاوزوا فيهم المقدار" ويضيف المقريزي انه في هذه الأيام اسلمت جماعة كثيرة من النصارى].

وحاول خليفة غازان أن ينتقم لكسرة المغول الثانية على أبواب دمشق، وأراد أن يستظهر على قوة المماليك بحلفاء التتار التقليديين من فرنجة أوروبا، فراسل ملوكهم، وكان سلطان التتار هذه المرة شيعياً، وكانت أمه مسيحية فكتب إلى ملك فرنسا وملك إنجلترا رسائل، وبعث إليهما بعوثاً في سنوات ١٣٠٥م، ١٣٠٧م، كما راسل البابا ولكنه لم يصل إلى غرضه من تلك الرسائل والبعوث، فلم يحصل على التأييد المطلوب.

ثم ولى الخان أبو سعيد أمر التتار وكان مسلماً سنياً فتقرب إلى سلطان مصر لتأييده ضد بعض قبائل التتار التي ثارت عليه، وكاتب الناصر في ذلك فرحب الناصر بحلفه وتأييده، ومده بما يطلب من العون. وظل السلام قائماً بين مصر والتتار منذ سنة ٧٢٣هـ قال ابن الدوادار: «وكان للتاجر مجد الدين السلامي أثر كبير في إقناع جوبان كبير دولة المغول، وكان مسلماً حسن الإسلام، واستطاع أن يقنع الملك أبا سعيد بالصلح»[1].

وهكذا ساد السلام والمودة بعد الحرب والعداوة، واعترف كل منهما براية الآخر في الحج.

وبعد وفاة السلطان أبي سعيد طمع الناصر في بعض بلاده، وأراد السيادة على بغداد قاعدة الخلافة، وكتب بذلك إلى أحد خلفاء أبي سعيد، فضربت السكة باسم الناصر في بغداد زمناً وخطب له على منابرها، وبعث إليها بقوة من الجيش المصري ظلت بها حتى سلطنة السلطان شعبان آخر خلفاء الناصر، فقام الخان المغولي «أويس» بإخراج تلك القوة، وبذلك قضى على آمال

(١) تاريخ الدواداري: ٣١٣.

الناصر في مد سيطرة الدولة إلى حدود دجلة، ليضم بذلك أكثر أرض الخلافة العباسية الضائعة.

وفي داخل البلاد أخمدت ثورات العربان بصعيد مصر، وأخضع ملوك النوبة المسيحية بشمال السودان.

ومهدت هذه الفترة الطويلة من الاستقرار أمامه الطريق لكثير من الأعمال الداخلية، وشعر الناس بالهدوء نسبياً وبالرخاء بعد فترات عصيبة من الضنك والغلاء، والاضطراب والفوضى.

وقد أقام كثيراً من المنشآت والعمائر منها المساجد ودور الصوفية والمدارس، ومن أشهرها الخانقاه السرياقوسية الكبرى التي أتم تشييدها سنة ٧٢٥هـ بسرياقوس شمالي القاهرة.

ووصف ابن حجر فترة الهدوء والازدهار التي سادت معظم عصر الناصر محمد فقال: «ولم ير أحد مثل سعادة ملكه، وعدم حركة الأعادي عليه براً وبحراً مع طول المدة، فمنذ وقعة شقحب إلى أن مات لم يخرج عليه أحد».

واستكثر الناصر محمد من شراء المماليك، وبالغ في ذلك، وفاق غيره من سلاطين المماليك، وكان شخصاً شجاعاً مهيباً، ذا دهاء، وكان مطاعاً، وقديراً على إدارة ملكه العريض، عارفاً بسياسة الدول، يعظم أهل العلم والمناصب الشرعية، لا يقرر فيها إلا من يكون أهلا لها، ويتحرى لذلك، ويبحث عنه ويبالغ، وكان ذا حزم وعزم، طويل الصبر على ما يكره، إذا حاول أمراً لا يُسرع فيه، بل يحتاط غاية الاحتياط، وكان يتهور أحياناً إذا ما غضب، فقد هم بأن يقل أحد الفقهاء، وهو ابن مكي بسيفه في مجلسه، لأنه استثاره ووجه إليه

كلمات أغضبته لولا شفاعة بعض الحضور من القضاة ممن يجلهم ويحترم مشورتهم، كذلك يروى أنه ضرب ناظر الجيش فخر الدين بالحذاء.

واتهم الناصر محمد في سلطنته بتقريب النصارى من أقباط مصر، وتمكينهم من رقاب الرعية، وتحكيمهم في أمورهم، إذ اتخذ منهم الوزراء ونظار الخاص السلطاني، وثار عليه الشعب، وخاصة أهل القاهرة ونددوا ببعض أفعاله، وحرض الفقهاء أحياناً الناس عليه.

وأبدى تشدده في مناسبات ضد بعض الطوائف الدينية، فأمر بأن يلبس اليهود العمائم الصفراء، وقيل إن سببه تآمرهم عليه وخيانتهم له مع غازان قائد التتار حين استولى على دمشق، فلم يجد من يتعاون معه سوى اليهود.

وأبدى الناصر تشدده كذلك في حدود الدين في مناسبات كثيرة، فقد تتبع المنكرات بالقاهرة وغيرها من عواصم ملكه، وعاقب مرتكبيها في صرامة وقوة.



٤ـ أحوال النصارى في عهده

حدث في سلطنة محمد الثانية سنة ٧٠٠هـ أن جاء إلى القاهرة أحد كبار المغاربة وجلس بباب القلعة عند بيبرس الجاشنكير وسلار، فحضر بعض كتاب النصارى، فقام إليه المغربي يتوهم أنه مسلم، ثم ظهر أنه نصراني، فقامت قيامته، وقام من وقته ودخل إلى السلطان بحضرة الأمير سلار وبيبرس مدبرى مملكة الناصر محمد، وتحدث معهم في أمر النصارى واليهود، وأنهم عندهم في بلادهم في غاية الذل والهوان، وأنهم لا يمكنونهم من ركوب الخيل، ولا من استخدامهم في الجهات السلطانية والديوانية، وأنكر على نصارى ديار مصر ويهودها كونهم يلبسون أفخر الثياب، ويركبون البغال والخيل، وأنهم يستخدمونهم من أجل الجهات، ويحكمونهم في رقاب المسلمين. قال ابن تغرى بردى: فأصدر إليهم في عهد الناصر هذا أمر بلبس عمائم زرقاء، وزنانيرهم مشدودة في أوساطهم، واليهود عمائم صفرا.ثم أمر السلطان الناصر بغلق الكنائس في مصر، فضرب على كل باب منها دفوف ومسامير، وصار إذا ركب أحدهم بهيمة يكتف إحدى رجليه وبطلوا من الخدم السلطانية، وكذلك من عند الأمراء. قال: ثم رسم السلطان أن يكتب بذلك في جميع بلاده من دنقلة إلى الفرات[1].

ويقول المقريزي: «وفي سنة ٧٠٠هـ كانت وقعة أهل الذمة، وهي أنهم كانوا قد تزايد ترفهم بالقاهرة ومصر، وتفننوا في ركوب الخيل المسومة والبغلات الرائقة بالحلي، ولبسوا الثياب السرية وولوا الأعمال الجليلة، فاتفق

(١) النجوم الزاهرة، ١٣٤/٨.

قدوم وزير ملك المغرب يريد الحج، واجتمع بالسلطان والأمراء، فبينما هو تحت القلعة إذا برجل راكب فرساً، وحوله عدة ناس مشاة في ركابه، يتضرعون له ويسألونه، ويقبلون رجليه، وهو معرض عنه لا يعبأ بهم، بل ينهرهم ويصيح في غلمانه بطردهم، فقيل للمغربي إن هذا الراكب نصراني فشق عليه، واجتمع بالأمير بيبرس وسلار: وحدثهما بما رآه، وأنكر ذلك، وبكى بكاء كثيراً، وشنع في أمر النصارى، وقال: كيف ترجون النصر والنصارى تركب عندكم الخيول وتلبس العمائم البيضاء وتذل المسلمين وتمشيهم في خدمتهم؟ وأطال القول في الإنكار: وما يلزم ولاة الأمور من إهانة أهل الذمة وتغيير زيهم. فأثر كلامه في نفوس الامراء فرسم بأن يعقد مجلس بحضور الحكام؛ فاستدعيت القضاة والفقهاء، وطلب بطرك النصارى وبرز مرسوم السلطان بحمل أهل الذمة بما يقتضيه الشرع المحمدي»[1].

وقال المقرزي: «واستقر الحال على أن النصارى تتميز بلبس العمائم الزرق، واليهود بلبس العمائم الصفر، ومنعوا من ركوب الخيل والبغال». ويقول: «وجمع النصارى واليهود بالقاهرة ومصر وظواهرها ورسم ألا يستخدم أحد منهم بديوان السلطان، ولا بدواوين الأمراء، وألا يركبوا خيلاً ولا بغالاً، وأن يلتزموا سائر ما شرط عليهم، ونودي بذلك في القاهرة ومصر، وهدد من خالفه بسفك دمه، وخرج البريد يحمل النصارى واليهود فيما بين دنقلة والنوبة إلى الفرات على ما تقدم ذكره»[2].

وكذلك ذكر ابن إياس هذه الواقعة، وزاد بأن فرض على السامرية بالشام

---

(١) السلوك ١/٩٠٩.

(٢) السلوك ١/٩١١.

والفرات لبس العمائم الحمراء[1]. وأجمع المؤرخون على أن بيبرس الجاشنكير كان السبب في هذا الاتجاه سواء في عهد سلطنته بعد خروج الناصر أو قبيل خروجه مباشرة إلى الكرك[2].

وسخر الشعراء بدورهم من هذا الحدث فقال واحد منهم[3]:

لا تعجبوا للنصارى واليهود معاً ... والسامرية لما عمموا الخرقا

كأنما بات بالأصباغ منسهلاً ... نسر السماء فأضحى فوقهم ذرقا

وكان مما أوغر صدور الناس في ذلك الوقت على النصارى، وتقبلهم مثل تلك الفروض عليهم تشدد موظفي الحكومة من الأقباط كُتَّاباً ومحصلي مكوس في وظائفهم على الرعية، وقسوتهم في تحصيل الأموال، وتضييقهم على الناس، وأخذهم المال بالباطل والثراء من هذا كله بالرشوة أو السرقة والاختلاس، ثم لتظاهرهم بعد هذا كله بالإسلام، وتعصبهم في الخفاء لدينهم مما دعا أحد الشعراء إلى أن يقول:

اللعب بالدينين يقبح بالفتى ... والرأي صدق القلب والتسليم

هذا كريم الدين لولا نصره ... دين النصارى مات وهو كريم

وكان كريم الدين وكيل السلطان الناصر، وأحد كبار أقباط المصريين الذين نالوا حظوة كبيرة لدى الناصر في سلطنته الثالثة. وقد تساهل الناصر مع النصارى في عهد هذه السلطنة. ولم يعد التشدد الذي كان أيام بيبرس الجاشنكي، حتى تحدى كريم الدين، والنشو- من كبار الأقباط كذلك- مشاعر

(١) المصدر نفسه ٩١١/١.

(٢) تاريخ ابن إياس.

(٣) الدرر الكامنة.

المسلمين[1]، فأدى إلى وجود النفرة بين طوائف الأمة واندلاع الإحداث الدامية سنة ٧٢١هـ وشبت حرائق القاهرة التي دبرها الأقباط لشعورهم بالاضطهاد والتضييق عليهم في العبادة وإلزامهم بعلامات خاصة من الملبس والمركب. قال الدواداري: «وفيها(سنة٧٢١هـ) كان بدء الحريق العظيم بمصر والقاهرة، وكان من فعل النصارى، وسببه أن برز المرسوم الشريف بخراب كنيسة الكرج التي كانت تعرف بالحمراء، فشرع الناس في هدم عدة كنائس وهي: كنيسة الزهرى، وكنيسة أبي مي، وكنيسة السبع سقايات وبلغت الجملة سبع كنائس أخربوها العامة ونهبوا منها أشياء كثيرة، فشرعوا النصارى في الحريق بمصر والقاهرة في سائر الأماكن. ولقد بلغني أنهم تسموا بالمجاهدين، وهم الذين تجردوا لهذا الفعل وكانوا يرمون بالحرق المحشوة بالزيت والكبريت، ويؤرثون فيها النيران ويحذفونها في أسطحة البيوت، ويدفعونها تحت الأبواب الخشبية. وعادت أيام شنيعة، وكل أحد خائف وجل على نفسه وملكه وماله.

واحترقت عدة دور حسنة لها صورة، وعادوا النصارى يزعمون أن النار تنْزل من السماء، ليوهموا أن ذلك بسبب خراب كنائسهم، ثم إن النصارى طلبوا فاختفوا، ومسك منهم جماعة وعوقبوا»[2].

ويقول ابن الوردى عن تلك الحرائق: "وتوالى الحريق بالقاهرة، وتحير السلطان والرعية له، وتتبع ذلك فقيل إنه وجد بعض النصارى ومعه آلة الحريق كالنفط وغيره، فأخذوا وعرضوا على السلطان فذكر بعضهم أن القسيسين اتفقوا على هذا بسبب ما حصل من التعرض إلى كنائسهم وأنهم

---

(١) الطالع السعيد ٣٢٦، وراجع السلوك ٢/٢١٩.

(٢) تاريخ الدواداري ٣٠٦.

رتبوا أربعين نفساً من النصارى يلقون النار في بيوت المسلمين ومساجدهم، ثم نودي على النصارى أن يخرجوا بالثياب الزرق والعمائم الزرق، وأن يجعل الجرس في أعناقهم في الحمام وأن يركبوا عرضاً، ولا يستخدموا في الديوان. فعند ذلك خف الإحراق بعد أن كان أمراً عظيماً وكم سقطت به دار، وكم خرج من حريم مكشفات حتى وقفت الناس له في الصلوات، وأعدوا الدنان مملوءة ماء في الأسواق»[1].

وقال المقريزي: «فشاع بين الناس أن الحريق من جهة النصارى لما أنكاهم هدم الكنائس ونهبها، وصارت النيران توجد تارة في منابر الجوامع، وتارة في حيطان المدارس والمساجد، ووجدت النار بالمدرسة المنصورية، فزاد قلق الناس وكثر خوفهم، وزاد استعدادهم بادخار الآلات المملوءة ماء في أسطح الدور، وأكثر ما كانت النار توجد في العلو، فتقع في زروب الأسطحة والباذهنجانات، ويوجد النفط قد لف في الخرق المبللة بالزيت والقطران».

وقامت بالقاهرة فتنة أخرى سنة ٧٥٤هـ في عهد السلطان صالح بن الناصر محمد قال ابن إياس: «وفي هذه السنة نادى السلطان في القاهرة بأن لا يستعان بيهودي ولا نصراني في ديوان. وأن تكون عمائمهم عشرة أذرع لا غير، وأنهم لا يركبون مع مكاري مسلم، وإذا مروا بالمسلمين ينْزلون من الحمير، ويظهرون المسكنة، وأنهم لا يدخلون الحمام إلا بصليب في أعناقهم وشرط عليهم أشياء كثيرة من هذا النمط»[2].

وجاء في منشور للسلطان سنة ٧٥٥هـ: «ألا يدخلوا الحمامات إلا بالعلامات من جرس أو خام نحاس أصفر أو رصاص، ولا تدخل نساؤهم مع

---

(١) تاريخ ابن الوردي ٢/٢٧٢

(٢) تاريخ ابن إياس ٢٠١.

المسلمات الحمامات، وليكن لهن حماما تختص بهن، وأن يكون إزار النصرانية من كتان أزرق، واليهودية من كتان أصفر، وأن يكون أحد خفيها أسود والآخر أبيض، وأن يحكم حكم مواريثهم على الأحكام الشرعية»[1].

وهكذا اتجه المماليك إلى التفرقة بين الطوائف الدينية وأرثوا نار الفتنة الدينية، وكشفوها، وأرادوا التذكير بالفروق بين الناس في الدين، حتى لا تنطوي نفوسهم على الوفاق والتعاون والمحبة التي أرادها الله لعباده، ولسائر البشر. واستمرت تلك سياسة السلاطين حى نهاية الدولة الأولى. وذكر ابن إياس في أحداث سنة ٧٥٩هـ أنه رفعت قوائم إلى الأمير صرغتمش من ديوان الأحباس فيها عدة حصص جارية على منافع الكنائس والديورة فكان قدر تلك الحصص خمسة وعشرين ألف فدان بيد النصارى، فلما سمع الأمير صرغتمش بذلك حنق وطلع إلى القلعة وشاور السلطان على ذلك، فرسم السلطان بأن يخرج ذلك من يد النصارى، وكتب بذلك مربعات، وأنعم بها على الأمراء زيادة على إقطاعاتهم، ففرقت عليهم تلك الإقطاعات الشريفة وبطل ما كان بأيدي النصارى من ذلك الرزق. ثم إن السلطان أمر بهدم الكنائس والديورة»[2].

كذلك ذكر ابن إياس أن صرغتمش هذا أبطل أعياد النصارى مثل عيد الشهيد في عصر السلطان حسن، لما كان يرتكب فيه من القتل والفساد.

ومما ذكره ابن إياس يتضح أن ذلك الاتجاه إلى التضييق على الطوائف الدينية لم يكن لصالح الناس، ولا المسلمين من الرعية، بل كان لصالح المماليك أنفسهم، لزيادة ما بأيديهم من المال والثروة.



(١) البداية والنهاية لابن كثير ١٤/ ٢٥٠.

(٢) ابن إياس ٢٠١.

٥ـ نيابة تنكز على الشام

وعلى عهده استقر تنكز نائباً للشام من سنة ٧١٢هـ وبقي إلى أواخر سنة ٧٤٠هـ ولدى وقوع الحريق فيها اطلع على أسبابه ومسبباته، وعاقب النصارى معاقبة شديدة لأجل ذلك، وكان أصل تنكز من مماليك الملك المنصور لاجين، ولهذا كان تنكز يدعى بالحسامي، فلما قتل المنصور لاجين، وعاد الملك الناصر إلى السلطنة، أخذ تنكز من جملة موجود الملك لاجين، فصار من مماليك الناصر محمد بن قلاوون فاخرج له خيلاً وقماشاً، وجعله خاصكّياً، ثم بقي أمير عشرة، ثم بقي أمير طبلخانة، ثم بقي مقدم ألف، كل ذلك في دولة الملك الناصر.

فلما راج أمر تنكز جعله الملك الناصر نائب الشام في سنة اثنتي عشرة وسبعمائة، عوضاً عن الأمير آقوش الأفرم، واستمر في نيابة الشام ثمانية وعشرين سنة، وهذا لم يتفق لأحد قبله من النوّاب، فعظم أمره وكثرت أمواله. وعن اخلاق تنكز وتعامله مع الشعب يقول الكتبي انه كان فاقداً للدهاء والحكمة ومداراة الناس أو للأمراء، ولا يصبر على أذى بالرغم من الامان الذي تمتع به الشعب أيام حكمه و "كان به سوداء يتخيل بها الأمر فاسداً ويبني عليه، فهلك بذلك الناس، ولايقدر أحد من مهابته يوضح له الصواب ولا يقول له الحق فيما يفعله، وكان اذا غضب لا سبيل إلى الرضى ولا العفو، وإذا بطش بطش الجبارين ويكون الذنب يسيراً فلا يزال يكبره ويزيده ويوسعه إلى أن

يخرج فيه عن الحد"[1].

وكان له عند السلطان منزلة عظيمة، حتى كان يكاتبه في المراسيم: "أعز انصار المقر الكريم العالي "، وزاده في الألقاب عن العادة، وكان السلطان لا يفعل شيئاً من أمور المملكة حتى يرسل يشاور تنكز عليها.

وكان تنكز يزور السلطان في كل سنة مرّة، وصحبته الهدايا الحافلة، ويقيم بمصر أياما، ثم يخلع عليه، ويمضي إلى الشام، واستمر على ذلك، حتى وقعت العداوة بينه وبين السلطان، وعادت المحبة بغضة، وتغير خاطر السلطان عليه، ودبت بينهما عقارب الفتن، فأرسل من قبض عليه[2]. قال ابن الوردي: "والملك الناصر أضمر اهلاك تنكز عشر سنين وهو يخوله ويعظمه وينعم عليه وفي قلبه له ما فيه حتى قبض عليه وكان تنكز عظيم السطوة شديد الغضب قتل خلقا منهم عماد الدين اسماعيل بن مزروع الفوعي نائب فحليس بدمشق وعلى بن مقلد حاجب العرب والأمير حمزة رماه بالبندق ثم أهلكه سرا وغيرهم وله بدمشق والقدس وغيرهما آثار حسنة وأوقاف وقتل أكثر الكلاب بدمشق ثم حبس الباقي وحال بين اناثها وذكورها ولما استوحش من السلطان عزم على نكثه من جهة التتر وأخذ السلطان من أمواله ما يفوت الحصر زعم بعضهم أنه يقارب مال قارون وكان قبل ذلك قد تبرّم من نقيق الضفادع فأخرجها من الماء فقال بعض الناس فيه:

(١) الوافي بالوفيات ١ /٢٥٣ والغريب ان الكتبي لم يشر إلى حادثة الحريق.

(٢) محمد بن أحمد بن أياس: بدائع الزهور ١ /٤٧٩ ــ ٤٨٠.

تنكــز تنكــز بدمشـــق تيهـــا وذلــك قــد يــدل علــى الــذهاب

وقــالوا للضــفادع ألــف بشــرى بميتتـــه فقلـــت وللكـــلاب[1]

---

(١) تاريخ ابن الوردي ٢ /٣٢٩ وقد جاء في منتخبات التاريخ لدمشـق (١٩٠ ـــ ١٩١) ولمـا كانت سنة ٧١٩ عين السلطان لنيابة السلطنة بدمشق سيف الدين تنكز. وكان من المـولعين بتشييد البناء واصلاح المدن وتنظيمها واتساع طرقاتها. فوجد من دمشق مكاناً للعمل متسعاً فاقام فيها من المباني الضخمة العظيمة وزخرفها ما ابقى له الذكر. وأخصها الجامع المشـهور باسمه الموجود إلى يومنا هذا، وكذلك فعل ببيت المقدس وبنى بالمدينتين (دمشق وبيت المقدس) عدة مدارس ووقف عليها الأوقاف الكثيرة على عادة امراء ذلك الوقت وملوكه مـن قـرى ومزارع وكان يكتب على أبواب المدارس خوفاً من ضياعها منقوشاً على الحجر، وبقي نائباً بدمشق ٢٨ عاماً أولها السنة المذكورة وآخرها سنة ٧٤١هـ، وفي تلك السنة وقع بدمشـق حريق عظيم التهم طائفة عظيمة من الأبنية واتلف كثيراً من الأموال والأنفـس، وفي السـنة المذكورة جللت سحائب الوحشة سماء الصفو ما بين النائب والملك الناصر مسـوقة بريـاح النيات السيئة، وذلك ان تنكز طالت مدته وقوى نفوذه بدمشق ونواحيها، فاستوحش سلطانه من ذلك وخشي أن ينتهي به الأمر إلى خلعه ودعاء الناس لنفسه، عمل على الايقاع به وسعى بذلك إلى الجاشنكير فساءه وعزم على مخالفة التتر نكاية في سيده، ورفع شيء بمقاصـده إلى السلطان فامر عامله بصفد ان يذهب لدمشق ويحتال للقبض على تنكز، ففعل وتمت حيلتـه وقبض عليه وساقه إلى مصر، فولى السلطان عوضاً عنه الطنبغاء الحاجب الصالحي. وكان تنكز جباراً مستبداً لا يراجع في رأيه، سفاكاً للدماء واطباعه ميالة للغدر. وصدرت عنه سخافات تسود الصحائف. ووصف البدري جامع تنكز بما يلي: " هو من الغايات هندسة وبناء فيـه عشرون شباكا على خط الاستواء يشرف على الانهار ومرجة الميدان وماحولهـا. وبوسـط صحنه يمر نهر بانياس يتوضأ منه الناس وبه ناعورتان يملآن ويفرغان إلى حوضين بهما سـائر الاشجار، وجميع الرياحين والازهار. وبينهما بركة مربعة بها كأس في غاية التدوير، يجري الماء اليها من النواعير. فهو للمتنزه مقصد،وللمصلي معبد"، نزهة الانام ص٧١. ولعل خير مصدر أفاض في ذكر تنكز وسيرته واحواله واعماله وثروته إلى يوم نكبته هو كتاب ولاة دمشـق في عهد المماليك (يمكن مراجعة ص١٥٦ ـــ ١٧٩) للمزيد من اخباره تلك)، وانظر أيضاً باقة من أخبار تنكز في كتاب أعيان العصر وأعوان النصر لصلاح الدين الصفدي ج١ ص٢٨٥- ٢٩٢

٦ـ وقائع الحريق في كتب التاريخ

١- زين الدين عمر بن المظفر المعروف بابن الوردي المتوفي (٧٤٩هـ / ١٣٤٨م): (معاصر للحريق).

٢- ابن فضل العمري شهاب الدين أحمد بن يحى ت (٧٤٩هـ ١٣٤٨/م) (معاصر للحريق).

٣- ابن كثير الدمشقي اسماعيل بن عمر (٧٠١ - ٧٧٤هـ) (معاصر للحريق).

٤- الحسن بن حبيب (ت ٧٧٩هـ - ١٣٧٧م) (معاصر للحريق)

٥- تقي الدين أحمد بن علي المقريزي (ت ٨٤٥هـ - ١٤٤١م)

٦- تقي الدين ابن قاضي شهبة الأسدي الدمشقي (٧٧٩ـ٨٥١هـ/ ١٣٧٧ـ١٤٤٧م).

٧- عبد الحي بن العماد الحنبلي (المتوفي سنة ١٠٨٩هـ - ١٦٨٧ م).

٨- عبد الله بن محمد البدري الدمشقي المصري المولود سنة (٨٤٧هـ - ١٤٤٣م).

٩- شمس الدين الذهبي محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز (٦٧٣ـ ٧٤٨هـ / ١٢٧٤ - ١٣٤٨م). (معاصر للحريق).

١٠- المفضل بن أبي الفضائل (المتوفى بعد سنة ٧٥٩هـ) (معاصر للحريق).

١- زين الدين عمر بن المظفر (ابن الوردي):

قال ضمن اخبار سنة ٧٤٠هـ: " (وفيها) كان الحريق بدمشق وذهبت فيه أموال ونفوس وأحترقت المنارة الشرقية والدهشة وقيسارية القواسين وتكرر وأقرت طائفة من النصارى بدمشق بفعله فصلب تنكز منهم أحد عشر رجلا ثم وسطوا بعد أن أخذ منهم ألف ألف درهم وأسلم ناس منهم وبيعت بنت

الملين بمال كثير فاشتراها تنكز وعملت المقامة الدمشقية في هذا المعنى وسميتها صفو الحريق في وصف الرحيق وختمتها بقولي:

وعادت دمشق فوق ما كان حسنها ... وأمست عروسا في جمال مجدد
وقالت لأهل الكفر موتوا فما أنا ... الا للنبي محمد
ولا تذكروا عندي معابد دينكم ... فما قصبات السبق الا لمعبد"[1]

٢- ابن فضل الله العمري في أخبار سنة ٧٤٠هـ:

"وفيها كان الحريق الكبير في دمشق بالدهشة ثم بقيسارية القسي وذهب لأهلها اموالهم، أحرق المأذنة الشرقية وذلك من فعل النصارى أقرّ طائفة فصلب احدى عشر ثم بعد أن اخذ منهم قريب من ألأف ألف درهم وأسلم ناس"[2].

٣- شمس الدين الذهبي[3] في اخبار سنة ٧٤٠هـ:

"وفيها وقع الحريق الكبير في دمشق بالدهشة ثم بقيسارية.. وذهب لأهلها أموالهم واحترقت المأذنة[4] الشرقية وذلك من [بعض النصارى][5] أقر طائفة فصُلب أحد عشر ثم وسطوا بعد أن أخذ منهم قريب من ألف ألف درهم، أسلم ناس"[6].

---

(١) تاريخ ابن الوردي المسمى المختصر في اخبار البشر (الطبعة الأولى ٢ / ٣٢٩) والطبعة الحديثة ٤/١٣٤ بيروت ـــ دار المعرفة.

(٢) مسالك الأبصار ٢٧ / ٤١٣ ويتطابق هذا النص مع النص الذي يليه لشمس الدين الذهبي فلاحظ.

(٣) ترجمته في الاعلام ٥/٣٢٦.

(٤) في الأصل: المازبة.

(٥) في الأصل: بعد الساري.

(٦) كتاب دول الإسلام ٢ / ١٩٠.

٤ . الحافظ ابن كثير الدمشقي في أخبار سنة ٧٤٠هـ:

"ومما وقع من الحوادث العظيمة الهائلة أن جماعة من رءوس النصارى اجتمعوا في كنيستهم، وجمعوا من بينهم مالاً جزيلاً، فدفعوه إلى راهبين قدما عليها من بلاد الروم يحسنان صنعة النفط، اسم أحدهما ميلاني، والآخر عازر، فعملا كعكا من نفط، وتلطفا حتى عملاه لا يظهر تأثيره الا بعد أربع ساعت وأكثر من ذلك، فوضعا في شقوق دكاكين التجار في سوق الرجال عند الدهشة في عدة دكاكين من آخر النهار، بحيث لا يشعر أحد بهما، وهما في زي المسلمين، فما كان في أثناء الليل لم يشعر الناس إلا والنار قد عملت في تلك الدكاكين حتى تعلقت في داربزينات المئذنة الشرقية المتاخمة للسوق المذكور، واحترقت الدرابزينات[1]، وجاء نائبُ السلطنة تنكز والأمراءُ أمراءُ الألوف، وصعدوا المنارةَ وأما المئذنة فإنها تفجرت احجارها واحترقت السقالات التي بدل السلالم فهدمت، وأعيد بناؤها بحجارة جدد، وهي المنارة الشرقية التي جاء في الحديث أنه ينزل عليها عيسى ابن مريم.

والمقصود أن النصارى بعد ليالٍ عمدوا إلى ناحية الجامع مع الغرب إلى القيسارية التي يعمل فيها سلاح المسلمين من الأقواس، فألقوا فيها النفط، فاحترقت القيسارية بكمالها[2]، وبما فيها من الأقواس والعدد، فإنا لله وإنا إليه

---

(١) جمع درابزون، لفظة يونانية الأصل trapwza ويراد بها مائدة وقد استعملت للحاجز على سبيل المشابهة بقوائمها ونقلت التى التركية (طرا بزان) طوبيا العنسي: تفسير الالفاظ الدخيلة في اللغة العربية، دار العرب القاهرة ١٩٦٤ ـــ ١٩٦٥ ص ٢٦.

(٢) ربما يكون مكانها الآن السوق المعروف بأسم سوق السلاح وهو سوق صغير مسقوف بالتوتياء يمتد بين سوق القوافين وسوق بين البحرتين قرب بداية سوق البزورية (اسواق دمشق ٢١٣) قال: وقد ورد ذكره عند ابن طولون ـــ مفاكهة الخلان ١ / ١٦٤ ـــ مما يدل على وجوده في العهد المملوكي وربما =

راجعون، وتطاير شرر النار إلى ما حول القيسارية من الدور والمساكن والمدارس، واحترق جانب من المدرسة الأمينية إلى جانب المدرسة المذكورة، وما كان مقصودهم إلا وصول النار إلى معبد المسلمين، فحال الله بينهم وبين ما يرومون، وجاء نائب السلطنة والأمراء وحالوا بين الحريق والمسجد، جزاهم الله خيرا.

ولما تحقق نائب السلطنة أن هذا من فعلهم، أمر بمسك برؤوس النصارى، فأمسك منهم نحوا من ستين رجلاً، فاخذوا بالمصادرات والضرب والعقوبات وأنواع المثلات، ثم بعد ذلك صلب منهم أزيد من عشرة على الجمال، وطاف بهم في أرجاء البلاد، وجعلوا يتماوتون واحدا بعد واحد، ثم أحرقوا بالنار حتى صاروا رمادا، لعنهم الله"[1].

٥- الحسن بن حبيب في أول أخبار سنة أربعين وسبعمائه:

"فيها وقع الحريق الشريد الشريق المشتمل على الشر والشرر الساحب ذيل الأضرار والضرر، الذي أطلق في دمشق ألسنة ناره وساق إلى أسواقها بضائع شينه وشناره وأذهب الفضة والذهب ومكن من الخز والبز يد أبي لهب وفرق شمل أهل الجامع. وروع قلب الناظر والسامع وصعد إلى المأذنة الشرقية. وجلب غمام الغم بلمعانه البرقية. وظهر ان ذلك من فعل النصارى، فـ[illegible] على أكابرهم وضربوا، فأقرت طائفة منهم بذلك واعترفوا به، فصلب منهم أحد عشر نفرا، ثم وسطوا بالسيف بعد أن أخذ منهم نحو ألف ألف درهم، ودخل منهم جماعة في دين الإسلام ثم شرع ولي الأمر في عمارة ما

=قيل ذلك كما ذكره النعيمي في الدارس ١/ ١٧٨، ١٧٩، ٤٢٩. والقساطلي في الروضة الغناء في دمشق الفيحاء / ٩٨.

(١) البداية والنهاية ١٨ / حوادث سنة ٧٤٠ هـ ص٤١٤ ــ ٤١٥ والطبعة القديمة ١٤ / ١٨٦.

احترق حتى كمل بحمد من له النقض والإبرام.

وقال أهل الأدب في الحريق المذكور أشياء نظما ونثرا "[1] ثم استطرد بذكر بعض ما جاء في مقامه ابن الوردي عن الحريق.

٦- تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي المقريزي المتوفى ٨٤٥هـ:

وفي ليلة الثلاثاء سادس عشريه: وقع بدمشق في أول الليل حريق بالدهشة شرقي الجامع الأموي، فعظم الأمر حتى وصل إلى الجامع، وتعلق بالمنارة الشرقية وسقط على الجملون الرصاص. فبادر الناس جميعاً إليه، وأطفأوه بحضرة الأمير تنكز في مدة يومين بلياليها.

ثم وقع أيضاً في ليلة السبت أول ذي القعدة: حريق آخر بقيسارية القواسين والكفتيين وسوق الخيل من دمشق، وكان أمرا مهولا مدة يومين بلياليها. فعدم فيها نحو خمسة وثلاثين ألف قوس، وعدمت أموالا عظيمة، منها للتجار خاصة ما مبلغه ألفَ ألفٍ وستمائة ألف دينار، وخربت أماكن كثيرة.

فبينا الناس في ذلك إذ وجدت ورقة فيها: " المملوك الناصح " تتضمن أن أمر الحريق يظهر إذا امسك يعقوب غلام المكين كاتب الجيش، فقبض على المذكور وعوقب، فاعترف على أستاذه عدة من كتاب النصارى وأحضروا بين يدي الأمير تنكز، فأقروا جميعاً بذلك.

فأوقع تنكز الحوطة على موجودهم، وكتب عليهم محضرا ملخصه: أن الرشيد سلامة بن سليمان بن مرجا النصراني كاتب الأمير علم الدين سنجر البشمقدار أشهد عليه أنه حضر إليه منتصف شوال المكين يوسف بن مجلى

---

(١) تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه: ج٢ ص٣١٣ ــ ٣١٥ القاهرة ١٩٨٢.

كاتب الأمير بهادر آص والمكين يوسف عامل الجيش، وصحبتهما راهبان أحدهما اسمه ميلاني والآخر اسمه عازر، وقدما من القسطنطينية ليجاهدا في الملة الإسلامية ومعابدها وقد باعا نفسيهما على ذلك، وأنهما يعلمان صناعة النفط.

فاجتمعوا في بستان المكين يوسف، وأحضر لهم ما يحتاجون إليه من النفط، وعملوا كعكات، وتنكروا في لباسهم ونزلوا إلى الدهشة وتفرقوا في جوانبها، وابتاعوا منها قماشاً ودفعوا ثمنه لصاحبه، وجعلوا القماش عنده وديعة، وقد دسوا فيه تلك الكعكات، فرمى بها في دكان داخل القيسارية، فكان منها للحريق الثاني، وأن الراهبين المذكورين خرجا بعد ذلك بكتب الجماعة إلى بيروت حتى سيرهم العامل بها في مركب إلى قبرص وأرخ المحضر بعشرى ذى القعدة، وحمل إلى السلطان.

ثم سمر الجماعة في يوم السبت ثاني عشرى ذي القعدة، بعدما عوقبوا عقوبات عظيمة، وعددهم أحد عشر رجلا: وهم المكين يوسف بن مجلى عامل الجيش وأخوه، والمكين جرجس كاتب الحوطات، والمكين كاتب بهادر آص، وسمعان، وأخوه بشارة، والرشيد سلامة بن سليمان كاتب سنجر البشمقدار، والعلم عامل بيروت، والجرائحى، وجزاران نصرانيان، وشخص يعرف بسبيل الله، وكان هذا الرجل بالقاهرة سنة خمس وعشرين [وسبعمائة] بزى غريب يلبس جلدا، ويحمل على كتفه زيرا نحاسا أندلسيا، وبيده شربات كذلك، ويقول بلسان غتمى [عجمي]: " سبيل الله "، ويسقى الناس بغير جعل، فمن الناس من اعتقده، ومنهم من أتهم أنه جاسوس، ثم خرج هذا الرجل حاجا، وقدم دمشق وأقام بها يسقى الماء، حتى دخل مع النصارى فيما قاموا

فيه من أمر الحريق ولما سمروا وسطوا بعد يومين، ووجد لهم ما ينيف على ألف درهم، أنفق منها في عمارة منارة الجامع والدهشة"[1].

٧- تقي الدين أبي بكر أبن قاضي شهبة الأسدي الدمشقي ضمن حوادث سنة ٧٤٠هـ:

"لما كان ليلة الثلاثاء السادس والعشرين من شوال وقع حريق عظيم بالدهشة / شرقي الجامع واتسع حتى أحرق سوق الطوائقيين والوراقين واللبادين من جر الكتب [كذا] إلى باب الجامع، وأثرت النار في حائط المأذنة الشرقية وعلقت في درابزين المأذنة فاحترق، وتساقطت النار على جملون الجامع الرصاص، فتداركه الناس فأطفؤوه، واجتمع الناس لهذا الأمر العظيم من كل قطر في البلد، وحضر النائب وبعض القضاة والأمراء، وارتفع الصراخ والضجيج والإبتهال إلى الله تعالى خشية على الجامع، فسلمه الله تعالى، وخرب ما حوله إلى دار الحديث إلى سوق النحاسين.

ووقع في نفوس كثير من الناس أن الحريق المذكور من النصارى بسبب ما حرق من كنيستهم اللعوم [كذا].

ولما كان مستهل القعدة ليلة السبت وقع حريق آخر بقيسارية القواسين وسوق السيوف والرماحين. وكان أمراً فظيعاً، وحضر النائب وبعض القضاة والنياب، وباشر النائب طفي النار بنفسه. وعدم للناس ما يقارب خمسة وثلاثين ألف قوس.

وقويت الظنون أن هذا كله من النصارى، وأوقع الله ذلك في قلب النائب، فأمر بالاحتياط على رؤساء النصارى وتسليمهم إلى متولي البلد، فأمر بضربهم

---

(١) السلوك لمعرفة دول الملوك ٣ / ٢٨٢ ـــ ٢٨٣.

ومصادرتهم بالأموال ليعمر من أوقاف الجامع ما خرب، وعوقبوا فاعترفوا بأنهم تعاونوا على هذا الإثم والعدوان، فكتب عليهم محضر بما اعتمدوه، وحاصله: أنه قدم عليهم راهبان من بلاد القسطنطينية ليعملا من النفط ما يحرقون به أرجاء البلد المتاخمة للجامع اقتصاصاً لما فعل بهم. فاجتمعا ببستان بعض الكتبة النصارى بأرض جوبر فصنعا سبع كعكات نفطاً إذا أعطيت الواحدة منهم النار تبقى حتى يظهر فعلها أربع ساعات أو أكثر، ثم نكروهما وألبسوهما ثياب الأتراك، وذهبا إلى الدهشة تلك الليلة قرب الغروب، فاحتالا حتى وضعا كعكتين في دكانين من شرقي المكان وغربيه، ثم كرا راجعين إلى البستان المذكور وأخبرا أصحابهما بما فعلا، فكان في تلك الليلة ما كان، ثم بعثوا الراهبين متنكرين إلى بيروت ليرجعا إلى البحر، وبعثوا معهما كتاباً مخلقاً [كذا] وبعثوا معهما بشيء مما تساقط من المأذنة الشرقية ليستبشر بذلك أهل قبرص والقسطنطينية. ثم شرع النصارى المقيمون في إعطاء ما بقي من الكعك لمن يضعها في البلد، وكل من ألقى واحدة أعطوه شيئاً معلوماً، فوقع في مواضع كثيرة من أرجاء البلد. وكان الذي وضع النفط في قيسارية الأقواسين رجل لحام بالقرب من القيسارية أعطوه خمسمئة درهم. ثم احتاط الناس وتحرزوا من النصارى وأرصد الحرس في الأسطحة، وانزعج أهل دمشق انزعاجاً شديداً. ورتب للجامع في كل ليلة من الجيش أميران يحرسانه إلى الصباح، ونودي في البلد ألا يبيت أحد إلا وفوق الأسطحة عنده شيء من الماء. وصودر النصارى مصادرة بليغة وأفتى فقهاء المذاهب الأربعة بانتقاض عهد من مالأ على هذه الكائنة منهم ثم برز مرسوم النائب بتسمير النصارى الذين هم تحت العقوبة، فسمروا وهم أحد عشر نفراً من أعيان النصارى الكتبة.

وأخيراً أن النصارى قد سموا للمسلمين السكاكين الذي [كذا] يقطعون بها اللحم، ورمي السم في خوابي السبيل، ولما صلبوا في خان الظاهر طيف بهم حول البلد ثم طيف بهم في اليوم الثاني في الصالحية وقاسوا من ذلك مشقة عظيمة، ثم أنزلوا ووسطوا عن آخرهم. ثم أخذ آخرين [كذا] من النصارى وطولبوا بمال جزيل، فاستخلص منهم جملة كثيرة، وظهرت دفائن كانت للمتنصّرين: ذهب، وجوهر ما زاد على ألف ألف درهم وأكثر، وصرف من ذلك إلى الجامع في عمارة الدهشة وإلى وقف الأمينية في عمارة ربعها.

قال ابن حبيب في وصفه:

سألتُ ما قصد الذي في جلق ... أضرم ناراً أوقعته في العطب

قالوا: أراد النصر في إيقادها ... قلتُ لهم: تبتْ يدا أبي لهبْ

ولأبن الوردي مقامة في هذا الحريق، وللصفدي فيه أيضاً مقامة. قال بعضهم: كان ارتفاع أجرة الذي احترق من الدور والحوانيت من وقف الجامع الأموي تسعة وتسعين ألف وكسر في كل سنة، والذي أحصي من أموال التجار وأمتعتهم ألف ألأف وستمئة ألف دينار"[1].

٨ - عبد الحي بن العماد الحنبلي المتوفى سنة ١٠٨٩:

(سنة اربعين وسبعمائة) ... وفيها في ليلة السادس والعشرين من شوال وقع حريق كبير شمل اللبادين القبلية وما تحتها وما فوقها إلى عند سوق الكتب واحترق سوق الوراقين وسوق الذهب وحاصل الجامع وما حوله

---

(١) تاريخ ابن قاضي شهبه، المجلد الثاني، الجزء الأول من المخطوط ص ١١٥ - ١١٧، هذا النص ذكره المحقق نقلاً عن عن كتاب مخطوط لأبن قاضي شهبه تحت عنوان (الأعلام بتاريخ الإسلام).

والمأذنة الشرقية وعدم للناس فيه من الأموال والمتاع ما لا يُحصر قاله في العبر والله اعلم[1].

٩ . عبد الله بن محمد البدري الدمشقي المصري (المولود ٨٤٧هـ):

نقل في كتابه نزهة الأنام: وقال بعض المؤرخين ان الشرقيّة احترقت في سنة اربعين وسبعمائة فنقضت وجُدّدت من أموال النصارى لكونهم اتهموا بحرقها واقرّ بعضهم بذلك فقامت على احسن الاشكال وقال بعض العلماء في المنارة الشرقية البيضاء [انها هي] التي ينزل عليها عيسى بن مريم عليه السلام في اخر الزمان بعد خروج الدجّال كما ثبت في صحيح مسلم عن النواس بن سمعان والله أعلم[2].

١٠- المفضل بن أبي الفضائل (توفي بعد سنة ٧٥٩هـ):

وهو مؤرخ نصراني له تاريخ اسمه "النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد" منه نسخة مخطوطة في باريس، الجزء الأول رقم ٤٥٢٥ انتهى من جمعه سنة ٧٥٩هـ. روى في النسخة المذكورة، الورقة ٢٤٥ ب أحداث الحريق بالضبط كما تقدمت لدى المؤرخ المقريزي، وبحسب صلاح الدين المنجد فإن المقريزي "أغار على كتاب المفضل كما أغار على كتب الأوحدي[3]".



(١) شذرات الذهب في أخبار من ذهب ٦/ ١٢٦ دار المسيرة ـ بيروت ١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩ م ط ثانية.

(٢) نزهة الانام ص٤١.

(٣) صلاح الدين المنجد: حريق الجامع الأموي بدمشق، مجلة المجمع العلمي العربي (دمشق) ج١ المجلد ٣١ ص٤١ الهامش (١).

الفصل الثالث

وثائق المعالجة القانونية لقضية

(حريق دمشق)

«نقلاً عن مخطوطة مكتبة جامعة ليدن (هولندا)»

١- الفتاوى الصادرة حول القضية.

(صورة الفتيا - جواب قاضي القضاة تقي الدين السبكي - جواب الحنفية - جواب المالكية: محمد بن أبي بكر المالكي - جواب الحنابلة: علي بن المنجا الحنبلي).

٢- الشروط المملوكية السلطانية على أهل الذمة.

(نسخة المرسوم الشريف الوارد من الأبواب العالية المولوية السلطانية).

٣- المحضر الرسمي القانوني لمحاكمة المسيحيين المتهمين بالحريق.





١ـ الفتاوى الصادرة حول القضية(١)

[ب ـــ ٢٨]

والله الموفق

صورة الفتيا

ما قول أئمة المسلمين فيما اعتمده النصارى بدمشق المحروسة، وحريق أوقاف الجامع الأموي عمره الله تعالى بذكره، وحريق المأذنة الشرقية، وأوقاف المدرسة الامينية(٢)، وما بها من سلاح المسلمين، وغيره ذلك من الأموال، هل ينتقض بذلك عهدهم، وهل يلزمهم ضمان ما تلف بالحريق ويؤخذ ذلك من أموالهم، وإذا انتقض عهدهم فما الحكم فيهم، هل يُقتلون أو يُنفون إلى بلاد

---

(١) ندرج في هذا الملحق كل ما ورد في الأصل المحفوظ في صورة الفتوى إلى جوابات الأئمة وفي الأصل ذكر لإمام الشافعية (السبكي) وإمام الحنابلة (ابن المنجا) بينما لم يرد ذكر إمام الحنفية وإمام المالكية وكان (ابن بطوطة) الذي زار الجامع الأموي قبيل حرْقه بأربعة عشر سنة فقط أي سنة ٧٢٦هـــ قد عدد أئمة الجامع وذكر ثلاثة عشر إماماً أولهم إمام الشافعية وكان على عهده جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني ثم إمام المالكية أبو عمر بن أبي الوليد بن الحاج التجيبي القرطبي الغرناطي وكان يتناوب مع أخيه في الإمامة ثم إمام الحنفية عماد الدين الحنفي المعروف بابن الرومي ثم إمام الحنابلة عبد الله الكفيف، وأشار إلى أن بعد هؤلاء خمسة أئمة عماد الدين الحنفي المعروف بابن الرومي ثم إمام الحنابلة عبد الله الكفيف، وأشار إلى أن بعد هؤلاء خمسة أئمة لقضاء الفوائت. (رحلة ابن بطوطة، طبعة الدكتور التازي ج١ ص٣١٢ـــ٣١٣).

(٢) تقع خلف الجامع الأموي بناها أمين الدولة كمشتكين بن عبد الله الطغتكي الاتابكي المتوفى ٥٤١ هـــ (الاعلاق الخطيرة ـــ قسم تاريخ مدينة دمشق (١٢١ ـــ ٢٣١) وجاء في (الدارس في اخبار المدارس) ١ / ١٧٧ انها تقع " قبلي باب الزيادة من أبواب الجامع الأموي المسمى قديماً باب الساعات. وممن تولى التدريس بها علاء الدين ابن الزملكاني وخلفه شمس الدين أحمد بن خلكان المتوفى ٦٨١ هـــ.

النصارى إذا كان متموليهم وكبارهم ورؤساؤهم شارطوا على حريق الجامع المذكور، وحريق دمشق المحروسة بمال معلوم واعترفوا بذلك فهل يجب على هؤلاء المتمولين المتناجزين الضمان أم لا؟ وهل يُنتقض عهدهم أم لا؟، واذا اسلم أحدهم فهل يصحّ اسلامه أم لا؟ واذا صحّ اسلامه فهل يصح اسلامه خاصة او دمه وماله؟ وهل يُنجيه اسلامه من الضمان بسبب الحريق أم لا؟ واذا كان لهم كبير وهو غائب عن البلد وهم يعتقدونه ولا يرون مخالفته وأمرهم بما فعلوه فهل ينتقض عهده ايضاً أم لا؟ افتونا مأجورين.

جواب قاضي القضاة تقي الدين السُبكي[1]

يُنْتَقَضُ عهدهم وتُؤخذ أموالهم، ولوليّ الأمر أعزه الله تعالى صرفها في عوض ما تلف بالحريق المذكور منهم من وقف وعقار وقماش وغير ذلك من الأموال وثياب أعزه الله تعالى، والله أعلم.

كتبه علي السبكي

جواب الحنفية

نعم يلزمهم ضمان ما أتلفوه من الأموال والعقار والسلاح وغير ذلك، واذا كانوا قد سَعوا في الأرض بالفساد فللأمام أن يقتلهم سياسة وله اجلائهم عن

(١) تقي الدين السُّبكي (٦٨٣ ــ ٧٥٦ هـ ــ ١٢٨٤ ــ ١٣٥٥ م) علي بن عبد الكافي بن علي السُبكي الانصاري الخزرجي. أبو الحسن، تقي الدين، شيخ الإسلام في عصره، وأحد الحفاظ المفسرين المناظرين وهو والد التاج السبكي صاحب الطبقات.

ولد في سبك (من اعمال المنوفية بمصر) وانتقل إلى القاهرة ثم إلى الشام وولي قضاء الشام سنة ٧٣٩هـ، واعتلّ فعاد إلى القاهرة فتوفي فيها. له كتب كثيرة استوفى ذكرها ولده تاج الدين ضمن ترجمته في كتاب طبقات الشافعية ٦/١٤٦ ــ ٢٢٦ ومنها السيف المسلول على من سبَّ الرسول، ومجموعة فتاوى، وشفاء السقام في زيارة خير الأنام وغيرها، راجع الاعلام ٤ / ٣٠٢. ولم ترد هذه الفتيا في فتاوى السبكي المطبوعة.

اماكنهم إلى موضع يراه الامام من دار الإسلام، ويكن ذلك مانعاً من فسادهم، واسلام من أسلم منهم لا يكون موجباً لسقوط ما وجب عليه [أ - ٢٩] من حقوق العباد من مال أو قتل، والله أعلم[١].

جواب المالكية

الجواب وبالله التوفيق

الحريق المذكور موجب لنقض العهد ممن صدر منه، ونقض العهد مُوجبٌ للقتل ومعلوم ما اشتمل عليه الفعل المذكور من المفاسد من خراب المأذنة والأوقاف واتلاف السلاح المستعد للتقوي على العدو المخذول، وما قصد من اتلاف المسلمين واموالهم وخراب مدينتهم وأماكنهم وما في اظهار ذلك من القوة والجرأة على هذه الدولة القاهرة، خلد الله ملك مالكها، وأدام اقتداره، وأعز انصاره، وأهلك عدوه، ثم ذلك موجب لتضمين ما أتلفوه، وأخذ ذلك من أموالهم، ويمنعون من الرجوع إلى بلادهم ومساكنهم ورؤسائهم وكبارهم ومن استأجروهم ومن تواطأ معهم في الغرم ونقض العهد، ولا يكون اسلام من أسلم منهم موجباً لسقوط الضمان، ولا ما نعاً من اخذ أموالهم، وانما يكون موجباً لحقن ذممهم اذا تبين صحة اسلامهم، وينتقض عهد من أمرهم بذلك ممن له عهد، ويصير حربياً، والله أعلم.

كتبه: محمد بن أبي بكر المالكي[٢].

---

(١) في السطر الثاني من ص (أ - ٢٩) تكرر ذكر جواب الحنفية بكامله في الأصل المخطوط. وعلق المنجِّد على هذا النص بما يلي: " ليس في الأصل اسم قاضي قضاة الحنفية. وقد كان يومئذ عماد الدين الطرسوسي الحنفي، وهو علي بن أحمد، توفي سنة ٧٤٨ - قضاة دمشق لابن طولون، مخطوط، ورقة ١٣٨". مجلة المجمع العلمي العربي ٣١: ١ ص٤٦ الهامش ٣.

(٢) هو قاضي قضاة المالكية بدمشق، المتوفى سنة ٧٤٨هـ. ذكره ابن كثير: البداية والنهاية ٢٢١/١٤.

جواب الحنابلة[1]

نعم يُنتقض عهدهم بذلك، ويتعين قتلهم ويلزمهم ضمان ما أتلفوه بذلك من الأوقاف والأموال وغيرها، ولا يكون اسلامهم مانعاً من ذلك [ب - ٢٩]

(١) يظهر ان هناك فتاوى اخرى لعلماء ذلك العصر لم ترد في هذه المخطوطة التي يبدو انها تضمنت اشهر الفتاوى الصادرة في تلك الحادثة، فبالرجوع إلى كتاب أحكام أهل الذمة لأبن قيم الجوزية (٦٩١ - ٧٥١ هـ) أحد مشايخ الحنابلة الذين عاصروا حريق دمشق نجده يتحدث عن فتوى بهذه المناسبة وذلك في معرض شرحه للشروط العمرية (ص١٢٣٤ - ١٢٣٥) عند قولهم " أي النصارى " "ولا نكتم غشّاً للمسلمين "
قال ابن قيم: " هذا أعم من إيواء الجاسوس: فمتى علموا أمراً فيه غش للإسلام والمسلمين وكتموه انتقض عهدهم. وبذلك أفتينا ولي الأمر بانتقاض عهد النصارى لما سعوا في إحراق الجامع والمنارة وسوق السلاح، ففعل بعضهم، وعلم بعضهم وكتم ذلك و لم يُطْلع عليه ولي الأمر. وبهذا مضت سنّة رسول الله صلى الله عليه وسلم في ناقضي العهد، فإن بني قينقاع وبني النضير وقريظة لما حاربوه ونقضوا عهده عمَّ الجميع بحكم الناقضين للعهد وإن كان النقض قد وقع من بعضهم، ورضي الباقون وكتموه رسول الله صلى الله عليه وسلم، و لم يطلعوه عليه، وكذلك فعل بأهل مكة لما نقض بعضهم عهده وكتم الباقون وسكتوا و لم يطلعوه على ذلك أجرى الجميع على حكم النقض وغزاهم في عقر دارهم.
وهذا هو الصواب الذي لا يجوز غيره، وبالله التوفيق. "
ولا يخفي ابن قيم حنقه وضيقه من تنفذ أهل الذمة في زمانه فيقول: " وأما اليوم فقد وقفنا إلى زمان يصدرون في المجالس، ويقام لهم، وتقبل ايديهم، ويتحكمون في أرزاق الجند والأموال السلطانية، ويُكنّون بابي العلاء وأبي الفضل وأبي الطيب، ويسمّون حسناً وحسيناً وعثمان وعلياً، وقد كانت أسماؤهم من قبل يوحنا ومتّى وحُنيناً وجرجس وبطرس ومار جرجس ومارقس ونحو ذلك، وأسماء اليهود عزرا وأشعيا ويوشع وحزقيل وإسرائيل وسُعيج وحييّ ومشكم ومرقس وسموأل ونحو ذلك، ولكل زمان دولة ورجال. " ص ١٣٢٣. راجع أيضا زاد المعاد لأبن القيم ١٣٧/٣.
وجاء في كتابه (زاد المعاد في هدى خير العباد) تحقيق: عبد القادر العشا حسونة، دار الفكر — بيروت ١٤١٥ هـ — ١٩٩٥ ج٣ ص١٢٤ — ١٢٥ في حديثه فيمن نقض العهد مع رسول الله * قال: وبهذا (أي بنقض العهد) افتينا وليّ الأمر لما أحرقت النصارى أموال المسلمين بالشام ودورهم، ورامُوا إحراقَ جامعهم الأعظم حتى أحرقوا منارته، وكاد، لولا دفعُ الله أن يحترقَ كُله، وعلم بذلك من علم من النصارى، وواطؤوا عليه وواروه، ورضوا به، و لم يُعلمُوا وليّ الأمر، فاستفتى فيهم وليّ الأمرِ من حضره من الفقهاء.=

وما بعد ذلك، من أموالهم يكون فيئاً للمسلمين، ومن واطأ على شئ مما ذكر أو أعان عليهم بوجه من الوجوه أو عَلَم به ولم يُعْلِمْ به المسلمين انتقض عهده أيضاً والله أعلم.

كتبه: علي بن المنجا الحنبلي[1]

=فأفتيناه بانتقاض عهد من فعل ذلك. وأعان عليه بوجه من الوجوه، أو رضي به، وأقر عليه، وأن حدّه القتلُ حتماً، لا تخيير للإمام فيه، كالأسير، بل صار القتل له حداً، والإسلام لا يسقط القتل إذا كان حداً ممن هو تحت الذمة، ملتزماً لأحكام الله بخلاف الحربي إذا أسلم، فإن الإسلام يعصم دمه وماله، ولايُقتلُ بما فعله قبل الإسلام، فهذا له حُكم، والذمي الناقض للعهد إذا أسلم له حكم آخر، وهذا الذي ذكرناه هو الذي تقتضيه نصوصُ الإمام أحمد وأصوله ونص عليه. شيخُ الإسلام ابن تيمية. قدس الله روحه، وأفتى به في غير موضع

(١) " علي بن منجا بن عثمان بن أسد بن المنجا التنوخي علاء الدين ابن زين الدين ولد ليلة نصف شعبان سنة ٦٧٧ وفي طبقات ابن رجب سنة ثلاث سمع من الفخر وأحمد بن شيبان وغيرهما واشتغل على مذهب الحنابلة إلى أن ولى قضاء الحنابلة في رجب سنة ٧٣٢، في الدرر الكامنه: مات في ثامن شعبان سنة خمسين وسبعمائة، قرأت تاريخ وفاته ومولده بخط التقى السبكى قال ابن رجب قرأت عليه الأحاديث التي رواها مسلم عن أحمد بسماعه عن محمد بن عبد السلام بن أبي عصرون عن المؤيد قراءتين بخط البدر النابلسي، كان عفيفا ديناً زاهداً طيب المطعم والمشرب لا يأكل لأحد شيئا ولا يشرب ولو كان صديقه ورفيقه ودرج على ذلك." الدرر الكامنة ٣ / ٢٠٩ رقم ٢٩٢٦.

٢ـ الشروط المملوكية السلطانية على أهل الذمة

بسم الله الرحمن الرحيم

نسخة المرسوم الشريف الوارد من الأبواب العالية المولوية السلطانية خلد الله ملك سلطانها

في معنى أهل الذمة من النصارى، واليهود، والسامرة[1]، والشروط التي شُرطت عليهم والمرسوم الذي رُسم به يكتب ثلاث نُسخْ بخطوط العدول الشهود ليكون عند كل طائفة منهم نسخة يُقرّوها ويعملوا بما فيها ويدخلوا تحت ما رسم به فيها، وان يشهد عليهم بأنَّ عندهم نسخة المرسوم الشريف، وأنهم دخلوا تحت ذلك ومتى خرجوا عنه يحلُّ دماؤهم وأموالهم للملّة الإسلامية.

نُوَضّح لعلمهم الكريم أن المجلس العالي متحقق ما أهل الذمة من اليهود والنصارى والسامرة عليه من التّشبهِ من الزِّي بالأمة المؤمنة، وعدم الوقوف عندما ضرب عليهم من الذلة والمسكنة ومجاوزة أحكام الذمة المشروط عليهم، ومباينة عقود العهد الذي انما نقرّهم الآن على ما سلف من اقراره بأيديهم، ونحن اولى باحياء السيرة العمرية في أحكامها وأحق بالعمل بشروطها لمن لم يصن دمه إلاّ بالدخول في ذمها والتمسك بذمامها، وقد

(١) السامرة: فرقة يهودية قليلة العدد استقلت بكيالها الديني ولا يعترف بها بقية اليهود وقد انشأوا لهم هيكلاً خاصاً بهم على جبل جريم عند نابلس واعتبروه بمثابة جبل الطور وكانت قد انعزلت عن المجتمع اليهودي كلياً بعد رجوع اليهود من السبي البابلي فحرمت التزاوج مع اليهود والاختلاط بهم ويدعون ان اصلهم يرجع إلى يعقوب (اسرائيل). وتقوم عقيدتهم على خمسة أركان " التوحيد ــ نبوة موسى ــ قداسة جبل جرزتم ــ الايمان بالاسفار الخمسة من التوراة بانها منزلة من الله ــ الايمان بيوم القيامة والبعث.

برزت مراسيمنا الشَّريفة إلى جميع مملكتنا المحروسة بالديار المصرية وأعمالها، والبلاد الشَّامية وثغورها بأن يعتمد في جميع أهل الذمة أحكام الشريعة المطَّهرة فيما يلزمهم من الشروط التي ترتبت عليها عقود الذمة لهم في اقتدائهم بالشروط العمرية فيهم وتقريراً لأحكامها وتعظيماً وتحديدا بما تقدم من أيامها، وتعظيماً لدين الإسلام والزاماً لأهل الذمة بما كتبه الله عليهم من الذمة والصغار ودفعاً لهم عما كانوا يتطرّقون اليه من مباشرة المسلمين أحقُّ به، ﴿ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾[1] فمن ذلك لا يتشبَّهون بالمسلمين في شئ من لباسهم وليلبس النصارى العمامة الزرقا غير الشعرى ويكون عشرة أذرع فما دونها، ويلبس اليهود كذلك ويكون عمامة صفراء، ويكون عشرة أذرع فما دونها، ويلبس السامري عمامة حمراء كذلك، ويمنع نساؤهم من التشبه بالنساء المسلمات في زيّهم[2]، فالمرأة البارزة من النصارى تلبس ازاراً من الكتان المصبوغ بالأزرق،

(١) البقرة: الآية ٢٢١، وفي الأصل (ولعبد سوء!)

(٢) يبدو ان التدابير المتخذة بشأن عمائم (اهل الذمة) كانت تصدر عن سياسة زمنية مؤقتة وتفاوت فرضها بحسب الدول الإسلامية الحاكمة، ولم يرد لمثل هذه التدابير أي نصّ بشأنها في القرآن الكريم.

ومن المعروف أن عمر بن الخطاب — على ما قيل — فرض على نصارى الثغور المتاخمة للعدو البيزنطي " أن يتميزوا عن المسلمين" وخصوصاً عن العسكر.

وأن أبا يوسف أوصى ببغداد وبين العام ١٧٠ و ١٨٢ هـ / ٧٨٦ و ٧٩٨ م وفي خلافة الرشيد ووزارة البرامكة بأن " لا يترك أحد منهم يتشبّه بالمسلمين في لباسه ولا مركبه ولا في هيئته ويُؤخذوا بأن يجعلوا في اوساطهم الزنّارات مثل الخيط الغليظ".

"يعقده في وسطه كل واحد منهم، وبأن تكون قلانسهم مضرَّبة،وأن يتخذوا على سروجهم في موضع القرابيس مثل الرمانة من خشب، وبأن يجعلوا شراك نعالهم مثنية" موريس فييه: احوال النصارى في خلافة بني العباس: ٨٧ بيروت دار المشرق ١٩٩٠ " وفيه ص ١٠٠ يرى دي خويه، في الصفحة ١٤٩ من كتابه Memoire sur la conqu`ete de la syrie أن عمر بن= =

واليهودية تلبس إزاراً مصبوغاً بالصفرة، ولا يدخل أحد من الرجال والنساء

=عبد العزيز قد اصدر فعلاً أوامر مشابهة لتلك التي يوصي أبو يوسف هارون الرشيد بالابقاء عليها ولكنه يضيف — ويبدو ان الخليفة لم يُصغِ اليه". (راجع كذلك المنتظم لابن الجوزي ٤٧١/٦ أحداث سنة ٢٣٩هـ و ٤٧٥/٦ أحداث سنة ٢٤٠ هـ وج٧٥/٩ هـ احداث سنة ٣٩٢، و ج٩ /٢٨٨ احداث سنة ٤٢٩ هـ ونفس الجزء الصفحات ٤٠٣، ٥٨٨، ٦١٢، ٦٣٥ والجزء العاشر من الكتاب نفسه ص ٣١١ وص٤٩٣ وص٥٤٦ — ٥٤٧ دار الفكر / بيروت سنة ١٩٩٥.

ويؤكد ما ير على ان لبس العمائم الملونة بحسب — ما موجود في النص — أي الزرقاء للنصارى والصفراء لليهود.. الخ كانت بناءً على ما يسمى بالشروط العمرية " راجع ماير: الملابس المملوكية ص ١١٥ — ١١٦ ترجمة صالح الشيتي، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٢".

وجاء في الخزانة الشرقية لحبيب زيات (٣: ٧٦ بيروت ١٩٤٦):

وامتاز السامريون منذ اوائل دولة الملك الناصر محمد بن قلاوون، عن سائر اليهود بمصر والشام، باتخاذ العمائم الحمر، بينما كان الربانيون والقرآؤون يعتمّون بالصفرة، وقد نقل ذلك غير واحد من المؤرخين. نجتزى بقول ابن قاضي شهبة منهم في ترجمة الملك الناصر:

" في سنة سبعمائة (١٣٠٠م) ألزموا أهل الذمة بالصغار. وعرلوا عن الجهات. وألزم اليهود بالعمائم الصفر والسمرة بالحمر. والنصارى بالزرق. فتميزوا عن المسلمين وحصل بذلك خير عظيم." (باريس ١٦٠٠، ص ٢٠).

وقد اضحك الشعراء وقتئذ اجتماع هذه الالوان الثلاثة في رؤوس اهل الذمة، فافحشوا في تعييرهم والهزء بهم. وقال أحدهم الشيخ شمس الدين الطيبي:

تعجبوا للنصارى واليهود معا	والسامرين لما عُمّموا الخرقا
كأنما بات بالاصباغ منسهلاً	نسر السماء فاضحى فوقهم ذرقا

(الخامس من المنهل الصافي لابن تغري بردي. باريس ٢٠٧٢ ص ٢٠٠)

انتهى ما ذكرناه عن حبيب زيات، والواقع أن التقاليد الدينية اليهودية هي التي كرّست اختلاف الملابس ويتجلّى هذا في كتاب تثنية التوراة للحاخام الفيلسوف موسى بن ميمون (١١٣٥ - ١٢٠٤ م) حتى جاء بهذا العمل الديني " اننا لا نتبع شرائع غير اليهود ولا نتشبّه بهم في ملبسهم أو في شعرهم وما شابه، ويجب ان يكون الاسرائيلي مختلفاً ومميزاً عن الآخرين في ملبسه وفي سائر أعماله، مثلما هو مختلف عنهم في علمه وآرائه " (صموئيل اتينجر: اليهود في البلاد الإسلامية ص ٦٦، الكويت ١٩٩٥)

الحمَّام إلاّ بعلامة تميّزه عن المسلم والمسلمة [أ - ٣١] ولا يستخدموا في الحمَّام مسلماً، وتلبسُ المرأة البارزة خُفَّين[1] أحدهما أسود والآخر أبيض، ويشدّوا الزنانير[2] غير الحرير في أوساطهم، ويجزُّوا مقادم رؤوسهم بحيث لا يتشبهوا بالمسلمين في عمامة ولا نعل ولا في فرق شعر، ومن ذلك ان لا يتسموا بأسمائهم ولا يتكنّوا بكنايتهم ولا يركبوا الخيل ولا البغال ويركبوا الحمير بالأكف عرضاً من غير تزيّن فيها ولا يتخذون شيئاً من السلاح، ولا يبيعوا الخمر، ولا يخدموا الملوك ولا الأمراء فيما يجري أمرهم على المسلمين من كتابة أو أمانة أو وكالة ولا ما فيه تآمراً على المسلمين، ولا يجعل لهم كلمة يشتغلون بها عن المسلم ولا يستخدموا المسلمين في أعمالهم الشّاقّة، ولا يجاوروا المسلمين بموتاهم، ولايعلّوا على المسلمين في البُنيان ولا يُساوونهم، ولا يتحيّلوا على ذلك بحيلة، ولا يرفعوا اصواتهم في كنائسهم ولا مع موتاهم، ولا يشترون من الرقيق مسلماً ولا ما جرت عليه سهام المسلمين، ولا من سباه مسلم، ولا يُوكلوا فيه ولا يتحيّلوا من ذلك أن لا

(١) (الخف ما لُبس في القدم) المخصص لأبن سيده ٤ / ١١٤ وهي خالية من الكعوب)، وواضح ان اختلاف اللونين في الخفين لأجل تمييزهما على انهما لنساء اهل الذمة، وشاع امر التمييز بين الخفين في خلافة المقتدر بالله العباس كما أمر بأن تجعل النساء في اعناقهن اطواقاً من حديدٍ اذا دخلوا الحمامات " نزهة المشتاق ص ١٢١ ".

(٢) الزنار من أزياء أهل الذمة (وكان على المرأة الذمية ان تشدّ زناراً فوق الازار وتحتـه، ويكـون في عنقها خاتم يدخل معها الحمام، المنتظم لأبن الجوزي ٩ / ٥٥. وكانت الجواري تستخدمنه أيضـاً وربما يكتبن الاشعار على تلك الزنانير وفي كتاب الموشى للوشاء ٢ / ١٧٣ فصل بعنوان " ما وجد من الشعر على الزنانير والتكك ".

يحدثوا في مدائن المسلمين وأعمالها ديراً ولا كنيسة ولاقلية[1] ولا صومعة راهب ولا يجدد ما خرب من كنائسهم التي ثبت عقدهم عليها ولا يمنعوا كنائسهم ان ينْزل أحد من المسلمين ثلاث ليال يُطعمونهم، ولا يأووا جاسوساً ولا منْ فيه ريبة لأهل الإسلام، ولا يغشُّوا المسلمين ولا يعلموا أولادهم القرآن ولا يُظهروا شرْكاً، ولا يمنعوا ذوي قرابتهم من الدخول في الإسلام ان أرادوه، وأن أسلم أحد منهم فلا يُؤذوه ولا يساكنوه، وان يوقّروا المسلمين ويقوموا لهم عن مجالسهم إن أرادوا الجلوس بها، ويتجنبوا أوساط الطرق وأن لا يُهوِّدوا ولا ينصروا ولا يثنوا مسلماً عن دينه، ولا يضربوا ناقوساً[2]، ولا

(١) القلية أو القلاية كلمة معربة عن اليونانيةKelliyon، وهي كالصومعة يتعبد فيهـا الرهبـان، انتقلت إلى السريانية فصارت قليتا، وقيل ان أصلها من كلمة كلاذه وهـي بيـوت عبـادة النصارى، قال الشاعر:

منادمـــاً في قلاليـــه رهابنـــة راحت خلائقهـم اصـفى مـن الـراح

الطريحي: الديارات النصرانية ١٥٦ - ١٥٧ بيروت ١٩٨٠. وجاء في اللؤلؤ المنثـور: ٥٠١ (قلاية cellula) لاتينية اصلها مترل الراهب اي كرحه ويراد بها ايضـا مسـكن البطريـرك والاسقف والجمع: قلالي، وقلايات.

(٢) الناقوس: مضراب المسيحيين كانوا يدقون به لاوقات صلواتهم ولم يصرح اصحاب المعجمات بسريانية (اللفظة) وقديماً كان الناقوس عبارة عن قطعة من الخشب الصلب أو الحديد تعلـق بمطرقة خشب أو حديد وقد استبدل حديثاً بالجرس النحاسي (اللؤلؤ المنثور: ٥٠٣) وورد في الأخبار أن الأمام علي بن أبي طالب عليه السلام قد مرَّ في ظاهر الحيرة فسمع الناقوس يضرب " فلم يستنكره " بل أنه أنشد مع نغمات الناقوس الأبيات التالية:

مهـلاً مهـلاً يـا ابـن الـدنيا مهـــلاً مهـــلاً ان الـــدنيا

قـــد غرتنـــا واســـتهوتنا لســـنا نـــدري مـــا فرطنـــا

فيهـــا إلا أن قـــد متنـــا مـــا مـــن يـــوم يمضـــي عنـــا

الا امضـــى منّـــا ركنـــا

.. الخ الأبيات. انظر كتاب دستور معالم الحكم للقاضي القضاعي (ت٤٥٤) ص ١٣٣ مصر ١٣٣٢. معاني الأخبار للقمي ١٣٠ ــ ١٣١. ارشاد القلـوب ٢ / ١٧١ ــ ١٧٢، وفي=

يدلّوا على عورات المسلمين ولايحبوا شيئاً من موات المسلمين ولا غير موات، ومن زنا منهم بمسلمة قتل، ومتى خالفوا شيئاً من ذلك فلا ذمّة لهم، وقد حصل لهم ما يحصل من أهل المعاندة والشقاق، ولما برزت مراسمينا الشريفة بذلك رسمنا باحضار بطارقة[1] النصارى على اختلاف مذاهبهم، ورئيس اليهود وخرابينهم إلى بين يدي الحاكم والأئمة العلماء وقرأت عليه هذه الشروط، والتزموا [ب - ٣١] بها وخرجوا على حكم ما يعتقدونه من خرج من طوائفهم عنها وأشهد عليهم والتزموا به أهل الذمة كافة واستقر حكم ذلك على حكم الشريعة المطهرة، ورسمنا باحضار بطارقة النصارى على اختلاف مذاهبهم ورئيسا اليهود بأن لا يستخدم في الملة الشريفة يهودي ولا نصراني ولا سامري، واستقر ذلك بالديار المصريّة جميعاً في المجلس العالي فليسارع إلى امتثال ذلك ويأمر به في جميع المملكة الشامية، ويكتب بمضمون ما رسمنا إلى سائر الأعمال، ويجمع أكابرهم ويشهد عليهم بالالتزام بذلك كما اعتمد في الأبواب الشريفة، ولا يُمكن أحداً من اهل الذمة عن حكمه، وليعتمد في جميع ما شرحناه ولا يقبل من أحد أن يشفع في دين الله

=الوقت الذي عَبّر فيه أمير المؤمنين علي (ع) عن تسامحه واستئناسه لصوت الناقوس، ترد أحاديث غريبة منفّرة لدى بعض الصحابة ومن ذلك ما ذكره محمد حقي النازلي في كتابه خزينة الاسرار ص ١٨٢ (دار الكتب العلمية / بيروت).

(١) بطرك أو بطريك: كلمة يونانية مركبة معناها رئيس قبيلة. وهي لقب يلقب به آباء أو رؤوس الأجيال المذكورة في الكتب المقدّسة من آدم إلى يعقوب. ثم بعد خراب القدس كانت لقباً يلقب به رؤساء الدين من اليهود في آسيا. وفي الأزمان الأولى للمسيحية صارت لقباً لأساقفة روما والقسطنطينية والإسكندرية وأنطاكية والقدس. ولهم السيادة على الأساقفة والمطارنة أو رؤساء الأساقفة في بطريركياهم ولكن سلطتهم لا تزيد إلاّ قليلاً عن حقّ عقد مَجَامع ومناظرة عمومية على أعمال من هم تحت سلطتهم من الأساقفة. (دائرة معارف البستاني — ج٥/٤٧٧).

ولا يحاجج عنه، وليتلوا لمن ذكر له ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥١﴾ [1].

وليفعل أيَّدهُ الله ذلك مقالاً وفعلاً، وليعتمد في ذلك مضمون قوله صلى الله عليه وسلم " صَغروهم[2] كما صَغّرهم الله تعالى " واندرجوا[3] به والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.



(١) سورة المائدة: آية ٥١.

(٢) اشارة إلى الآية ﴿.. وهم صاغرون﴾ (سورة التوبة) رقم ٢٩، ولقد فسَّر المفسرون لفظه (الصغار) بتفاسير كثيرة كلها ترجع إلى معنى " الذلة والخضوع " انظر تفسير ابن كثير ٣ / ٣٨٣ دار الفكر. وفتح القدير للشوكاني ج٢: ٣٥١، وفي ظلال القرآن ٣ / ١٦٢٠ — ١٦٣٤.

(٣) اندرجوا: مضوا لسبيلهم (القاموس ٢٤٠).

٣- المحضر القانوني الرسمي لمحاكمة المسيحيين المتهمين بالحريق

[أ ــ ٣٢]

- صورة المحضر الذي كُتب بدمشق المحروسة:

حضر إلى شهوده يوم تاريخه الرشيد سلامة بن سليمان بن مُرجي النصراني كاتب المقر العَلَمي سنجر الجمقدار[١] الملكي الناري وشهوده به عارفون، واشهد على نفسه طائعاً انه في شهر شوال سنة تاريخه حضر عنده في بستانه المكين[٢] يوسف بن مجلي النصراني عامل الجيش، والمكين جرجس

(١) في السلوك ٣ / ٢٨٣ البشمقدار يُنسب للعلم سنجر الخازن معاقبة غبريال أوغبريان الاسعد النصراني، أحد وجود النصارى وكان خصيصاً عند الصاحب أمين الدين بن الغنام. في الدرر الكامنة: وكان كثير الأذى والمدافعة فسلمه الناصر للعلم سنجر الخازن فضربه بالمقارع وصادره ومات بعد اسبوع من العقوبة. وزراء النصرانية ص ٢٠١. ووردت ترجمة سنجر في الدرر الكامنة ٣ / ٢٦٦ ــ ٢٦٨ رقم ١٨٧٧ وفيها انه سنجر بن عبدالله الجاولي ابو سعيد علم الدين، كان فقيهاً ومن امراء الجند بالديار المصرية ولادته بآمد سنة (٦٥٣) ثم أصبح أحد مماليك أمراء الظاهر بيبرس..وولي نيابة غزة وغيرها وطالت أيامه حتى انه تولى غسل الناصر ودفنه. بنى بعض الجوامع أحدها بغزة يعرف بالجاولية. توفي بالقاهرة ٧٤٥ هـ، راجع ايضاً النجوم الزاهرة ١٠ / ١٠٩، الناصري: نسبة إلى الملك الناصر محمد بن قلاوون ت ٧٤١ هـ.

(٢) المكين: المترلة عند الملك وتمكّن به فهو مكين جمع مكناء (القاموس المحيط ص ١٥٩٤). وقد عُرف الكثير من وجوه النصارى بهذه التسمية ومنهم: المكين ابن السقاعي وكان مستوفياً بمصر سنة ٦٥٨ هـ، وقد طولب بالإسلام فأسلم (الخطط للمقريزي ٤ / ٤٠٣، وزراء النصرانية رقم ٣٦٤ ص ٢١). ومن أعلام النصارى ايضاً جرجس المكين صاحب كتاب " تاريخ المسلمين صاحب شريعة الإسلام إلى الدولة الاتابكية " الذي طبعه أربانيوس E.Erpennius (٩٢٢ - ١٠٣٣ هـ / ١٨٥٤ - ١٦٢٤ م). والمكين هو لقب مؤيد الدين محمد القمي قبل استيزاره وفيه يقول الشاعر:=

بن أبي الكرم كاتب الحوطات[1]، والمكين يوسف النصراني الراكيلي كاتب بهادرا حسين كان[2] واحضروا معهم راهبين أحدهما يسمى ميلاثي[3] يعرف صناعة النفط، والآخر يسمى عازر[4].

وذكروا أن الراهبين المذكورين حضرا من بلاد قسطنطينية[5]، ثم أنهم تحادثوا أن الراهب المسمى ميلاثي يعرف صناعة النفط والنار، واتفقوا على حريق ما يقدروا عليه من أماكن المسلمين بدمشق المحروسة، ثم أنهم توجّهوا بعد ذلك إلى بستان المكين يوسف الراكيلي بجوبر[6] وأقام الراهبان المذكوران عنده في طبقة على باب البستان المذكور، وأحضر لهم المكين عامل الجيش

=لقد انتحى المستنصر المنصور يوم المكين كما انتحى المنصور

(الساعدي: مؤيد الدين ابن العلقمي ص٥٤ النجف ١٩٧٢).

(١) حوط: بالفتح من حاطة يحوطه حوطةً وحيطةً وحياطةً أي كلأه ورعاه قيل: هي قرية بحمص أو بجبلة من ساحل الشام (معجم البلدان ٢ / ٣٢٢) وقد تكون الحوطات عدة قرى بالشام.

(٢) في السلوك ٣ / ٢٨٣ (بهادر آص). وفي كتاب مقدمة في الوثائق الإسلامية للدكتور قاسم السامرائي (بهادر أجين) ص٩٤. وفي الجزء الثاني من كتاب الدارس أن بهادر آص كان من أمراء الألوف بدمشق. وله تربة تعرف به. مات سنة ٧٣٠هـ.

(٣) ميلاثي (البداية والنهاية ١٨ / ٤١٤، السلوك ٣ / ٢٨٢).

(٤) عازر (البداية والنهاية ١٨ / ٤١٤، السلوك ٣ / ٢٨٢). وعازر أو عزر أو عيزر اسم عبري معناه (عون) قاموس الكتاب المقدس /٥٨٩.

(٥) القسطنطينية: كانت رومة في القديم دار مملكة الروم نزلها من ملوكهم تسعة وعشرون ملكاً، ثم ملك بها قسطنطين الأكبر ثم انتقل إلى بزنطية وبنى عليها سوراً وسماها القسطنطينية، وقد كان اسمها طوانة ثم نسبت إلى قسطنطين، وبينها وبين عمروية ستون ميلاً في قرى وعمارات، ومدينة القسطنطينية ثلاث نواحي: ناحيتان منها في البحر الأعظم مما يلي القبلة والمشرق والمغرب، والناحية الثالثة مما يلي البر. انظر: معجم البلدان ٤ / ٣٤٧، ٣٤٨.

(٦) جوبر: قرية بالغوطة من دمشق.

وفي جوبر اليوم كنيس من أقدم كُنُس اليهود في الشام. وقد مرَّ التعريف بها.

ما أرادوا من النفط والحوائج، وعملوا سبع كعكات[1] محشوة باروداً ونفطاً ودقّ فحم[2]، وغير ذلك مما يعرفوه، وألبسوا الراهبين المذكورين قباءين[3] تتريه وتخفيفتين[4] بيض وهورات، ثم نزلا من البستان المذكور،

---

(١) الكعك: فارس معرب خبزٌ، القاموس المحيط ص ١٢٢٩، وصناعة الكعك قديمة بدمشق ولها انواع كثيرة، وكعيكاتي هو بائع الكعك.. (قاموس الصناعات الشامية: ص٣٨٩ ــ ٣٩٠). وفي الرواية ان الراهب بحيرا حينما التقى النبي (ﷺ) بالشام زوّده من الكعك والزيت (محمد بن فهد ت ٨٨٥ هـ): اتحاف الورى باخبار ام القرى ١ / ١٠٨ (طبع القاهرة) وفيه مصادر أخرى للخبر نفسه.

(٢) الدق: هو الناعم من الفحم، والفحم الشامي عادة يعمل من شجر السنديان.. القاموس المحيط ص ١٢٢٩، قاموس الصناعات الشامية /٣٣٦.

(٣) القباء من الأزياء الإسلامية الشائعة وهو لباس خارجي للرجال، فارسي الأصل والقباء العربي كما وصفه (دوزي) ثوب يكون طويلاً ومقفلاً من الأمام بأزرار ومقوراً تمام التقوير في موضع الرقبة، وهو يشبه بعض الشبه بملابس الأرمن. راجع (صلاح حسين العبيدي: الملابس العربية الإسلامية في العصر العباسي / ٢٨٠).

(٤) التخفيفة: قيل انها ضرب من طاقية Bonnet واعتبرها البعض عمامة صغيرة على الرأس وعلى الغالب انها طاقية، ذكر ابن ابي أُصيبعة انه كان على رأس الحكيم موفق الدين يعقوب بن صقلاب النصراني كوفية وتخفيفة " عيون الأنباء ٢ / ١٧٧. وقد تأتي اللفظة بعنوان (التجفيفة) بالجيم أي تجفاف وجمعها تجافيف وانها بالجيم اصح ــ على ما ذهب اليه زكي محمد حسن قال في كتابه كنوز الفاطميين هامش ص٢٢: "وعلى كل حال فان التخفيفة عمامة صغيرة والتخفيفة للمرأة ملاءة صغيرة تغطى بها رأسها. والظاهر أن العمامة الكبيرة الضخمة كان يلبسها الفقهاء وأعيان الدولة كما يظهر مما رواه النويرى في مناسبة وفاة قاضي القضاة شمس الدين أحمد بن الخليل سنة ٦٣٧ هجرية. وهذا نصه: وأما سبب ولايته القضاء بدمشق فانه كان قد بلغ الملك المعظم عن القاضي جمال الدين المصري قاضي قضاة دمشق أنه يتعاطى الشراب فأراد تحقيق ذلك عيانا فاستدعاه وهو في مجلس الشراب فحضر اليه، فلما رآه قام اليه وناوله هنابا مملوءا خمرا فولى القاضي جمال الدين المصري ورجع فغاب هنيهة ثم عاد وقد خلع ثياب القضاء. ولبس قباء وتعمم بتخفيفة وحمل منديلا ودخل على الملك المعظم في زي الندماء وقبل الأرض وتناول الهناب من يده وشرب ما فيه ونادم المعظم فأحسن منادمته فأعجبه واعتذر من فراره أنه ما كان يمكنه تعاطى ذلك وهو في زي القضاة فاغتبط الملك المعظم به، ولما انقضى مجلس الشراب ورجع إلى حسه علم أنه لا يجوز له أن يقرّه على ولاية القضاء وقد=

ودخلا إلى الدهشة[1] الأموية، وقعد أحدهما على دكان شرقّي القيسارية، وعدّ على باب الدكّان فلوساً، وتحيَّلَ حتى أدخل كعكة واحدة من تلك الكعكات ثم خرجا إلى قصبة السوق البرّاني، واشتريا قبابرد ثم بسَطا القباء على انهما يطويانه فانبسط أحدهما إلى الدكان، وألقى كعكة ثانية بين الدراريب، وركبا من باب الفراديس[2] دابّتين وطلعا إلى البستان المشار إليه، وأخبرا بما فعلاه، وفي تلك الليلة احترق الحريق الأول، ثم أن المكين الراكيلي كتب ورقة وارسلها إلى [ب ـ ٣٣] المكين عامل الجيش، والمكين جرجس عرفهما بصورة الحال، ثم كتب إلى الحاضر المسمى اعلاه المشهود عليه وهو الرشيد [سلامة بن سليمان بن مرجي النصراني] ورقة وأرسلها مع مملوكه مبارك

=شاهد من أمره ما شاهد ففوض القضا للقاضي شمس الدين وخلع عليه". والظاهر أيضاً أن التخفيفة كانت نوعاً من لباس الرأس يتخذه أمراء الألف بعد إذن من السلطان في عصر المماليك.

(١) الدهشة: قيصرية ـــ قيسارية (سوق الذهب)كانت ملاصقة للجامع الاموي من جهة الشمال بشرق على وصفه ابن الحمصي: (حوادث الزمان ٢م٢٣١) وفيه: (الدهيشة)،ومما بلغت النظر أن سوقاً بنفس التسمية كان في حلب وكان يشمل ٨٨ دكاناً، اشتراه ابراهيم خان وادخله ضمن اوقافه عام ٩٨٢ هـ ـــ ١٥٧٤م (العُرضي: معادن الذهب في الاعيان المشرفة بهم حلب ص١٠٣).

(٢) الفراديس: باب من ابواب دمشق، قال ابن قيس الرقيات:

اقفرت منهم الفراديس والغُوطة ذاتُ القرى وذات الظلال

معجم البلدان ٤ / ٢٤٢ ـــ ٢٤٣. وجاء في كتاب اسواق دمشق ص ٣١٤:
باب الفراديس الأثري داخل سوق العمارة، وهو في الأصل باب روماني جدده الملك الصالح اسماعيل بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب سنة (٦٣٩ هـ / ١٢٤١ م) استناداً لما كتب في اللوحة المؤرخة بجانبه. ويعرف أيضاً بباب العمارة، وعرف في السابق باسم (باب السلام)، ويعود السبب في تعداد أسمائه إلى أن أربعة أبواب على الأقل كانت تقوم بالتوالي في هذا المكان وهي: البوابة السابقة للإسلام، والقوس السابق للإسلام، وباب سور المدينة. أما تسميته فمنسوبة إلى محلة كانت خارج البلد تسمى (الفراديس) وتعني بلغة الروم البساتين، وكان للفراديس باب آخر عند باب السلامة فسدّ. وتغطي الباب حالياً طبقة من المعدن المقوى بالمسامير الحديدية.

يعرِّفه من جهة دارهم لناظر الجيش وفي آخر الورقة ان الشغل قد انقضى ثم انهم كتبوا لهما كتاباً إلى العلم الدميثري عامل بيروت[1] ان يجتهد في تجهيزهما ويركبوهما من البحر إلى قبرص[2] ومنها إلى البلاد ثم انهم بعد ذلك احضروا عيسى الجرائحي[3] المعروف بابن ريش[4] الروقة ووافقوه على

---

(١) بيروت: بالفتح ثم السكون، وضم الراء، وسكون الواو، والتاء فوقها نقطتان: مدينة مشهورة على ساحل بحر الشام تعد من أعمال دمشق، بينهما وبين صيدا ثلاثة فراسخ. انظر: معجم البلدان ١ / ٥٢٥، والروض المعطار ١٢٢، ١٢٣، وصبح الأعشى ٤ / ١١١. وجاء في الموسوعة العربية الميسرة ٤٦٣ "عاصمة لبنان، وميناء هام شرق البحر المتوسط، تقع في سفح سلسلة جبال لبنان. كانت مركزاً هاماً للتجارة الفينيقية. ازدهرت إبان حكم السلوقيين وسقطت في يد الصليبيين ١١١٠، وأصبحت جزءاً من مملكة بيت المقدس اللاتينية حتى (١٢٩١). سادها الدروز في أثناء الحكم العثماني. استولى عليها محمد علي في أثناء حروبه ضد السلطان العثماني ١٨٣٢، وأرغمته الأساطيل الانجليزية والفرنسية على إخلائها ١٨٤٠. احتلها الفرنسيون (١٩١٨ ـــ ١٩٤٤). زاد عمرانها عقب الحرب العالمية ٢".

(٢) قبرس ـــ أو قبرص ـــ: جزيرة على البحر الشامي كبيرة القطر مقدارها ستة عشر يوماً، ومن قبرص إلى طرابلس الشام مجريان. انظر: معجم البلدان ٤/ ٣٠٥، والروض المعطار ٤٥٣، ٤٥٤، ونزهة المشتاق ١٩٤. وفي فتوح البلدان / ١٥٦ ان الوليد بن يزيد أجلى من كان بقبرص من الذميين إلى الشام مخافة حملة الروم. فغضب على ذلك الفقهاء وعامة المسلمين واستعظموه ولما ردهم يزيد بن الوليد إلى قبرص استحسنه الناس وعدّوه من العدل.
ولمزيد من التفاصيل حول احداث قبرص وموقعها من الصراع الإسلامي ـــ الصليبي، راجع كتاب الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور الموسوم بـــ (قبرص و الحروب الصليبية) القاهرة ـــ مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٥٧. ومقال "فتح جزيرة قبرص ـــ أول عملية إبرار بحري في تاريخ المسلمين" للواء محمد جمال الدين محفوظ. مجلة الأزهر ٦٢ (١٩٩٠).

(٣) جاء في تاريخ ابن قاضي شهبة: وكان الذي وضع النفط قيسارية الاقواسيين رجل لحام.. واعطوه خمسمائة درهم (المجلد الثاني، الجزء الأول من المخطوط / ١١٦) لكن (الجرائحي) بحسب قاموس الصناعات الشامية / ٧٨ ـــ ٧٩ هو الجراح أي من يتعاطى صنعة الجراحة وصاحبها يتعاطى المجاريح بالتفتيش عليهم بوضع اللصوق والمراهم سواء أكانت بجراحة اصلية أم عرضيه، وقد يكون المذكور يتعاطى المهنتين، وقال عبد الغني النابلسي في كتابه (تعطير الانام في تعبير المنام) ص ١٢٥ ج١: جرائحي.

(٤) ابن ريش أوابن ريشه لقب معروف لعدة اسرٌ نصرانية في العصر الذي وقع فيه الحريق. وممن = تلقب به الكاتب القبطي امين الدين عبد الله ابن ريشه (ت ٧٩ هـــ / ١٣٨٨ م) وزراء=

أنه يتحيل في ادخال النار إلى داخل دكان اللحام المستجدة على باب قيسارية القوّاسين وواعدوه بخمسمائة درهم قبض منها ثلاثمائة، واخذ كعكة ثالثة، واستمال النصراني ساكن الدكّان حتى وضع الكعكة في سقف الدكان، وفي تلك الليلة احترق الحريق الثاني وهو قيسارية القوّاسين[1] وما معها ثم انهم دفعوا خمسمائة درهم لمخلوف النصراني الطوّاف[2] على أنه يرمي حراريق دهن بأقطار البلد لينفي عنهم الظن بذلك، ثم انه حضر عندهم نفران من سيس[3] معهم كتاب صاحب سيس يعرفهم انه قد بلغه خراب ما حول الكنيسة

=النصرانية ٦٤١ رقم ٤٠، ومنهم تاج الدين شاكر ابن ريشه (ت ٧٦٥ هـ / ١٣٦٤) وهو وزير قبطي، وزراء النصرانية / ٦٥ رقم ٤٣.

(١) القيسارية: وهي الخان في عرف المصريين. والدمشقيون يسمونه قيسارية (خلاصة الأثر) ٤ / ٣٥٦ ــ ٣٥٧). قال حبيب زيات في (الخزانة الشرقية ٣ / ٤٩ ــ ٥٠) بيروت ١٩٤٦: القيسارية بدمشق كانت تطلق خصوصاً على ما اتسع من الدور الجامعة. تكون في وسطها غالباً بركة للماء ودكاكين أو حجر للتجار كالاسواق يضمها سور واحد. قال ابن كثير في أخبار سنة ٧٤٧ (١٣٤٦م): فتحت في أول هذه السنة القيسارية التي أنشأها النائب الأمير يلبغا ظاهر باب الفرج ... وداخلها قيسارية تجار. وفي وسطها بركة ومسجد وظاهرها دكاكين وأعاليها بيوت للسكنى. وكانت القياسر بدمشق أوفر من الخانات لاصطلاح التجار فيها وارباب الصناعات على اختصاص دور واسواق لهم. تنفرد بها اصحاب الطبقة الواحدة. كقيسارية القطن انشاء الملك المعظم. وقيسارية القواسين والكفتيين. وقيسارية الرماح. وقيسارية الصوف. وقيسارية الأقباعيين. وقيسارية العبي. وقيسارية ابن البابي، وكانت لمساكن تجار الفرنج، ولما التهمتها النار في حريق سنة ٧٩٤ أو ٧٩٨ (١٣٩٢ أو ١٣٩٥ م) تلف للافرنج فيها شيء كثير إلى غير ذلك من القياسر العديدة التي كانت دمشق غاصة بها. وقد زالت باسرها و لم يبق منها بقية وغلب اسم الخان في العهد الأخير على القيسارية ولذلك اشتهرت به قيسارية اسعد باشا واشباهها.

(٢) الطّواف: الخادم يخدمك برفق وعناية (القاموس المحيط ١٠٧٧).

(٣) ظهور اسم (سيس وهي حاضرة بلاد الأرمن وعاصمتهم يلقي بعض الشكوك على تورط جهة ما فيها بحريق دمشق خصوصاً وأن الصراع العسكري كان محتدماً بين (سيس) النصرانية من جهة والجيش الإسلامي بمصر والشام من جهة أخرى، ومن تلك الأحداث حروب بين=

فان كانوا يختاروا أن يكتب إلى صاحب الرب يكاتب مولانا السلطان الملك الناصر [محمد بن قلاوون] في ذلك يعرّفوه وفيه فصول كثيرة فيجهز النفران المذكوران إلى القدس الشريف فلما[1] قدما كتبوا لهما كتاباً من يوسف

=الجانبين قامت قبل سنين قليلة لحريق دمشق كما يظهر من النص التالي للأب اسحاق ارمله في كتابه (القصارى في نكبات النصارى) ص ٢٠ — ٢١ (الطبعة الأولى ١٩١٩): " واشتهر سنة ١٢٧٦ لأون ابن ملك الأرمن وسار مع المغول= =إلى الشام سنة ١٢٨٢ في عساكره المصريين في حمص ورجعوا. وملك بعده يوحنا بيل وسمي قسطنطين الثالث وخلفه اخوه كوفيدن ت ١٣٣٤ ثم قسطنطين الرابع ت ١٣٦٤ وفي عهده سار التركمان إلى قلعة كابان وهي من امنع قلاع سيس وملكوها بالحيلة وقتلوا رجالها وسبوا النساء والأطفال. قال في ذلك ابن الوردي

صاحب سيس الجديد نادى كابانُ عندي عديل روحي
قلنا تأهب لغير هذا فذا فتوحٌ على فتوح

ثم ملك ليون فشن المصريون الغارة تكراراً على قيلقيا ونهبوا واحرقوا وقتلوا. وهجموا على سيس ودكوا حصونها وفتحوا قبور الملوك والولاة واحرقوا عظامهم وأسروا لاون الملك وأهل بلاطه سنة ١٣٧٣ ومضوا بهم إلى مصر وسجنوهم سبع سنوات فتوسط الحبر الروماني في مسئلتهم وانقذهم من أسرهم. وسار بعد ذلك لاون الملك إلى اورشليم وترك بها امرأته وبنته ثم ظعن إلى رومة وزار اعتاب الحبر الأعظم وشكر له فضله واحسانه وعاد إلى باريس وفيها توفي في ٢٢ تشرين الثاني ١٣٩٣ " وجاء في الدر المنتخب لابن الشحنة ص١٨٧ أن بلادهم - أي الأرمن - الكبار خمسة وهي: آياس، وسيس، والمصيصة، وأدنة، وطرطوس، وبهذه البلاد قلاع كثيرة وحصون منيعة. انظر ايضاً ابن الوردي: خريدة العجائب ص٢٥. واعتقد ان من المهم التفرقة بين لفظتي (سيس) المقصودة في هذا النص والتي تشير إلى عاصمة الأرمن، وبين (أسيس) والأخيرة موضع يقع في الجنوب الشرقي من دمشق وعلى مسافة ١٠٥ كم وفيها قصر أسيس الأثري الذي يُعد أحد أقدم قصور البادية السورية الأموية (كما ورد في كتاب الفن العربي الإسلامي ص ١١٥ — ١١٦ لعفيف بهنسي).

(١) قرأه المنجد "قدسا" مجلة المجمع العلمي العربي. دمشق المجلد ٣١: ج١ (سنة ١٩٥٦) ص٤٤.

الراكيلي إلى صهره المسمى بطرس كاتب المقر العالي طَيْبُغَا حاجي[1] بقرية ريحا بالوصية لهما واكرامهما، وكتبوا كتاباً إلى صاحب سيس قبل الحريق الثاني يعرّفوه بالأول وفيه فصول كثيرة وكتبوا فيه بالرد المماليك اراخنة[2] دمشق يعنو بذلك أكابر النصارى بدمشق، وهذه صورة ما أقرّ به الحاضر المسمى أعلاه من غير زيادة ولا نقصان والله المستعان في تاسع ذي القعدة[3] سنة اربعين وسبعمائة.

---

(١) طَيْبُغَا حاجي أحد الأمراء بدمشق بعد أن كان رئيس نوبة الجمدارية بالديار المصرية ثم اعتقل بعد امساك تنكز ثم أفرج عنه قبل موت الناصر، ثم ولي نيابة حلب ومات سنة ٧٤٣. الدرر الكامنة ٢ / ٣٣٢ رقم ٢٠٥٨.

(٢) الاراخنة: كلمة اغريقية معناها قادة، حكام في المدن الاغريقية القديمة، كان يوجد في اثينا تسعة منهم كانوا يصبحوا اعضاء في مجلس الاريوباجوس بعد انتهاء مدة حكمهم. كانوا اصلاً ينتخبون وبعد (٤٨٧ ق. م) كانوا يختارون بالقرعة (الموسوعة العربية الميسرة ١/١٠٨). وهي اليوم تستعمل في مصر للتعبير عن الافندية من الاقباط المتدينين في الكنيسه واصل الكلمة جمع لكلمة آرخن أو أرش التي تعني رئيساً. (النصارى حوارات حول المستقبل ص٨٧).

(٣) " وأرّخ المحضر بعشري (٢٠) ذي القعده وحمل إلى السلطان. وفي يوم السبت ٢٢ منه تم اعدام المتآمرين " تدمري: تاريخ طرابلس ٢: ١٤٤ بيروت ١٩٨١ نقلاً عن البداية والنهاية والسلوك، ودول الإسلام، ومن ذيول العبر ٢١٣ ــ ٢١٤، والدارس في تاريخ المدارس ٢ / ٤٠٠. علق تدمري بعد ذلك: " وإذ ثبت اشتراك النصارى في تلك المؤامرة الخطيرة، ثم اشتراكهم مع القبارصة في أعمال النهب والتخريب بالاسكندرية، فقد صدر الأمر بتتبع جميع النصارى في أنحاء دولة المماليك، فألقي القبض على جميع من بديار مصر وبلاد الشام وغيرها من الفرنج، وأحضر البطريك والنصارى وألزموا بحمل أموالهم لفكاك أسرى المسلمين من أيدي الفرنج. وكتب بذلك إلى البلاد الشامية، فاحتيط على الفرنج بدمشق وأودعوا في سجن قلعتها، ورغم اعتراض المؤرخ المحدّث " ابن كثير " على هذا العمل فإن جمع النصارى كان مستمراً، حيث جُمع في دمشق وحدها ما يقرب من اربعمائة رجل ألزموا بأداء الربع من أموالهم، وأمر الولاة بإحضار من في معاملتهم، وخرج والي البر إلى القرى بسبب ذلك، وجُرِّد الأمراء إلى النواحي لاستخلاص الأموال من النصارى في القدس ".

الفصل الرابع

مــا وراء الحـريق

- تحليل الواقعة ونتائجها.
- نكبة تنكز.







تحليل الواقعة ونتائجها

وبعد رواية كل هذه الأحداث التاريخية المتعلقة بالحريق يجدر بنا الاجابة عن تساؤل يفرض نفسه على تداعيات هذه الهجمات الارهابية، ما هو هدفها؟ ومن كان ورائها؟

فأما الهدف فهو زعزعة النظام المستتب بدمشق وأحداث أكبر الخسائر في الممتلكات الإسلامية بهذه الحاضرة العريقة، واصابة المسلمين في أحد ابرز الأمكنة المقدسة وهو (الجامع الأموي)[1].

وأما المُخطِطْ الرئيسي لها فلابد أن يكون من خارج الشام، أي من العدو المتربص دوماً للدولة الإسلامية المنافسة أعني البلاط البيزنطي الذي كان يتحيّن الفرص لإضعاف هيبة الدول الإسلامية وفي النبذة التاريخية التي قدمناها سابقاً عن الصراع البيزنطي الإسلامي ما يؤكد المحاولات الحثيثة لكلا الجانبين للتفوق على الآخر والحاق الهزيمة به، وفي وثائق المحضر القانوني المدوّن بسجل الدولة بدمشق بتاريخ ٩ ذي القعدة ٧٤٠هـ ما يؤكد ضلوع مخابرات الدولة البيزنطية بهذا العمل، ويظهر ان التخطيط له قد استغرق

(١) حين وقع الحريق بمسجد رسول الله (ﷺ) في رمضان سنة ٨٨٦ هـ فرح الفرنجة بذلك واتخذوا الواقعة يوم عيد وسرور قال فضل الله بن روزبهان: " وزينوا بعض مدائنهم التي يدعون انها مثل الكعبة، بالزخارف والالبسة والحلي وزينوا الاطعمة والسماطات والغناء والرقص وبينما هم كذلك يرقصون ويطربون.. نزلت صاعقة عظيمة من السماء فأحرقت كل المدينة.. وهلكوا جميعاً.. " هداية التصديق إلى حكاية الحريق ص٨٢، ١٠٨ (ضمن كتاب ياد نامه ايراني مينور سكي، تدوين مجتبى مينوى وايراج افشار، تهران ١٣٤٨ انتشارات دانشگاه تهران).

سنين عدة، ذلك ان أحد الفاعلين الرئيسيين الذين كانت لهم صلة بهذه الحوادث وهو الشخص المعروف بسبيل الله والذي أدين واعدم فيما بعد، كان قد شوهد في القاهرة سنة ٧٢٥هـ بزي غريب يلبس جلداً ويحمل على كتفه زيراً اندلسياً وبيده شربات يسقي الناس بغير جعل، هذا الرجل خرج حاجاً وقدم دمشق وأقام بها يسقي الماء حتى دخل مع النصارى فيما قاموا به من أمر الحريق - حسب رواية المقريزي -

وكل القرائن تشير إلى كونه جاسوساً زرعه البيزنطيون بدمشق حتى حانت الفرصة المؤاتية لإستخدامه في هذا العمل العسكري، ولابد أن الارهابيين البيزنطيين ميلاثي وعاذر اللذان قدما من عاصمة الروم على هيئة راهبين مقدّسين كانا على علم بذلك الجاسوس، ومن ثم ابلغاه ما خطط له في القسطنطينية، وتعاونا مع عدد من رؤوس النصارى بدمشق على المُضي قدماً في هذا العمل المدبّر، وهكذا يظهران المستفيد الاساسي من تلك الأعمال هو الدولة البيزنطية.

لكن عاقبتها السيئة احاقت بالطائفة النصرانية في عموم الشام مع أن وزر ذلك يتحمله رؤوساء الطائفة الذين اشتركوا فيها وعاد ذلك بالضرر العظيم على كل أفرادها، ولابد أن يكون ذلك بسبب تعصب أولئك الرؤساء وهو غير مبرر إطلاقاً لأنهم جلبوا الويل والثبور على مواطنيهم المسالمين، وكان الجميع في ظل تنكر نائب الشام سواسية ونصارى الشام على أحسن حال ومنفعة، وان ردة الفعل القوية لتنكز باعدام الارهابيين ومعاونيهم - مع كونها فظيعة ومشينة - كانت بسبب ما كان ارخى لهم حبل الأمن والطمأنينة والمناصب الفاخرة، ألم يكن منهم عامل الجيش وكاتب الحوطات؟! وكلاهما من المراكز الحساسة

ممن اشتركا في تلك الجريمة. ولو رجعنا لسنين قبل الحادثة وجدنا تنكزاً نفسه مائلاً للنصارى إذ عين عبد الله بن الضيعة المصري القبطي المعروف بغبريال وزيراً له في دمشق وبلغت سعادة هذا الوزير مبلغاً كبيراً، وفي هذا يقول العسقلاني " كانت أيامه ـ أيام الوزير ـ كالأحلام لأمنها وكثرة خيرها "[1].

وفي الوقت نفسه كان نصراني آخر ولى الدواوين بدمشق سنة ٧٣٣هـ وولي الوزارة ثلاث مرات وهو عبد الله بن تاج الرئاسة أمين الدين القبطي الاسلمي ولعل حادثة الحريق هي التي عصفت بهذا الأخير فقد طلبه السلطان في نفس السنة التي وقع فيها الحريق سنة ٧٤٠هـ " فأقام في بيته بطالاً يسيراً ثم أمسك هو وولده تاج الدين ناظر الدولة، وكريم الدين مستوفي الصحبة، وبسط عليهم العذاب إلى أن مات هو خنقاً في نفس تلك السنة[2] ". وفي نفس السنة التي وقع بها الحريق قُبض على الصاحب شرف الدين عبد الوهاب القبطي في صفر وصودر واستصفيت حواصله بمباشرة الأمير سيف الدين شنكر الناصري ومن جملة ما وُجد له صندوق ضمنه تسعة عشر ألف دينار وأربعمائة مثقال لؤلؤ كبار وصليب مجوهر ووجد بداره كنيسة مرخمة بمحاريبها الشرقية ومذابحها وآلاتها، قال ابن العماد الحنبلي [واستمر الملعون في العقوبة حتى هلك في ربيع الآخر ٧٤٠هـ][3]

---

(١) وزراء النصرانية رقم ٣٠٠ ص ١٨٦. وقد نقل إلى القاهرة بعد ذلك ثم إلى دمشق حتى تغير عليه الملك الناصر، مات سنة ٧٣٤ هـ / ١٣٣٤ م.

(٢) الدرر الكامنة ٢ / ٢٥١ طبعة حيدر آباد، وزراء النصرانية رقم ٢٩٧ ص ١٨٣ ـ ١٨٤.

(٣) شذرات الذهب ٦ / ١٢٦.

وهكذا ابتليت الطائفة النصرانية جراء تعصب ثلة من رؤوسائها حتى أمسك منهم نحواً من ستين رجلاً، فأخذوا بالمصادرات والضرب والعقوبات وانواع المثلات، ثم بعد ذلك صلب منهم أزيدُ من عَشرة على الجمال، وطيف بهم في ارجاء البلاد وجعلوا يتماوتون واحداً بعد واحد ثم احرقوا بالنار حتى صاروا رماداً كما يقول شاهد عيان[1].

واستثيرت الاحقاد والضغائن يومئذ حتى اشيع بين العامة ان النصارى قد سمموا السكاكين التي كانوا يقطعون بها اللحم كما اشيع انهم رموا السموم في خوابي السبيل (الماء)، والله أعلم كم فعلت تلك الاكاذيب من انتهاك للحقوق والحرمات التي لم يرعاها اصحابها حق رعايتها فذاقوا وبال امرهم وشعروا بسوء المنقلب وطولبوا بمال جزيل فاستخلص منهم جملة كثيرة ودفعوا ما يزيد على مليون درهم ذهب.



(١) ابن كثير: البداية والنهاية ١٨ / ٤١٥، ولم يسبق ان نُكب نصارى دمشق بمثل هذه النكبة طيلة أيام تنكز الذي كان يحترمهم ويشاركهم في أعمال الدولة وكان النصارى مع سائر المسلمين طيلة الأيام السابقة على حريق دمشق آمنين على أموالهم ووظائفهم قال الكتبي في فوات الوفيات ١ / ٢٥٧ " ولم يتمكن أحداً من الأمراء ولا أرباب الجاه يقدر أن يظلم أحد ذمياً أو غيره خوفاً من بطشه وشدة ايقاعه ".

نكبة تنكز

وكانت تلك الفرصة (الذهبية) مميتة لنائب الشام فبقدر ما جمع من المال بحجة التعويض وصيانة الآثار التي انتهكها الحريق، فإن بريق الذهب اغوى السلطان الناصر على الكتابة اليه بارسال ما استخلصه من الأموال وما احترق من وقف الجامع يعمر من أوقافه وكل من له ملك يعمره من ماله.

ولم يكتفِ السلطان بهذا الطلب بل اوعز اليه مهدداً بأنه أخطأ في معاملة النصارى بتلك القسوة لأن ذلك يؤدي إلى فساد كبير على المسلمين في بلاد الفرنج[1].

---

(١) انظر تاريخ ابن قاضي شهبة: المجلد الثاني، الجزء الأول من المخطوط / ص١١٧. ويبدو لي ان الملك الناصر كان يعرف جيداً بثروة نائبه تنكز وكان يتحين الفرص للإيقاع به والاستيلاء على تلك الثروة الهائلة، فكانت حادثة حريق دمشق مناسبة لا تعوض لتنفيذ مآربه، وقد ذكر المؤرخ ابن أياس وصفاً لثروة تنكز جاء فيه:

" فلما مسك تنكز، احتاطوا على موجوده، فوجد له من الذهب والتحف والقماش ما لا يسمع بمثله، فمن ذلك من الذهب العين ثلثماية ألف دينار وستين ألف دينار، ومن الفضة النقرة ألف ألف درهم وخمسمائة ألف درهم، ووجد له من الفصوص الياقوت والبلخش واللؤلؤ الكبار ثلاثة صناديق، ووجد عنده من الطرز الزركش والحوايص الذهب والكنابيش الزركش والخلع الأطلس مائة وخمسين بقجة. ومن القماش الصوف الملون، ومن السمور والوشق والسنجاب وغير ذلك خمسمائة بقجة، ووجد عنده من البرك والفرش والأواني ما حمل إلى القاهرة على مائة وخمسين جملاً، ووجد له ودائع عند الناس ما ينيف عن مائتين وخمسين ألف دينار، ومن الفضة ألف ألف ومائة ألف درهم، وظهر له من الأملاك والضياع بمصر والشام ما قوم بمائتي ألف دينار، هذا خارجا عن الخيول والبغال والجمال والغلال والمماليك والعبيد والجوار، وحلّي نسائه، وغير ذلك، فوصل ذلك إلى الخزائن الشريفة صحبة الأمير بشتاك الناصري". بدائع الزهور ١/ ٤٧٨. وبالاضافة إلى ثروة تنكز فان الملك الناصر ربما كان حانقاً على تنكز لكثرة ما يسمع عنه ويعرفه عن هيبتة في بلاد الشام وفي هذا ما كان يثير كبرياء الملك وحسده، فمع شدة تنكز وصعوبة خلقه (كان من نواب الشام مطلقاً وكان محبباً لأهل دمشق "=

ويروي المقريزي تلك الأحداث بحسب الرؤية التالية، قال: " فكتب السلطان إلى تنكز يُنكرُ عليه قتل النصارى، وأن في ذلك إغراء لأهل القسطنطينية بمن يرد إليهم من التجار المسلمين وقتلهم، ويأمر بحمل ما وجد من المال، وأن يجهز بناته اللاتي عقد لأولاد السلطان عليهن.

فأجاب تنكز بالاعتذار عن تجهيز بناته بما شغله من عمارة ما أحرق، وأن المال الذي وجد للنصارى قد جعله لعمارة الجامع، وجهز قرمجي بذلك فلم يرض السلطان، وتغير على قرمجي، وكتب معه إليه بانه لا بد من تجهيز بناته. ثم أركب السلطان الأمير طاجار الدوادار على البريد إلى دمشق بملطفات، في يوم الجمعة ثاني عشرى ذي الحجة، وكان طاجار قد ثقل عليه أمر تنكز، وأخذ في زواله، وجعل توجهه إنما هو لعتب تنكز على تأخيره حمل بناته.

وكان قد بلغ تنكز تغير السلطان عليه، فجهز أمواله ليحملها إلى قلعة جعبر ويخرج إليها بحجة أنه يتصيد فقدم عليه طاجار قبل ذلك في يوم الأحد رابع عشره وكتبه وبلغه عن السلطان ما حمله، فتغير الأمير تنكز وبدا منه ما حفظه عليه طاجار.

وعاد طاجار إلى السلطان في يوم الجمعة تاسع عشر ذي الحجة قبل الصلاة، فأغرى السلطان به، وأنه قد عزم على الخروج من دمشق. فطلب السلطان بعد الصلاة أمير بشتاك والأمير بيبرس الأحمدي والأمير جنكلي بن

=بدائع الزهور ١ / ٤٨١، ولما كان الملك الناصر "مهيباً ذا دهاء وحزم ومكر، طويل الصبر على ما يكره، اذا حاول امراً لا يُسرع فيه بل يحتاط غاية الاحتياط " الدرر الكامنة ٤ / ٢٦٥ فانه اهتبل هذه الفرصة واوقع بمن يعتبره خطراً عليه. لتفاصيل أكثر عن ثروة تنكز راجع الكتبي: فوات الوفيات ١ / ٢٥٥ إلى ٢٥٨، والنجوم الزاهرة ٩ / ١٥٤، وما بعدها.

البابا والأمير أرقطاي والأمير طقزدمر في آخرين، وعرفهم أن تنكز قد خرج عن الطاعة، وأنه يبعث إليه تجريدة مع الأمير جنكلي والأمير بشتاك والأمير أرقطاعي والأمير أرنبغا أمير جندار والأمير قمارى أمير شكار والأمير قماري أخو بكتمر الساقي والأمير برسبغا الحاجب[1].

وأكدَّ ابن أياس على أن الملك الناصر قد جهز " تجريدة ثقيلة، وبها ستة أمراء مقدّمين وخمسمائة مملوك، ورسم للنوّاب أن يمشوا عليه من هناك ".

فلما وصلوا إلى دمشق حاصروا تنكز أشد المحاصرة، فطلب منهم الأمان، ونزل إليهم وفي رقبته منديل، فقبضوا عليه وقيّدوه، وكان ذلك يوم السبت ثالث عشر ذى الحجة سنة أربعين وسبعمائة "[2].

وأمر السلطان الناصر بسجنه بثغر الاسكندرية فسجن هناك ثم أن السلطان أرسل إليه الحاج إبراهيم بن صابر، مقدم الدولة، فخنقه وهو بالسجن ودفن بالاسكندرية مدة يسيرة ثم إن بعض الأمراء شفع فيه بأن ينقل جثته إلى دمشق فرسم السلطان بذلك ونقلت أواخر سنة ٧٤١هـ وفي ذلك قيل:

إلى دمشق نقلوا تنكزاً	فيا لها من آية ظاهرة
في جنة الدنيا له جثة	وروحه في جنة الآخرة[3]

---

(١) السلوك لمعرفة دول الملوك ٣ / ٢٨٣ ـــ ٢٨٤.

(٢) بدائع الزهور ١ / ٤٧٨.

(٣) بدائع الزهور ٢٧٩/١. وذكر ابن الشحنة في كتابه روض المناظر، قال: " وفي سنة اربعين وسبعمائة توفي الأمير تننكز الناصري نائب دمشق، وكان [عنيفاً] صارماً انشأ بدمشق جامعه المعروف وطالت مدته بها نحو ثلاثين سنة، وأنشد في ذلك القاضي الفاضل صلاح الدين خليل بن ايبك الصفدي:=

ولا بد أن التخلص من تنكز تبعه خطة للتخلص من كافة امرائه واتباعه ومواليه ومنهم طغاي وجينغاي اللذان عوقبا واستصفيت أموالهما ثم قتلا.

وكذلك تخلصوا من (بَرَ صْبغا) الذي كان المتولي لاستخلاص الأموال وعقوبات الناس وقد وصفه ابن قاضي شهبه: كان غاشماً عسوفاً لا يعرف لأحد قدراً، ولا يرعى أحداً كبيراً أو صغيراً، قال:

" وقبضَ على كاتب السر المنفصل القاضي شهاب بن القيسراني، وجماعة من المباشرين.ورسم باطلاق جماعة من المسجونين، ومن جملتهم من سجن من النصارى بسبب الحريق الكائن في العام الماضي حول الجامع، ونسب الحريق المذكور إلى النصارى وتواطئهم عليه في مقابلة هدم كنيستهم[1].



=ألا هل لييلات تقضّت على الحمى ... تعود بوعدٍ للسرور منجّز

ليالٍ اذا رام المبالغ وصفها ... يشبهها حُسناً بأيام (تنكز)

روض المناظر في أخبار الأوائل الأواخر لأبن الشحنة ت ٨١٥ هـ، مخطوطة كوبنهاكن، الورقة ب١٣٣. ودفن تنكز بتربته بجوار الجامع الذي أنشأه والذي يحمل اسمه حتى الآن راجع الدارس ١/٢،٢٣ / ٢٣٨، الحوليات السورية المجلد ٣٥ ص ١٢.

(١) تاريخ ابن قاضي شهبه المجلد الثاني، الجزء الأول ص ١١٥.

الملاحق

الملحق الأول: قصيدة متضمنة لحريق دمشق.

الملحق الثاني: المقامة الدمشقية المعروفة بـ «الصفو الرحيق في وصف الحريق». تأليف: ابن الوردي.

الملحق الثالث: «رشف الرحيق في وصف الحريق» مقامة في حريق دمشق، تأليف صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (٦٩٦-٧٦٤هـ).

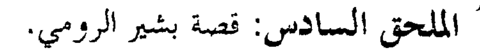
الملحق الرابع: بيان الإمام تقي الدين السبكي حول أهل الكتاب والتحذير من الغزاة التتر.

الملحق الخامس: جزء فيه شروط أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) على النصارى.

شروح وتعليقات:

- اتهام عمر باضطهاد أهل الذمة.
- رأي آخر في السياسة العمرية نحو الذميين.
- قول ابن تيمية في الشروط العمرية والتعليق على رأيه.
- الشروط العمرية لبطريرك القدس المسمى صفرونيوس.
- عهد عمر لأهل بيت المقدس (النص الذي ذكره الطبري).
- نص آخر للعهد (مشكوك فيه).
- عهد موضوع آخر زعموا أنه من النبي (صلى الله عليه وسلم) للنصارى.



الملحق السادس: قصة بشير الرومي.

الملحق السابع: العهدة النبوية للنصارى.

• العهد النبوي ـ نسخة مكتبة دير سانت كاترين ـ صورة أخرى للعهد النبوي ـ رأي جرجي زيدان ـ العهود النبوية في المصادر السريانية.

الملحق الثامن: النصارى في ظل الدولة العثمانية.

فتح القسطنطينية ـ أثر الفتح في العلاقات المسيحية / العثمانية ـ معاهدة زشتوي ـ الخط الهمايوني ـ خلاصة فرمان انتخاب البطريرك نيوفوتوس.





الملحق الأول

قصيدة متضمنة لحريق دمشق

مجهولة الناظم.

(نظمت يوم السبت مستهل ذي العقدة بدمشق المحروسة سنة اربعين وسبعمائة.. خدمة المملوك محمد الخياط)

[نقلاً عن مخطوطة جامعة ليدن رقم OR 951]

(ص أ.٢٧ ـ أ.٢٨).

قصيدة متضمنة لحريق دمشق حماها الله تعالى

[أ.٢٧]

الحمد لله ولي الاعانة

لم يرو من نَقلَ الأخبْار والسِّيرا	كمثل زند حريقٍ في دمشق جرا
ولا رأى مثله في أعصُر سلفت	راءٍ ومُشْبه ذاك الخطبِ ليس يُرى
أنْسَى القديم حديث قيل عنه فلا	تَسَلْ به عن حديث الدمع كيف
مصيبةٌ دَهَمت ليلاً فما تَركت	بالنار للعين لا عَيْناً ولا أثرا
أضْحَى يُقلِّب كفّيه الغَني بها	فقراً ويضْربُ من بعد الثراءِ ثرى
كأنمَّا النّاس موْتى عندها أسفاً	تخدّ[1] في الأرض ايديهم لهم حُفرا

(١) الخد: الحفرة المستقيمة في الأرض (القاموس المحيط ص٣٥٦).

مُعَبّرينَ تراهم في منازلهم كأنما هي أجداثٌ لمن غَبَرا

يفتشون على ما ضاعَ من ذَهَبٍ وفضةٍ، فَيَروْنَ العيّ والحصرا

يبكي عليهم وهم يَبْكون من حزناً على أغنياء أصْبَحوا فُقَرا

كانوا يميرون بالأعطاء سائلهم فاستوجبوا مِيرة العافي بغير مِرا

يا ليلة محّصتْ وزر الذين رَمَوا بها ولم يجدوا من دونها وزرا

لو ملجأ أو مغارات رأوْ ولهم ولّوا إليه لنفعٍ يَدفع الضّررا

[يُقر النار عقاب][1] قربها سخط والبعد عنها رضىً ما زال معتبرا

نارٌ عَلَتْ فأرتنا كل فاقرةٍ ماكلّ نار تراها العين نار قرا

جالتْ فجارت علينا في تعاهدها وما صفى وِرْدها حتى سقى الكَدَرا

وتلك مائدة يدعو لها الجَفَلى[2] من المصائب لا تدعو لها الفقرا

عمَّ العَزَاء بها كل الورى فغدا فيضُ المدامع فيها يُخجل المطرا

كم من ربوع اعادتها لنا دمناً ينوحُ فيها غراب البين ان عَبَرا

ويندبُ الرائح الغادي محاسنها مخافة أن يرى في غيرها غيرا

لا يملك الصبر فيها من أصيب وليس يكسب أجراً غير من صبرا

[ب - ٢٧]

يوم الثلاثاء كيوم الحشر في ثان اذا اشتبهت في المنظر النظرا

انسى الحريق به ذكر الحريق بالهمّ والغم من صاحٍ به سكرا

---

(١) كذا في الأصل، والمعنى مختل مع اضطراب في الوزن.

(٢) الجفلى: محركة، أو الجُفَالةُ بالضم هي الجماعة، وما أخذته من رأس القدر بالمغرفة وما نفاهُ السيلُ (القاموس: ١٢٦٣).

نــارٌ كـأن بهـا هَـوْلُ العِبَـادِ اتـى — علـى العبـادِ لأحـراق الـذي كَفَـرا

كـم فرّقـت شمـل أنـس كـان — فالنـاس ان قـرّذا منهـا فـذا نفـرا

ما شَدّ ماجَمعت اُذنَاي صارخُها — ليلاً فأوْقَرَ سمعي من روى الخـبرا

لا غـرو ان مَطّـرتْ منّا القلوب — فهي التي حرّها قـد فطّـر الحَجَـرا

حكى جَهَنّم ارسال الشّواظ لها — لما عليه مـذاب القطـر قـد قطـرا

وكـم اتتنـا جلابيبـا مخرقـةً — حقيقـة لامجـازاً يظهـر العـبرا

وطال ماخدّ فوق الأرض جامحها — من غار حـرّ نسينا فيه غـار حَـرا

ضنى علي الورق المبيض كاتبها — فاحمرّ واسودّ اذ فيه اللهيب قـرا

فلو راى هولها الورّاق لأنجرحت — منـه القريحـة أو أنْسَتْه مـا شَعَرا

ومـا يضـئ سـراجاً بعـدها أبـداً — لِما رَأى مـنْ لهيب حولـه استعرا

وكم قناطر قد هُدّت وقد هُدمت — وكـم مهـول بنـاء عيـلَ فانـدثرا

ومـاءُ فـوّاره مـا زال منبجسـاً[1] — لم يبق مذ غـاض لا ورداً ولامـدرا

وهيـل مـن فوقـه مـا هِيـل مـن — أضـحت مُسَنّدة تستوقف البَصَـرا

حـروبُ نـارِ لنـارِ الحـرب قـد — مُذا اقبلـت بجيـوش تُـذهل الفكـرا

تحكـي الحـراب غـداة الطّعـنِ — لمـا تباشـر في احراقهـا البشـرا

لو نال ايوان كسرى بعض صدقها — لانهـدّ منـه بنـاء العـز وانكسـرا

القى السلام اليها الشام من خور — ولم يكن قبل هـذا يعـرف الخَـوَرا

ولم يرَ السيف والرمح الأصم لـه — عوناً فأحرق حتى القـوس والـوترا

شرقاً وغرباً لبيت الله قـد لفحـت — لمـا ظـلام دجاهـا امتـدّ واعتكـرا

---

(١) بجس الماء: شقّه، والانبجاس: النُّبوع في العين خاصةً أو عام (قاموس ٦٨٤).

[أ - ٢٨]

وجاور الجامع المعمور حادثها فكاد يَنقضّ حتى ينقض الجدرا
وكم تأبط شراً هولها فسرى على المنارة ناراً تقدَح الشررا
دبّت إلينا دبيب النمل فاحتكمت في صورةٍ أعجَزت في وصفها
قضى علينا بها الرحمن فاقتربتْ في ساعةٍ فرّقتْ احزابنا زُمرا
أبلَت جديداً وأفنَتْ حاصلاً يد الخراب لها ماكانَ قد عمَرا
هذا قضاء إله العرش قدّره ومن يردّ قضاء الله والقدرا
وهذه عبرة جاءتْ لمعتبرٍ في كل أمرٍ عجيبٍ ينعمُ البصرا
فالحمد لله اذ باللُطف أخْمَدها عنّا وسلّمَ منها هذه الصّورا
والشكر لله اذ كانت مواهبه تزيد بالفضل والنعمى لمن شكرا
إذْ صاننا وحمانا في منازلنا بكافلٍ بأسُهُ أهْدَى لنا الظفرا
لولاه في الشام لم يحفظ لنا وطن ولا قضينا به من دهرنا وطرا
سعى فَشَمّرَ ذيل العزم حين بهمةٍ لم تفتنا الهم والحذرا
كُفّا لغيبته نخشى الشقاء فمذ وافى رأينا نعيم العيش قد حضرا
فأخْمَدَ الله تلك النار حين طغت بالأمر من نائب السلطان والأُمرا
وجاء بالنصر والفتح المبين لنا على العدو الذي لولاه لانتصرا
سيفُ حماية دين الله يُشهره فدام فينا بحُسن الذكر مشتهرا
وكيف لا يطفئ النيران مقدمه والبحر من فعله والأسم قد ظهرا
والليث يحمى الشرى والرعب فكيف إنْ راد منه اليأس أو زأرا

فـالله يحميـه مـا غنّـت مطوقـة فحركت بالنسيم العُـود حـين سـرا

ونظمت يوم السـبت مسـتهل ذي القعـدة بدمشـق المحروسة سـنة اربعـين وسبعماية بحمد الله تعالى.

* خدمة المملوك محمد الخياط *



الملحق الثاني

المقامة الدمشقية المعروفة بـ «الصفو الرحيق في وصف الحريق[1]»

تأليف

عمر بن المظفر

المعروف بابن الوردي (المتوفى سنة ٧٤٩هـ)

حدث غيث بن سحاب عن ندى بن بحر قال: بينما أنا ذات ليلة من سنة سبع مائة وأربعين، وقد أويت من دمشق ﴿إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾[2].

وإذا بضجيج أهلها قد ملأ الآفاق، والنيران في اسافلها وأعاليها قد بلغت التخوم والطباق، فبادرت إلى الجامع الأموي لأمنه ويُمنه، فوجدت العالم كأنهم قطعة لحم في صحنه، وقد أرسل على أحاسن دمشق ﴿شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ﴾[3]، وقربت النار من جامعها الخضر[4] حتى كاد يحصل

---

(١) ديوان ابن الوردي عمر بن المظفر ت ٧٤٩ هـ، تحقيق: د. أحمد فوزي الهيب المدرس بجامعة الكويت، دار القلم الكويت، الطبعة الأولى (١٤٠٧ هـ ــ ١٩٨٦ م) وللمقامة نسخة في معهد المخطوطات العربية مصورة عن دار الكتب المصرية برقم (معهد المخطوطات) ٧٨٩ أدب ومنها نسخة ثانية في توبنجن".

(٢) سورة المؤمنون (٥٠).

(٣) سورة الرحمن (٣٥).

(٤) الخضر: هو الرجل الذي علم موسى عليه السلام، كما ورد في سورة الكهف، ويقال: إنه كان معاصراً لإبراهيم عليه السلام، كما قيل غير ذلك، ويعده المتصوفة من كبار الأولياء وجعلوا له مقامات كثيرة، (دائرة المعارف الإسلامية المترجمة ٨/ ٣٤٧).

منه الياس[1]، وثارت النار لأخذ الثأر مشرفة في كلبها[2]، وجاءت ﴿حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝﴾ [3] فتبت يدا أبي لهبها[4].

حمراءُ ساطعةُ الذوائب في الدجى ترمي بكلِّ شرارةٍ كطرافِ

فكم أحزاب[5] زمر[6] جاثية[7] كغاشية[8] ذلك الدخان[9]، وكم صاحب دار ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾ [10] ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝﴾ [11] وقال قد أتى الحريق على مال هبة لم يكن فـ ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾ [12].

فقيل تخلصُ نفسُ المرءِ سالمةً وقيلَ تشركُ نفسُ المرءِ في العطبِ

ولما استولى الحريق من الدور على المجالس السامية، وترقى في الأسواق إلى الجنابات العالية، وصعد من المنارة [الشرقية] إلى المقر الأشرف، ووصل

(١) الياس عليه السلام: نبي أرسله الله إلى أهل بعلبك فدعاهم إلى الإيمان وترك عبادة (بعل)، فكذبوه وأرادوا قتله، فهرب منهم وأختفى حتى أهلك الله ملك بعلبك، فأتى إلى الملك الجديد ودعاه فأمن، ولقد ورد ذكره في القرآن الكريم، سورة الصافات ١٢٥، (البداية والنهاية ١ / ٣١٥).

(٢) أي اشتدادها.

(٣) سورة المسد (٤).

(٤) قال تعالى: [تبت يدا أبي لهب وتب] (سورة المسد ١).

(٥) السورة رقم (٣٣) في القرآن الكريم.

(٦) السورة رقم (٣٩) في القرآن الكريم.

(٧) السورة رقم (٤٥) في القرآن الكريم.

(٨) السورة رقم (٨٨) في القرآن الكريم.

(٩) السورة رقم (٤٤) في القرآن الكريم.

(١٠) سورة الزلزلة (١).

(١١) سورة عبس (١).

(١٢) سورة الإنسان (١).

منها إلى المقام الكريم فنُكّر منه ما تعرف[1].

سمتْ نحوه الأبصار حتى كأنهُ بناريهِ من هنّا[2] وثمّ صوالي

وكيف لا؟ وهي المنارة لهذا المعبد العظيم، والمقاسمة له في نحو الحسن فمنها الإعراب في النداء ومنه البناء في الترخيم، فتبادر إليها فتية قالوا: النار ولا العار، رزقهم الله الجنة ﴿فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ۝﴾[3]، وهذا وقد ذوى باللهب بنفسج الظلماء، وشب لينوفر[4] النار وقوي على الماء، فارتاع النائب بدمشق لهذه النائبة، ورأى قلوب الناس كأموالهم ذائبة، ووتطيّر بذلك من تكدر دولته فكان كما تطيّر. وتضوّر هنالك من تغير صولته فسبحان من لا يتغير، وصادم النار فغلبها وكيف لا و"تنكز" تفسيره البحر، وقابل كبدَ جمرها بالقطر، وعُنّقَ لظاها بالنحر، وكاثرها بالماء الذي بلغ من وجهين القلل، وسدّ بمماليكه وأمرائه خلل هذا الأمر الجلل، وأحكم بالماء والهدم إخمادها، واستأصل شأفتها بالردم وأبادها، وأصبح أهل دمشق حيارى، ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾، لا يكادون من الوجل يستثبتون اسمها، ولا يعرفون حد حانوت ولا دار ولا رسمها.

فحقّ لمثلي أن يقولَ لمثلها فديناكَ (من ربعٍ وان زدتنا) كربًا

(وكيفَ عرفنا رسم من لم يدع فؤاداً لعرفانِ الرسوم ولا لبّا

كأنّ نجوم الليل خافت مغارَهُ فمدّت عليها من عجاجتهِ حجبا

(١) تصنع مصطلحات نحوية.

(٢) اسم إشارة للبعيد.

(٣) سورة البقرة (١٧٥).

(٤) (نيلوفر) وهو نوع من النبات.

فلو رأيت درج الساعات خالية من دقائق الأرصاد، ودكك[1] الشهود تتلو ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ۝﴾[2]، والدهشة مدهوشاً عنها، واللبادين ﴿كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝﴾[3] فلا إليها ولا منها.

ذكَـرَتْ جواهرَهـا بحـرّ النـارِ بـرْدَ مغاصـها
أصـحابها كحمـائمٍ ناحَـتْ علـى أقفاصـها

والوراقين وقد انتظمت أوراقها في اغصان اللهب، وتطايرت الصحف كأنها فضة قد مسّها ذهب، قال: وما نفض الناس غبار هذا القادح، حتى وقع بالمدرسة الأمينية حريق فادح، عيل عليه الصبر، وتمنوا قبله القبر.

ما كانَ أقربَ وقتاً كانَ بينهما كأنهُ الوقت بين الورد والغربِ

فقلت لمن يليني وقد عدمت الاصطبار، [و] كنت أسمع أن دمشق جنة فإذا هي نار.

فأحفظـهُ هـذا الكـلامُ وغاظـهُ وأنشـدني في صـدّه وازوراره
دمشقُ - كما قد كنت تسمعُ - ألم ترَهـا محفوفـةً بالمكـارهِ

فو السوق الكُفَت[4] ما كفت النار عنه لسانا، ولا ثنت سوابقها عنه عنانا، ونعوذ بالله من نار علكت عليه اللجم، وسبكت مهجته حتى أفصح التأسف له الألسن العجم، ووثبت إليه من بعيد، وقالت ﴿ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾[5]، ويالسوق الخيم كيف خيمت عليه، وتجلّد لها والنار بين جنبيه، ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم

---

(١) جمع دكة: بناء يسطح أعلاه للجلوس عليه.

(٢) سورة الفجر (١٤).

(٣) سورة القارعة (٥).

(٤) سوق الخيل الشديدة، وفيه مسجد الملك العادل (الأعلاق الخطيرة، قسم مدينة دمشق ١٥٩).

(٥) سورة الكهف (٩٦).

مُؤْصَدَةٌ ۝ فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ ۝﴾[1]، فلولا اللطف ما مدّ لها طنب، ولا سلم لعروضه وتد ولا سبب[2]، ولكن تداركه من الماء والتراب برد وسلام[3]، وشكت خيامه الظمأ فقيل لها سقيت الغيث أيتها الخيام، ويالسوق القسي كيف تبرأ منه قوس السحاب، وشويت من قسيه كل نون كانت تسبح في ماء الذهب فآلت إلى الذهاب، ورمى بسهام من النيران، [و] قالت له [النار] قد دخلت في باب " أن " من الأنين وستدخل في باب " كان "، فقد قست على قسّيك ناري، وطلبتها بأوتاري، وجعلت كل نون أيضاً، وقرأت لها في ملحمة ابن عقب من مصارع القرون ما كفى، هذا وقد أضاء الليل بالنار حتى صدق قول القائل:

.... وقالَ الدجى يا صبحُ لونك

فبينا الحناي في المرقب[5] من اللهب، وقلوب أصحابها في المعرة[6] وأعينهم في حلب[7]، وإذا بالنائب قد أقبل، وصبره مقلّص ودمعه مسبل، وقال: واأسفا لمدينة عمرتها، والهفا لأوقات ثمرتها، كيف تصل النار إلى محاسنها، وتتمكن من أماكنها، فقال له [لسان] القدر الصادع: هذه أول

---

(١) قال تعالى: ﴿ إنها عليهم مؤصدة في عمد ممددة ﴾ (سورة الهمزة ٨ ــ ٩).

(٢) تصنع مصطلحات عروضية.

(٣) قال تعالى: ﴿ قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم ﴾ (الأنبياء ٦٩).

(٤) عجز بيت للمعري، صدره: وقال السها للشمس أنت خفية. (شروح سقوط الزند، ٥٣٦/٢).

(٥) قلعة حصينة جنوب اللاذقية تشرف على البحر الأبيض المتوسط. (معجم البلدان ٢ / ١٠٨).

(٦) أي معرة النعمان.

(٧) حلب الشهباء مدينة عظيمة قديمة واسعة كثيرةالخيرات طيبة الهواء تقع في بلاد الشام. (معجم البلدان ٢٨٢/٢).

عقوبتك بإخراج الكلاب والضفادع[1] فالعجب أخبث سجيه، وللكلاب ـ كما قيل ـ خطيّه.

تنكزَ[2] " تنكز" بدمشق تيها ... فقاسوا منهُ أنواعَ العذاب
وقالوا للضفادع ألفُ بشرى ... بميتتهِ، فقلتُ: وللكلابِ[3]

ثم إن النائب بادر [بأصحابه] إلى اطفائها ولكن كيف، وأحكم نسخها ولاعجب في النسخ بآية السيف[4]، وجاست[5] مماليكه الحسان خلالها وأصداغهم كالعقارب وشعورهم كالأفاعي، وتمت لهم الكرامة الأحمدية[6] [باقتحامها] فسلام الله على ابن الرفاعي[7]، وأشفق الناس من مسّ سقر، ورحموا عزيز قوم ذل وغني قوم افتقر، واختلجت الظنون في سبب هذا الأمر، وأعملت الفكر في مسعر هذا الجمر، بغيظٍ أهم الصبح فتنفس الصعدا، وحنق انفلق له الفجر زفيراً وكمدا، حتى أظهر الله تعالى أنه من النصارى، الضالين الحيارى، قصدوا به الجامع والمشاهد، ومدارس العلم والمساجد، لا بل دمشق

(١) كان تنكز قد أمر بقتل أكثر الكلاب بدمشق، ثم حبس الباقي وحال بين إناثها وذكورها، كما كان قد تبرم من نقيق الضفادع فأخرجها من الماء. (تتمة المختصر ٢ / ٤٦٧).

(٢)ورد هذان البيتان في تتمة المختصر ٢ / ٤٦٧. وفي ديوان ابن الوردي: ص ٢٢٠.

(٣) في تتمة المختصر ٢ / ٤٦٧: (تنكز)، والنكز: الرذل من الناس.

(٤) هي قوله تعالى: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وهي الآية الخامسة من سورة التوبة. (مختصر تفسير ابن كثير، ٢ / ١٢٦، محمدعلي الصابوني، دار القرآن الكريم، بيروت ١٤٠٢).

(٥) قال تعالى: [.. فجاسوا خلال الديار] (سورة الإسراء ٥).

(٦) نسبة إلى الشيخ أحمد بن علي المعروف بابن الرفاعي.

(٧) أحمد بن علي (٥١٢ ــ ٥٧٨ هــ)، ولد في واسط بالعراق، وكان صالحاً فقيراً متصوفاً انضم إليه كثير من الأتباع تفوي بأم عبيدة قرب البصرة، (وفيات الأعيان ١ / ١٧١)، ولما يـزل أتباع طريقته الصوفية يزورون قبره إلى الآن.

بأمتها، لا بل بلاد الإسلام برمتها، بمكاتبات من ملوك الافرنج وأشباههم، ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾[1]، وجهزوا لهم من البحر سكاكين مسمومات، ليذبحوا بها الذبائح للمسلمين ﴿فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ﴾[2]، وحرضوهم على حريق الحرمين عناداً وكفراً، وضمن لهم القسيسون بذلك الجنة ولكن الحمرا، فعل من يعبد ما صوره بيده في الحائط، ويصلي متلطخاً بالبول والغائط، فغيبهم الله عن صوابهم، وحسبوا حساباً فكان حساب الدهر غير حسابهم.

ما أليق أمةَ النصارى ... بالخمرِ تباعُ والدياثهْ

من أين لمثلهم حساب ... والواحد عندهم ثلاثه

فتهيب من تغيب عن الفهم، وقال: لا ترموا النصارى بهذا السهم، وخوّف من انتصار ملوك البحر لأهل دينهم، وحذر من أخذهم بثأر ملاعينهم، فأنشد بعض الفضلاء، بيت أبي العلاء:

أعبادَ المسيح يخافُ صحبي ... ونحنُ عبيد من خلق المسيحا[3]

فما كان إلا أن نائب الشام، أخذته الغيرة للدين والاحتشام، وأمسك منهم أهل الريبة، وقرّرهم فأقروا بتفاصيل هذه المصيبة، فاخذتهم الولاة بكل سبب ﴿يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾[4]، وضرب يجعل دمع العين صبّيا، (ودم الجنين صبيبا، فعوقب كل منهم من بياض رأسه وسوط جلاده بشيبين، وما كفاهم) عيب الشرك حتى ضموا إليه عيب الفساد فجمعوا بين عيبين، فجعلوا وهم

---

(١) سورة التوبة (٣٢).

(٢) سورة الحج (٢٨).

(٣) شروح سقط الزند (١/ ٢٤٧).

(٤) سورة المزمل (١٧).

تحت العقوبة يتشاتمون، ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [1]، واشتد خصام الكفرة الفجار، ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾﴾ [2].

لله هاتيك السياطُ كأنها ... أقلامُ مسكٍ تستمدُ خلوقا

كتبت تواريخ الحريق فرَصعتْ ... في كل جسم كالرخام عقيقا

ولما أخذ منهم السحت الذي جمعوا، وصرف شرعاً في ترميم ما صنعوا، ورد المرسوم الشريف بتسميرهم على الجمال التي من دينهم بغضها، وجعلهم عبرة للبرية فما بكت عليهم سماؤها ولا أرضها[3]، وصلبوا باعتقادهم صلب المسيح ﴿وَمَا صَلَبُوهُ﴾ [4] ونصبوا أغراضاً لسهام السب بما كسبوه، فقالوا: أوسعتمونا سباً ورحنا بالإبل[5] قلنا: بل الإبل راحت بكم [وكذا يغلط من هبل].

لا أنكر التسمير في أحداقهمْ ... فعذاب مثلهم حلال مطلق

من كلّ من ضاق الفضاء بخبثه ... حتى ثوى فحواه لحد ضيق

زرق العمائم أي موتٍ أحمرٍ ... قد ساقه هذا العدو الأزرق

---

(١) سورة القلم (٣٠).

(٢) سورة ص (٦٤).

(٣) قال تعالى ﴿ فما بكت عليهم السماء والأرض ﴾ (سورة الدخان ٢٩)

(٤) سورة النساء (١٥٧).

(٥) من أمثال العرب قولهم: (اوسعتهم سباً وأودوا بالإبل). قاله كعب بن زهير لأبيه وقد استاقت بنو أسد فهجاهم بقوله:

شرقاً وغرباً لبيت الله قد لفحت ... لما ظلام دجاها امتدّ واعتكرا

(المستقصى من أمثال العرب، ٤٣١/١، الزمخشري، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٧هـ).

ثم طيف بالمسمرين نهارين، ووسطوا[1] لتصلى كل جثة نارين، وحملت جيفهم إلى حفيرعميق، وأرادوا لنا [حريق] النار فأراد الله لهم نار الحريق.

وعادتْ دمشق فوق ما كان وأمستْ عروساً في جمال مجددِ

وقالت لأهل الكفر موتوا فما أنا إلا للنبي محمد

فلا تذكروا عندي معابدَ دينكم فما قصباتُ السبق الا لمعبدي[2]



(١) أي ضربوا بالسيف في خاصرتهم.

(٢) وردت الأبيات في تتمة المختصر (٢/ ٤٦٦).

الملحق الثالث

رشف الرحيق في وصف الحريق

مقامة في حريق دمشق (سنة ٧٤٠هـ ـ ١٣٣٩م)

تأليف

صلاح الدين خليل بن ايبك الصفدي

(٦٩٦ ـ ٧٦٤هـ / ١٢٩٦ ـ ١٣٦٣م)

تقديم:

مؤلف هذه المقامة، أحد أكابرأدباء عصره، ومن المؤرخين المعدودين، وله زهاء مئتي مصنف، ولد في صفد (بفلسطين) واليها نسبته. وتعلم في دمشق فعانى صناعة الرسم فمهر بها، ثم ولع بالادب وتراجم الاعيان. وتولى ديوان الانشاء في صفد ومصر وحلب، ثم وكالة بيت المال في دمشق. حتى وفاته فيها[1].

ومن بين تصانيفه ورسائله الممتعة هذه الرسالة الصغيرة التي وضعها على شكل مقامة، وَصَفَ فيها حريق دمشق الذي كان قد عاصره، ويظهر أنه جارى فيها مقامة صديقه ومعاصره عمر بن مظفر المعروف بابن الوردي (٦٩١ ـ ٧٤٩هـ)[2].

---

(١) الاعلام ٢/٣١٥ ط ٦ (١٩٨٤) دار العلم للملايين ـ بيروت، وانظر ترجمته في الكتب التالية: ذيل العبر ٣٦٤، ابن كثير: البداية ١٤/ ٣٠٣، السبكي: طبقات ٦/ ٩٤، ابن تغري بردي: النجوم ١١/ ١٩، ابن العماد: شذرات ٦/ ٢٠٠، ومن منشآت الصفدي: مخطوطة في جامعة استانبول القسم العربي رقم ٣٧٢٨، كتب سنة ٨٤٣هـ، ١١٥ ورقة.

(٢) الاعلام ٥/ ٦٧

اذ كانت بينهما مناقضات شعرية لطيفة وردت في مخطوطة (ألحان السواجع)[1] للصفدي.

وضع الصفدي اسماً لمقامته هو (رشف الرحيق في وصف الحريق) وهو الاسم الوارد في اعلى المخطوطة الفريدة من المقامة و المكتنزة ضمن رسائل وكتب اخرى بمكتبة الاسكوريال باسبانيا حاملة الرقم ٥٦٣[2]، وقد صورها لي مشكوراً الصديق البروفسور يان يوست ويتكام.

وجاء اسمها في بعض المصادر (رصف الرحيق) أو (كشف الرحيق)[3]، وفي بعضها (وصف الحريق)[4].

تضمنت المخطوطة عشر صفحات في مقدمتها صفحة تحمل عنوان الكتاب ورقمه، وهذا من عمل المكتبة. والصفحة الثانية مع ستة أسطر من الصفحة الثالثة التي تليها معلومات عن تأليف الصفدي نقلت عن قلمه ثم تبدأ المقامة (محل البحث) بخط مقروء واضح لكن الصفحة ما قبل الاخيرة تعرضت لتشويه وسواد يظهر انه بسبب التصوير وقد طلبت غيرها، ولما وصلتني النسخة المصورة الاخرى كانت شبيهة بالأولى فاضطررت لإخراجها كما هي مستفرغاً الوسع في قراءة وتدوين ما في النسخة ووضعت نقاط في

---

(١) حققت جزءاً منها الزميلة فريدة العزوزي ضمن اطروحتها لنيل الليسانس من جامعة تطوان (المغرب).

(٢) اشار بروكلمان لها ضمن المجموعة المرقمة ٥٢٤، كما في كتابه: GAL 1133 وفي فهرس الاسكوريال المطبوع بباريس سنة ١٨٨٤ ص٣٥٢:

LES MANUSCRIPTS ARABES DE L`ESCURIAL, H ARTWIG DERENBOURG,PARIS 1884 P.325. ı

(٣) بروكلمان GAL ١١٣٣.

(٤) الاعلام ٣١٦/٢ (مشيراً إلى انها مخطوطة).

محل الكلمات أو الاسطر غير المقروءة. وكان هذا غاية مسعاي مع توضيح بعض الالفاظ التي اعتقدت انها كانت بحاجة إلى توضيح. والله الموفق.

مقامة تسمى:

رشف الرحيق في وصف الحريق

للصلاح الصفدي عفا الله عنه

حكى شُعلة بن أبي لهب، عن أبي الزناد شهاب، أنه قال:

لم تزل اذني مُتَشَنِّفة[1] باوصاف دمشق، متبلددة[2] حتى رأيت الحزم شدَّ الكور[3] اليها، والحُزم، فأزمعت السير،ولم أزجرْ الطير، وقطعت أديم الأرض بالسير، وركبت اليها مطا الشوق قَبَل مطايا السَّوق، ولم يتلفت القلب إلى الوطن، ولا حنَّ بحب إلى الوطن، فما سرت فيها إلى روض إلاّ وأجلسني من النرجس على أحداقه، وقام السَّرو من السرور بين يديَّ على سياقه، وجرى الماء في خدمتي لكرم إغداقه، وظلَّني الروض لطيب أعراقه ومدَّ الغصن لي ستائر اوراقه، وتروى بانفاسه حرّ الصبابة والجوى، وداويت بممدود الهوى مقصور الهوى، وفيه قلت:

شَوّ قَتَنَا إلى الجنان فزدنا ... في اجتناب الذنوب والآثام

ومنها في وصف الجامع:

وكم طلع في سما صحنه من ثُريا، وكم تمنى القمر لو كان من نجومه

---

(١) الشَّنَف، جمع شُنُوف، النظر إلى الشيء.. كالمتعجب منه (القاموس / ١٠٦٧).

(٢) ابلد: التصفيق، والتلهف، (القاموس / ٣٤٣).

(٣) الكُور: بالضم، الرَّحْلَ جمع اكوار (القاموس /٦٠٧).

فما اتفق له ذلك ولا تهيّا، وكم جلبت عروسة في عقود وقود، وكم تمتعت فيه الأبصار بوجوه تخجل البدر في ليالي السعود، وكم من ملح له زائدة، وكم من اعطاف رُتبت في صحنه مائدة.

قال: فلما رأيت مجموعه المختار وان العيون تودّ لو تنسج له من شعر جفونها أستار، قال: فبينما نحن ذات ليلة وقد وردنا حمى المضاجع، ودخل ضيف الطيف على مقلة الهاجع[1] واذا بالأصوات تعجُّ، والدعوات تلجُّ أبواب السماء وتَلجُّ، فسألت الخبر ممن عثر[2]، فقال ان الحريق وقع قريباً من الجامع فانظر إلى سبج الجو كيف انتشرت فيه عقائق الذهب اللامع، فبادرت إلى صحنه والناس فيه قطعة لحم، والقلوب ذائبة بتلك النار كما يذوب الشحم، رأيت النار وقد نشرت في حداد الظلام عصائبها، او صعدت إلى عنان السماء غد مات ذوائبها:

ذوائب لجّت في عُلُو كأنها   تحاول ناراً عند بعض الكواكب

وعَلت في الجو كأنها اعلام ملائكة النصر، وكان الواقف في الميدان يراها وهي ترمي بشرر كالقصر، فكم زُمر أضحت لذلك الدخان جاثية، وكم نفس كانت في النازعات وهي تتلوا ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ ۝١﴾[3]، وثارت إليها من الأرض لأخذ الثار، وأصبح صخرها كما قالت الخنساء:

" كأنه علم في رأسه نار "   ....

(١) هجع يهجع هجوعاً، نام بالليل. المصباح المنير /٦٣٤.

(٢) يقال عثَر عليه عثراً وعثوراً اطلع عليه و (أعثره) غيرهُ اعلمه به (المصباح / ٣٩٣) و (العثور) الاطلاع (القاموس /٥٦٠).

(٣) سورة الغاشية: ١

فبكت وكانت للتوحيد شبابه وابتلى رأسها من النار والهدم شقيقة، وادار الحريق على دائرها رحيقه:

وفي الأرض من حيها صفرة فما تنبت الأرض إلاّ بها

وترقى اليها اولو الحزم من النظارة، وكادت نارها تكون كنار القيامة وقودها الناس والحجارة، هذا وبنفسج الظلام يدور، ولينوفر النار يشبّ على الماء ويفور، حيث نثرت غصون ذوائب النار جلّنار، شررها في النواحي، و الدخان روضة سوسن تخللها نرجس و اقاحي، وعقد الدخان سماء اخرى واطلع الشرار فيها كواكب زهرا، فكأن أهل دمشق دعوا طارف النيل والفرات ليقرى، وخافوا ضلاله فرفعوا له من النار في الظلماء ألوية حمراء، إلى أن اتى بها البحر لازال نضره عجاجاً، ولا برحت سيوفه تكاثر البحر امواجاً، فانكسفت لمّا رأت من وجهه سراجاً وهاجاً وطغيت لما ان رأت جوده عذباً فراتاً وبأسه ملحاً أجاجا، ولما طلع في روض السماء ياسمين النهار وعاد اهليلجاً[1] ما رُؤي كالليل من الجلنار، وقف النادبون عليها الرسوم ورأوا صنع النار، التي عكست نار الآخرة فكان لكل منها جزء مقسوم:

فلم تدر رسم الدار كيف تجيبنا ولا نحن من فرط الجوى كيف

وأصبح باب الساعات وهو من أبواب الساعة، وخلت بصاحب الشهود. من السنة والجماعة، وعادت إلى الدهشة[2]، وقد آل امرها إلى الوحشة، وقد تلّت النار عرشه، كأن لم تريها سميرا، ولا شاهدت من مائها وقماشها جنة وحريرا، ولما رأيت تلك الاطلال الدائرة، وفسح هاتيك الظلال المفضلة

(١) الاهليلج: ثمر منه اصفر، ومنه أسود، وهو البالغ النضج (القاموس /٢٦٩).

(٢) الدهشة، قيسارية ملاصقة للجامع الأموي، وكان بها دار الذهب وقد مرّتفسيرها.

بالهاجرة، وخطوطها وزواياها كيف حاط بها سوء الدائرة، فقلت عند مشاهدة ذلك الحال في الحال:

حريق دمشق قد بدا لعياني ... ليُظهر لي عند البيان مغاني

غدت ناره في الجو تعلو وترتقي ... كأن لها عند النجوم أماني

لقد ضوء الأفاق لامع برقها ... وما كل برق شمته بيماني

وقد كان يمحو آية الليل ضوءها ... ويبدى نهاراً بعد ذلك ثاني

ونالت عنان الجو حتى رأيتها ... تصرفه في كفها بعنان

وطارت إلى نهر المجرَّة في ... ليقصد مشي الحوت والسرطان

وابصر أهل النيل لما ترفعت ... بخفض شرار في سما ودخان

كأن دخان النار عثْير[1] معرك ... وكل شرار فيه مثل سناني

ولو لم تكن دار الاعادي لاغتدت ... دُجاها بادٍ بكل مكان

ولا صحف بالزعفران قميصها ... سروراً ولا.. بكل لسان

... بعض الناس غبار ذلك الهدم ولا رماد ذلك الصدع الشديد...

............حريق ثان ودهمت سقر النار السلام الظلام في السوق والكفت

كيف باد وفتت الاكباد وبالسوق الخيم كيف ذهب وعدم النص وعلى الكافرين بتبت يدا أبي لهب، لقد تمسكت النار باطنابه وتجلد لها والنار.... كل عمود.

... كان..

فقال سقيت الخيام، وما لسوق القسي كيف مُحي من الاوام، من الوجود

---

(١) العثْيَرُ: التراب، والعجاج،وما قلبت من الطين بأطراف رجليك (القاموس ٥٦٠).

وقُسى لم تبق لقوس عليها فلم تعطها النار باريها كأنما كان للنار رعد القسي اوتار اوكان سيخها كان محققاً كان بها كان معلقاً بثلث الليل بعدما رقّت حواشيها.. عليها غبار فكم قسي توفر من النار وعظم... وما كانت حنايا.. ولم تهرب عن نفسها تقبل ولم ينبت لها. واتصل إلى غرضه ولم تبيض لعرق وترها نبضه، وقد قال لها لسان النار، وقد سمعت بهذه الحادثة من ملحمة ابن عقب أو اتصل بناها بقوس السحارب فانتظره وارتقب كيف عقلت عن هذه الحادثة النازلة واتت عدة قوم قليلاً من الليل ما يهجعون، وكيف نمت ولا عجب لمن نعس وهو ذو قرون، قال فلم تزل الناس من أمر هذه النار في قلق وحدس نفى عن قلوبهم القرار، ورمى جفونهم الارق وحنق دون الصبح منه لو تنفّس رد الفجر لو انفلق حتى أظهر الله تعالى ان النصارى قصدوا الجامع بذلك وتخيلوا ان النار تلعب في جوانب دمشق:

(وما الناس الآ هالك وابن هالك)، وتوهموا ان فعلاتهم المذمومة تغطي مساويها الليالي الحوالك.

تم المجموع المبارك

وصلواته على أشرف أنبيائه..

سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

الملحق الرابع

بيان الإمام تقي الدين السبكي حول أهل الكتاب والتحذير من الغزاة التتر

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا وآله وصحبه وسلم

هذه نسخة الدَرْج[1] الذي قُرئ بدار الامارة بدمشق المحروسة

على الأمراء والمقدّمين والقضاة في سابع شعبان المبارك سنة سبع وسبعمائة، للشيخ الأمام العالم، العلامة شيخ الإسلام، وبركة الأنام، مفتي المسلمين، وبقية المجتهدين، وقدوة المحققين [و] تاج العارفين ولسان المتكلمين وحجة الراسخين ورحلة الطالبين [و] وامام الزاهدين ومنار المجاهدين، أوحد عصره، وفريد دهره، ناصر السُّنة، وقامع البدعة، الحجة النوراني، والمجاهد النوراني، بقية السلف الصالحين، تقي الدين، قدس الله روحه، ونوّرَ ضريحه.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾[2].

وأخبر رسول الله محمد (ﷺ) انه لا تزال من امته طائفة هم على الحق قائمون ظاهرون لا يضرهم اذا خالفهم المخالفون، وخذلهم الناصرون، لأنهم

---

(١) الدَرْج: الذي يكتب فيه (ويحرّك، وبالتحريك: الطريق (القاموس / ٢٤٠).

(٢) التوبة: ٣٣.

تمسكوا بدينه وعنه، مجاهدين يُقاتلون المشركين ومن هم على الشريعة خارجون ويقاتلون الذين أوتوا الكتاب ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ (1).

واشهد ان لا اله إلا الله وحده لا شريك له إلاه كل الخلق إليه صائرون. وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الصادق المأمون.

أما بعد:

فان الله سبحانه وتعالى رضى الإسلام لنا ديناً، كما قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ (2) وأخبر أنه لا يقبل ديناً غيره فقال: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ (3).

وقال: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ (4).

وجعل محمداً (ﷺ) آخر الرسل وخاتم الانبياء كما قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ (5) وجعل امته خير أمة أخرجت للناس كما ذكره في كتابه العزيز.

وقال النبي (ﷺ): «انتم توفون [أ - ٣٥] سبعين أمةً انتم خيرها وأكرمها على الله تعالى»، وجعل دعوته عامةً لجميع الخلق عربهم وعجمهم واسودهم

---

(1) التوبة: ٢٩.

(2) المائدة: ٣.

(3) آل عمران: ٨٥.

(4) آل عمران: ١٩.

(5) الأحزاب: ٤٠.

وأحمرهم وانسهم وجنّهم أهل الكتاب فهم وغير أهل الكتاب كما قال تعالى:[1] ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [2] وقال تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ١٥٨﴾ [3]

فقال النبي (ﷺ): «فُضّلْت على الأنبياء بخمس، جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وأحلت لي الغنائم ولا تحل لأحد قبلي، ونُصرت بالرعب مسيرة شهر». وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة[4].

وقال (ﷺ): «والذي نفسي بيده لا يسمع بي من هـذه الأمـة يهـودي ولا نصراني ثم لايُؤمن بي الا دخل النار».

وقد دعا الله في كتابه جميع أهل الأرض عموماً وخصوصاً إلى دينه وفرضه عليه وعلى امته جهاد ومن لم يتبعه فقال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢١٦﴾ [5]

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ

---

(١) مفتاح الكنوز السنة: ٦٣

(٢) سبأ: ٢٨.

(٣) الأعراف: ١٥٨

(٤) مفتاح كنوز السنة: ٣٢.

(٥) البقرة: ٢١٦.

ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [1].

وجَعَلَ للمجاهدين سعادة الدنيا والآخرة فقال تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحۡدَى ٱلۡحُسۡنَيَيۡنِ﴾ [2] اما النصر والظفر وأما الشهادة والجنة، وقال (ﷺ): «ان في الجنة لمائة درجة ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين السماوات والأرض اعدها الله تعالى للمجاهدين في سبيله »[3].

وقال (ﷺ): « مثل المجاهد في سبيل الله كمثل الصائم القائم القانت الذي لا يفتر من صوم ولا صلاة » قيل: يا رسول الله أيُّ الناس أفضل؟ فقال: «رجل أخذ بعنان فرسه في سبيل الله كل ما هيعة طار اليها» قيل فمن على أثره؟

(ب ـ ٣٥) قال: «رجل في شعب من هذه الشعاب يعبد ربّه ويدع الناس من شره » وجعل الجهاد في سبيل الله افضل من الحج والعمرة وغيرها.

قال الإمام أحمد بن حنبل (رضي الله عنه): " لا أعلم شيئاً يعدل الجهاد في سبيل الله لأن النبي (ﷺ) قال: «رأس الايمان الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله» فالجهاد أعلى شيء في الدين اذا قصد به صاحبه وجه الله وأن تكون كلمة الله هي العليا وكلمة الله كتابه وما فيه من أمره ونهيه وخيره، قيل للنبي (ﷺ): يا رسول الله الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حميّة ويُقاتل رياءاً فايّ ذلك في سبيل الله؟

فقال: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العُليا فهو في سبيل الله»[4] وقد قال

(١) التوبة: ٣٨، ٣٩.

(٢)التوبة: ٥٢.

(٣) كنوز السنة: ١٣١

(٤) مفتاح كنوز السنة: ١٣٢

الله تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾﴾ (١).

إلى قوله: بدا أن الله عنده أجر عظيم فجعل الجهاد أعظم من عمارة المسجد الحرام [و] الحج والعمرة والطواف، وأفضل من أن يسقى الحجيج من ماله الأشربة الحلوة، كما كان يُفعل قبل هذا الوقت، وجعل سبحانه الذين يقاتلهم صَفّين أحدهما من لا ينتسب إلى كتاب اصلاً فهم يقاتلون حتى يسلموا، كما قال النبي (ﷺ): «أُمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله الا الله، وأن محمداً رسول الله فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماهم وأموالهم إلا بحقها» وحسابهم على الله فان كانوا قد انتسبوا إلى الإسلام ولم يلتزموا شرائعه ولو نطقوا بالشهادتين ولو صلّوا الصلاة الخمس كما قال الله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ (٢) فمتى كان بعض الدين لغير الله وجب القتال، ولهذا لما توفي رسول الله (ﷺ) وارتدّ مَنْ ارتدَّ من العرب فقال قوم: نحن نصلّي الصلوات الخمس ولا نزكّي، فقال أبو بكر: لأقاتلنّهم، فقال عمر: كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله (ﷺ) «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله الآ الله وان محمداً رسول الله فاذا فعلوا عصموا مني دماهم وأموالهم الا بحقها »؟ فقال له [أ ـ ٣٦] الصدّيق: ألم يقل إلاّ بحقها؟ فان الزكاة من حقّها، والله لو منعوني عناقاً كانوا يُؤدونها إلى رسول الله (ﷺ) لقاتلتهم على منعها!!

---

(١) التوبة: ١٩.

(٢) الأنفال: ٣٩.

قال عمر: " فما هو الا ان رأيت الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال، فعلمت انه الحق " فاتفق الصحابة على قتال مانعي الزكاة، وان كانوا يصلّون الصلوات، وكذلك قال الخوارج قال فيهم النبي (ﷺ): «يحقّر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، وقرآنه مع قرآنهم يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، أينما لقيتموهم قاتلوهم فإنّ في قتلهم أجراً لمن قتلهم عند الله يوم القيامة»، وكان سبب ذلك أنهم يستحلّون دماء المسلمين وأموالهم فأيّما طائفة تركت شريعة من شرائع الإسلام من الصلاة أو الزكاة أو الصيام أو الحج أو الجهاد وجب جهادهم على ذلك، ولذلك لو امتنعوا من ترك بعض محرمات الشريعة مثل أكل الدم، والميتة، ولحم الخنزير أو نكاح ذوات المحارم، أو شرب الخمور، أو استحلال دماء المسلمين وأموالهم، فهؤلاء القوم التتار وجب قتالهم من وجوه كثيرة بالكتاب والسنة والاجماع حتى يدخلوا في شرائع الإسلام كلها.

الصنف الثاني من الذين يجب قتالهم: (أهل الكتاب) كما قال الله تعالى: ﴿قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾[1]

وقال النبي (ﷺ) في (المجوس): «سنوا لهم سُنّة أهل الكتاب» وكان النبي (ﷺ) إذا بعث أميراً على سرية أو جيش أوصاه في خاصة نفسه بتقوى الله بمن معه من المسلمين خيراً، ثم يقول: «اغزوا بهم بسم الله وفي سبيل الله، قاتلوا من كفرَ بالله ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تميلوا ولا تقتلوا وليداً، واذا حاصرت

---

(١) التوبة: ٢٩.

أهل حصن فليكن أول ما تدعوهم شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، فإن هم أجابوك إلى ذلك والا فادعهم إلى أن يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون، فإن أجابوك إلى ذلك والا فاستعن بالله وقاتلهم».

ففرض الله عليه أن يقاتل أهل الكتاب [ب ـ٣٦] من اليهود والنصارى، ومن له شبهة كتاب وهم المجوس[1] إلى أن يسلموا أو يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون، فغزا النبي (ﷺ) بنفسه اليهود والنصارى، غزا يهود بني النضير الذين أنزل الله فيهم سورة الحشر، وبني قريظة الذين ذكرهم في سورة الأحزاب وغيرهم، وغزا النصارى غزوة تبوك التي انزل الله فيها سورة براءة، وكانت آخر غزواته قدم من المدينة إلى تبوك لغزو النصارى من العرب والروم فتخلّف عن الغزاة جماعة منهم من اعتذر باعذار باطلة، ومنهم من اعترف بذنبه، فانزل الله في ذم المخلفين عن الغزاة من المنافقين ما انزل وعابهم وطعن عليهم وفضحهم وكشف اسرارهم حتى قال فيهم: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾﴾[2]

وقال: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَـٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ

(١) كان عمر قد توقف في اخذ الجزية من المجوس حتى شهد عبد الرحمن بن عوف ان رسول الله (ص) أخذها من مجوس هجر. ذكره البخاري (٦ /٢٥٧) بسنده عن بجالة بن عبدة. ومالك في الموطأ ٢ /٢٣٢، والأم للشافعي ٤ /١٨٣ وفيه قال النبي (ص) عن المجوس " سنوّا بهم سنة أهل الكتاب ".

(٢) التوبة: ٩٥.

تَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ [1].

وأما الثلاثة الذين اعترفوا فهجرهم النبي (ﷺ)، والمسلمون خمسين ليلة لا يسلّم عليهم ولا يرد عليهم السلام، وأمر نساءهم بهجرانهم في الفراش حتى تاب الله عليهم، وبعث النبي (ﷺ) معاذ بن جبل رضي الله عنه إلى اليمن فلما قبض الله نبيه قام بذلك خلفاؤه الراشدون الذين أمرنا باتباع سنتهم.

وعظنا رسول الله (ﷺ) موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب فقال قائل: يا رسول الله كأنّ هذه موعظةُ مُودّع فماذا تعهد إلينا؟ فقال: «اوصيكم بالسمع والطاعة فانه من يعَش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي تمسكوا بها وعضّوا عليها بالنواجذ وأياكم ومحدثات الأمور فأن كل بدعة ضلالة»، فقد أمرنا رسول الله (ﷺ) باتباع سنة خلفائه الراشدين، فاما ابو بكر الصديق رضي الله عنه فغزا أهل الردة ممن ارتدّوا عن الدين بالكلية وعن بعض شرائعه ثم غزا الكفار [أ ـ٣٧] من أهل الكتاب الذين كانوا بالشام ومن الفرس الذين بالعراق ثم توفي والمسلمون محاصرون دمشق، ثم استخلف أمير المؤمنين رضي الله عنه، وعلى عهده كان الفتوح العظيم، وأتسعت رقعة الإسلام ففتحت الشام والعراق وبعض خراسان، فطلب منه أهل الكتاب أن يعقد لهم ذمّة على شروط اشترطوها على أنفسهم، فعقد لهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذمة التي يتداولها الفقهاء، وكان يجددها عليهم في كل وقت ممن وفقه الله تعالى من الخلفاء والأمراء فأما توليتهم على المسلمين أو استكتابهم واستعمالهم فكان من أكبر ما أنكر عمر رضي الله عنه وغيره من السلف.

---

(١) التوبة ٥٦ ـــ ٥٧

كان عمر رضي الله عنه قد ولّى ابو موسى الأشعري على البصرة فجاء إليه، فقال: اكتب لي الحساب! فانطلق فكتب ـ انفقت كذا وكذا وفي كذا وكذا ـ ثم جاء به إلى عمر رضي الله عنه، فلما رآه أعجبه، فقال: مَن كتب لك هذا؟ قال: كاتب لي، قال: فادعه، حتى يقرأ لنا كتباً جاءتنا من الشام! فقال: يا أمير المؤمنين أنه لا يدخل هذا المسجد! قال: لِمَ؟ أجَنِب هو؟ قال: لا، ولكنه نصراني! قال: فضرب عمر فخذي ضربة كاد يكسرها! قال: أما سمعت الله تعالى يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖ﴾[1]، أفلا اتخذت كاتباً حنيفاً يكتب لك؟ قال: يا أمير المؤمنين: مالي وله، وله دينه ولي كتابته، فقال عمر رضي الله عنه: لا تأمنهم اذ خوّنهم الله، ولا تكرمهم إذْ أهانهم الله، ولا تُدْنيهم إذْ اقصاهم الله[2].

وكان بعض الناس يتوهم أن المسلمين يحتاجون إليهم في الكتابة، فروي أنه كتب خالد بن الوليد إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه كان بالشام كاتباً لا يصلح لخراج مال الشام إلاّ به، فكتبَ إليه ينهاه عن استعماله، فراجعه، وأخْبَر أنه لا يستغني عنه فقُدّر موته، وهذا لأنّ الله سبحانه وتعالى جعل أهل الإسلام خير اهل الأرض فما من فضل يُوجد في غيرهم إلا هو فيهم أكمل، ولا عَيْب يوجد في بعضهم إلاّ وهو في غيرهم أفحش فهم أكمل من غيرهم في كل عقل [ب ـ ٣٧] وعلم، وخيرة، وشأن، وكتابة، وأمانة، وكفاية، وحلم،

(١) المائدة: ٥١.

(٢) " القصة رواها عبد الله بن أحمد بن حنبل كما في أحكام أهل الذمة لأبن القيم (طبعة صبحي الصالح ص٢١٠، قال ابن كثير في تفسيره ١ / ٣٩٨: ورواها ابن أبي حاتم، ورواها ابن أبي شيبة ٨ / ٤٧٠ والبيهقي في السنن الكبرى ٩ / ٢٠٤، وانظر مناقب عمر بن الخطاب /١١٦. وجاء في كتاب نثر الدرر للآبي ٣٢/٢ ((وذُكر له ـــ أي لعمر ـــ غلامٌ حافظٌ من أهل الحيرة، وقالوا: لو اتخذته كاتباً. قال: لقد اتخذتُ إذاً ذا بطانةٍ من دون المؤمنين)).

وسخاء، واحسان، وسياسة، وشجاعة، وتجلة، ورأي، ونصيحة، هذا لاشك فيه لمن تأمله، واذا وجد فيهم من فيه قوة أو أمانة كان في المسلمين مَنْ هو أكفأ منه وأعظم أمانة، وقد قال الله تعالى في كتابه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً﴾ [1] الآية، فنهانا الله تعالى أن نستبطن في أمورنا قوماً غيرنا، وقوله تعالى: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً﴾ أي لا يقصرون في طلب الخبال لكم يحبون فساد أحوالكم، وهذا يظهر منهم بكلمات تسمع أحياناً كما قد سمع من بعض النصارى في فتنة التتار وغيرها، وظهر منهم من بطانة العدو والتجسس لهم ما ظهر، وكذلك من اليهود، وقد قيل في المثل:

كل العداوة قد ترجى مودتها   إلاّ عداوة من عاداك في الدين

وإلى هذا أشار بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾﴾ [2] إلى قوله: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ [3] ويعني اقتدوا بإبراهيم في التبري ومعاداتهم وبغضهم ولا تقتدوا به في وعده لأبيه بالاستغفار، فانّ هذا حرام عليكم، كما قال الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ

(١) آل عمران: ١١٨.

(٢) الممتحنة: ١.

(٣) الممتحنة: ٤

أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾ [1]، ولا تعتقدوا أن معاداتكم لهم تضرّكم بل: قولوا ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾﴾ [2] ولذلك لما أمرهم الله سبحانه وتعالى بأن يمنعوا الكفار من اليهود والنصارى وغيرهم من دخول الحرم، قالوا: تنقطع تجارتنا، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾ أي فقراً وحاجة ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [3] فمن كان يظُنُ ان بعض المعاملات تنقص بعزل الكفار من اليهود والنصارى، قيل له: وإن خفت عيلة فسوف يُغْنيك الله من فضله [أ ـ ٣٨] ان شاء ومن ترك لله شيئاً عوّضه الله خيراً منه، فكيف وفي أولياء الله الكفاية عن الاستعانة بأعداء الله وقد وصف الله المؤمنين حيث يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ﴾ [4] الآية، فوصف الله سبحانه وتعالى الذين يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين وأعزة على الكافرين يتواضعون للمؤمنين، ويمتنعون على الكافرين، وانهم يجاهدون في سبيل الله الكفار والمنافقين، ولايخافون من يلومهم على ذلك، ولذلك قال: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [5]، وهكذا قال نبينا

(١) التوبة: ١١٣.

(٢) الممتحنة ٤ ـــ ٥.

(٣) التوبة: ٢٨.

(٤) المائدة: ٥٤.

(٥) الفتح: ٢٩.

(ﷺ): «أنا نبي الرحمة، وانا نبي الملحمة "وروي عنه": أنا الضحوك القتّال» أي أنا رحيم بالمؤمنين اضحك في وجوههم، وأنا النبي القتال للكافرين، والملحمة هي المقتلة.

وقال: «أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله، فاذا كان الكفار قد كفروا بكتاب الله الذين هو القرآن وبرسوله الذي هو خاتم الرسل وبدينه الذي هو خير الأديان وأبغضوه وعادوه والله يبغضهم وقد غضب عليهم ولعنهم كما وُصف ذلك في القرآن فكيف ينبغي للمؤمن ان يجيء إلى مَنْ أهانه الله فيكرمه أو إلى من أبعده الله فيقرّ به» وهذا معنى قول عمر رضى الله عنه: اليس ان رجلاً لو كان يخدم سلطاناً وكان للسلطان عدو يبغضه السلطان ويعاديه فكيف يكون ولي السلطان وغلامه مقرباً لعدوه ومكرماً له مؤتمناً له وهؤلاء أعداء الله ورسوله بل أعداء جميع المرسلين فانه من عادى واحداً من الرسل فقد عادى الجميع فهكذا من قرّب أعداء الله في الدنيا والآخرة، وأفضل الخلق العلماء والمجاهدون هؤلاء بلغوا ما جاءت به الرسل وهؤلاء جاهدوا على ما جاءت به الرّسل. قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ [1] وقد أنزل الله في كتابه هدى للناس فمن عدل عن كتابه عوقب بالحديد الذي هو السيف ولهذا كان قوام الدين بالمصحف [ب ـ ٣٨] وبالسيف فكيف يحسن من مؤمن ان يولي يهودياً فيجيء حامل القرآن الذي هو هدي الله وحامل السيف الذي يجاهد في سبيل الله ويخضع لذلك الكافر الذي هو عدو الله ورسوله ويتواضع

(١) الحديد: ٢٥

لهم لقضاء حاجته، ولهذا دخل على المسلمين فساد كثير من جهة أعداء الله تعالى.

وأيضاً فهؤلاء التتر الملاعين قد أنتسبوا إلى الإسلام، وإن كانوا خارجين عن شرائعه، وهذا قد يروح على الجهاد من العامة الذين في بلادهم فاذا استفاض في تلك البلاد ان المسلمين قد ميّزوا بين المسلم والكافر وعزلوهم وألزموهم بشروط أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب رضي الله عنه، وكان ذلك مما يسر قلب المؤمنين الذين بتلك البلاد وينشّطهم ويقوي عزماتهم على معاونة المسلمين على جهاد هذا العدو، فأنه ليس لله ولي إلا هو يحب علوّ همته ودينه وانخفاض اعداء دينه كلما سعى ولاة الأمور في ذلك كانت قلوب المؤمنين إليهم أميل والدعاء لهم أكثر وإنما يكره ذلك منهم أما كافر أو منافق أو مَنْ في قلبه مرض، إلا معهم صحبة وصداقة، أو يأكل شيئاً من أموالهم أو ينتفع بهم في بعض الأمور الدنيوية. قال الله تعالى: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾ [1] قال الله تعالى: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [2] وهؤلاء الذين يميلون إلى بعض اليهود والنصارى لغرض من الأغراض، وإن كان في ذلك نقص على المسلمين وإعزاز لإعداء الله، هم طائفة مخذولة ينتقم الله منهم كما ينتقم من التتار، فإن الجميع محاربون لله ورسوله، قال الله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ

(١) المائدة: ٥٢.

(٢) المائدة: ٥٢ ــ ٥٣.

قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾[1].

والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.



(١) المجادلة: ٢٢.

الملحق الخامس

جزء فيه شروط أمير المؤمنين

عمر بن الخطاب رضي الله عنه على النصارى:

[٢١ ـ ب]

وفيه حديث واصل الدمشقي، ومناظرته لهم رضي الله عنه

رواية أبي عمرو عثمان بن أحمد السَّماك

رواية علي بن بشران عنه

رواية أبي علي الحسن بن غالب

ابن علي الحربي عنه

بكر أبي بكر محمد بن عبد الباقي بن محمد البزاز البغدادي عنه

رواية الشيخ الأجل أبي حفص عمر بن أحمد بن معمر بن طبرَزد

رحمهم الله تعالى:

من نعم الفتاح	على علي الملاح
سامحه المولى الأجل	اذا قضى منه الأجل

بسم الله الرحمن الرحيم

لا إله الا الله وحده لا شريك له

عدة للقائه واماناً من عذابه

أخبرنا الشيخ الأجل أبو حفص عمر بن محمد بن معمر بن طبرزد[1] أثابه

(١) عمر بن محمد بن معمر بن أحمد بن يحيى بن حسان ابو حفص بن أبي بكر البغدادي الدارقزي المؤدب، المعروف بابن طبرزَدْ، ولد سنة ٥١٦ هـ وتوفي سنة ٦٠٧ هـ، والطبرزَد هو=

الله قراءة عليه في مدرسة اصحابنا الصالحية كثَّرهم الله تعالى، في يـوم الاثـنين سابع جمادى الآخرة من سنة ثلاث وستمائة، قـال: أخبرنـا ابـو بكـر بـن عبـد الباقي البزاز، قال: اخبرنا ابو علي الحسن بن غالب بن علي الحربـي، بقراءتـي عليه فاقر به في يوم الثلاث حادي عشر ذي الحجة مـن سـنة سـت وخمسـين واربعمائه، قال: أخبرنـا ابـو الحسـن علـي بـن محمـد بـن عبـد الله بـن بشـران السعدي[1]، قراءة عليـه، في شـهر ربيـع الأول مـن سنة اربعمائـة فاقربـه، قـال: أخبرنا أبو عمر عثمان بن أحمد بن عبد الله المعروف بابن السَّماك، قراءة عليه، فاقَّر به، في صفر سنة اثنين واربعـين وثلاثمائـة، حـدثنا ابـو محمـد عبيـد بـن محمد بن خلف البزاز صاحب ابو ثور، حدثنا الربيع بن ثعلب ابـو الفضـل[2]، حـدثنا يحـى بـن عطيـة بـن أبـي العيـزار[3]، عـن الوليـد بـن نـوح، وسـفيان

-السكر. قال الذهبي: المسند الكبير، رحلة الآفاق.. ورد دمشق وحدَّث بها وأزدحمت عليـه الطلبة، تفرّد بعدة مشائخ وأجزاء وكتب.. سافر بعد حنبل إلى الشام، وحصل له مال بسبب الحديث. تاريخ الإسلام (حوادث ووفيات ٦١٠ هـ) ص ٢٥٩، رقم ٣٥٨. وفيات الأعيان ٣ / ٤٥٢، والاعلام ٥ /٦١.

(١) علي بن محمد بن عبد الله بن بشران بن محمد بن بشر ابو الحسن الأموي البغدادي المعدل، قال الخطيب: كتبنا عنه، وكان صدوقاً ثبتاً، تام المروءة، طاهر الديانة، ولد سنة ٣٢٨ هـ وتوفي في شعبان ٤١٥ هـ.. روى عنه البيهقي، والحسن بن أحمد البناء، وأبو الفضل عبد الله بـن زكريا الدقاق، وعلي بن الواحد المنصوري العباسي وغيرهم. تاريخ بغداد ١٢ / ٩٨ ـ ٩٩ رقم ٦٥٢٧، المنتظم ٨ /١٨، ١٩، الكامل في التاريخ ٩ / ٣٤١ تاريخ الإسلام (وفيات ٤٠١ ـ ٤١٠ و ٤١١ ـ ٤٢٠ هـ) ص٣٨٢ رقم ٢٠٨.

(٢) الربيع بن ثعلب البغدادي: قال صالح جزرة: صدوق ثقة، من عبَّاد الله الصالحين. وقال الحافظ علي بن عمر: ثقة، وكذا قال علي بن الحسين بن الجنيد. تاريخ بغداد ٤١٨/٨ رقم ٤٥٢٥، والجرح والتعديل ٣ /٤٥٦ رقم ٢٠٦٠.

(٣) يحى بن عطية بن أبي العيزار: قال متروك ابو حاتم: متروك الحديث، ذاهب الحـديث، كـان يفتعل الحديث، وقال النسائي وغيره: ليس بثقة، وقال ابو زرعة: ضعيف الحـديث. ميـزان الاعتدال ٤ /٣٩٧ رقم ٩٥٩٠، الجرح والتعديل ١٧٩/٩.

الثوري[1]، والسَّري بن مصرف[2]، يذكرون عن طلحة بن مصرف[3]، عن مسروق[4]، عن عبد الرحمن بن غنم[5]، قال كتبنا لعمر بن الخطّاب رضي الله عنه حين صالح نصارى أهل الشام.

بسم الله الرحمن الرحيم

[ب ـــ ٢٢]

هذا كتاب لعبد الله عمر أمير المؤمنين، من نصارى مدينة كذا وكذا[6]، انكم لما قد متم علينا سألنا كم الأمان لانفسنا وذرارينا واموالنا وأهل ملّتنا، وشرطنا لكم على أنفسنا، ان لا نحدث في مدائننا[7]، ولا فيما حولنا، ديراً، ولاكنيسة، ولا قلاّية[8]، ولا صومعة راهب، ولا نجدد ما خرب منها، ولانحي منها في خطط المسلمين، ولا نمنع كنائسنا أن ينْزلها أحد من المسلمين[9] ثلاث ليال نطعمه، ولانأوي[10] جاسوساً، ولا نكتم غُشّاً

---

(١) سفيان الثوري: ابن سعيد بن مسروق، ولد ونشأ بالكوفة (٩٧ - ١٦١ هـــ - ٧١٦ - ٧٧٨م) ثم سكن مكة والمدينة، ومات بالبصرة، أحد أشهر المحدثين في زمانه، وكان آية في الحفظ. (الاعلام ٣/١٠٤ - ١٠٥) .

(٢) السري بن مصرف: قال ابن أبي حاتم: قال أبي لم يكن صاحب الحديث، وقال ابن القطان: لا يُعرف (لسان الميزان ٣/١٨ رقم ٣٦٢٨).

(٣) طلحة بن مصرف: ثقة قارئ فاضل أخرج له الستة كما في "التقريب".

(٤) مسروق بن الاجدع الهمداني الوداعي: ثقة فقيه عابد مخضرم، من أهل اليمن سكن الكوفة وشهد حروب علي عليه السلام، وكان أعلم بالفتيا من شُريح القاضي توفي سنة ٦٣ هـــ (٦٨٣ م).

(٥) عبد الرحمن بن غنم: مختلف في صحبته، وذكره العجلي في (تاريخه) في كبار ثقات التابعين.

(٦) (من نصارى مدينة دمشق وما جاورها من انطاكية وغيرها)

(٧) (في مدينتنا دمشق) المصدر السابق.

(٨) (في ليل أونهار وان نوسّع ابوابها للمارة وابن السبيل) م.س.

(٩) (نواري) م.س.

(١٠) (نواري) م. س

للمسلمين، ونقومُ لهم في مجالسنا اذا ارادوا الجلوس، ولا نتشبّه بهم في شئ من لباسهم، في قلنسوة[1]، ولا عمامة، ولانعلين، ولا فرق شعر، ولانتكلم بكلامهم ولا نتكنّى بكناهُم، ولانركب السُّروج[2]، ولا نتقلد السيوف، ولا نتخذ شيئاً من السّلاح، ولا نحمله معنا، ولا ننقش على خواتمنا بالعربية[3]، ولا نبيع الخمور، وان نجزَّ مقادم رؤوسنا، وأن نلزم ديننا حيث ما كان، وان نشدّ زنانيرها على أوساطنا، وأن لا نُظهر الصليب على كنائسنا، ولا نُظهر صلباننا وكتبنا في شئ من طرق المسلمين، ولا أسواقهم، ولانضرب بنواقيسنا في كنائسنا إلاّ ضرباً خفيفاً، ولا نرفع اصواتنا بالقراءة في كنائسنا في شئ من حضرة المسلمين، ولا نخرج شعانينا[4] ولا باعوثاً[5]، ولا نرفع اصواتنا مع

---

(١) (بقلنسوة) م. س بفتح القاف واللام، وسكون النون، وضم السين وهي لباس يلبس في الرأس يكون تحت العمامة يشبه الطاقية وجمعه قلانس وقلانيس، القاموس المحيط ٢ / ٢٤٢، المصباح المنير ٢ / ٧٠٤ مختار الصحاح / ٥٤٨.

(٢) سرج الدابة معروف وجمعه سروج، وسرجت الفرس شدت عليه سرجه، أو عملت له سرجاً. المصباح المنير ١ / ٣٧١. روى ابو عبيد القاسم بن سلام في كتابه الأموال عن نافع عن اسلم مولى عمر: " ان عمر امر في أهل الذمة ان تجزّ نواصهم، وان يركبوا على الأكف [جمع أُكاف وهي البرذعة أي يركبوا على الأكف بالعرض بحيث تكون رجلا الراكب إلى جهة وظهره إلى جهة] وان يركبوا عرضاً، وان لايركبوا كما يركب المسلمون وان يوثقوا المناطق. الأموال لأبي عبيد / ٦٦ ــ ٦٧.

(٣) عن انس بن مالك ان رسول الله * قال: " لاتستضيئوا بنار المشركين ولا تنقشوا على خواتيمهم عربياً " رواه أحمد في مسنده ٣ /٩٩ والنسائي في المجتبى، ١٧٦/٦ ــ ١٧٧. والبيهقي في السنن الكبرى ١٠ /١٢٧.

(٤) الشعانين عيد للنصارى، يقع يوم الأحد، الثاني والأربعين من الصوم ويسمى أيضاً عيد الزيتونة وهو يعني التسبيح، وهو يوم ركوب المسيح الحمار، ودخوله القدس. تاريخ ابن الوردي١ /١٢٨، ونخبة الدهر في عجائب البر والبحر لشمس الدين الانصاري ص٢٨٠.

(٥) الباعوث: كلمة آرامية الأصل معناها الابتهال أو التضرع وقيل ان الباعوث عند النصارى كالاستسقاء عند المسلمين، قال أبو نؤاس:=

موتانا ولا نظهر النيران معهم في شيء من طُرق المسلمين ولا أسواقهم، ولا نجاورهم بموتانا، ولا نتخذ من الرقيق ما جرى عليه سهام المسلمين، ولا نطلع عليهم في منازلهم، فلما اتيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالكتاب زاد فيه: ولانضْرب أحداً من الملسمين شرطنا لكم ذلك على انفسنا وأهل ملّتنا وقبلنا عليه الأمان فإن نحن خالفنا في شيء مما شرطناه لكم وضمناه على انفسنا فلا ذمة[1] لنا.

=بميلاد المسيح بيوم ذبح وباعوث لتأدية الحقوق

الطريحي: الديارات النصرانية ١٢٦. بيروت ١٩٨٠.

(١) قد تكرر في الحديث ذكرُ " الذمة والذمام " وهُما بمعنى العَهْد، والأمان، والضَّمان والحُرمَة، والحقّ، وسُمِّ أهل الذِّمة لدخُولهم في عهد المسلمين وأمانهم (ابن الأثير: المبارك بن محمد الجزري ٥٤٤ ـــ ٦٠٦هـــ): النهاية في غريب الحديث والأثر ج٢ ص١٦٨).

قال جرجي زيدان: " قيل لهم ذلك لأنهم دفعوا الجزية فأمنوا على أرواحهم وأعراضهم وأموالهم وأكثرهم من النصارى واليهود وقد دعاهم القرآن (أهل الكتاب) نسبة إلى الكتاب المقدس التوراة والأنجيل وقد اثنى عليهم وأوصى بهم خيراً. وفي الحديث النبوي أقوال كثيرة بمحاسن أهل الذمة وخصوصاً قبط مصر، فقد روي عن النبي عليه الصلاة والسلام انه قال: " اذا افتتحتم مصر فأستوصوا بالقبط خيراً فان لهم ذمة ورحماً " اشارةالى أن أم اسماعيل ابي العرب منهم. وقال أيضاً: " الله الله في أهل الذمة " الحديث المشهور. وكان الخلفاء الراشدون اذا انفذوا جيشاً للفتح اوصوا قوادهم بأهل الذمة خيراً ولاسيما النصارى ورهبانهم واذا جاءهم أهل المدن بالصلح صالحوهم وعاهدوهم على الحماية في مقابل ما يؤدونه من الجزية عن رؤسهم. ويختلف مقدار الجزية ونوعها باختلاف الأحوال. وعلى مقتضى التراضي بين المسلمين وأهل الكتاب، لولك صلح شروط تختلف باخالاف البلاد ولكنها في كل حال تقضي على المسلمين بحماية أهل الذمة والدفاع عنهم فاذا امتنعواعن اداء الجزية امتنع المسلمون عن حمايتهم واذا عرض للمسلمين ما يمنع حمايتهم جاز لأهل الذمة الامساك عن الدفع " وقال المودودي: ان عقد الذمة يلزم المسلمين لزوماً أبدياً، أي انه ليس لهم ان ينقضوه بعد عقده، ولكن أهل الذمة لهم الخيار ان يلتزموه ما شاؤوا وينقضوه متى شاؤوا (حقوق أهل الذمة ص١٧ نشرها في مجلة ترجمان القرآن ـــ اغسطس ١٩٤٨) ـــ ونُشرت مستقلة في بيروت على الأرجح). ويلخص الماوردي الشروط التي تفرض على أهل الذمة عند عقد الجزية فيما يلي=

[أ ـــ ٢٣]

وقد حل لكم منا ما يحل من أهل المعاندة والشقاق.



-«ويشترط عليهم في عقد الجزية شرطان مستحق ومستحب. أما المستحق فستة شروط أحدها أن لا يذكروا كتاب الله تعالى بطعن فيه ولا تحريف له. والثاني أن لا يذكروا رسول الله * بتكذيب له ولا ازدراء. والثالث أن لا يذكروا دين الإسلام بذم له ولا قدح فيه. والرابع أن لا يصيبوا مسلمة بزنا ولا باسم نكاح. والخامس أن لا يفتنوا مسلماً عن دينه ولا يتعرضوا لماله ولا دينه. والسادس أن لا يعينوا أهل الحرب ولا يودوا أغنياءهم. فهذه الستة حقوق ملتزمة فتلزمهم بغير شرط، وإنما تشترط إشعاراً لهم وتأكيداً لتغليظ العهد عليهم ويكون ارتكابها بعد الشرط نقضاً لعهدهم.

وأما المستحب فستة أشياء أحدها تغيير هيئاتهم بلبس الغيار وشد الزنار. والثاني أن لا يعلوا على المسلمين في الأبنية ويكون إن لم ينقصوا مساويين لهم. والثالث أن لا يسمعوهم أصوات نواقيسهم ولا تلاوة كتبهم. والرابع أن لا يجاهروهم بشرب خمورهم ولا بإظهار صلبانهم وخنازيرهم. والخامس أن يخفوا دفن موتاهم ولا يجاهروا بندب عليهم ولا نياحة. والسادس أن يمنعوا من ركوب الخيل عناقاً وهجاناً ولا يمنعوا من ركوب البغال والحمير).

وهذه الستة المستحبة لا تلزم بعقد الذمة حتى تشترط... ولا يكون ارتكابها بعد الشرط نقضاً».

ويذكر أيضاً الماوردي «ولا يجوز لأهل الذمة أن يحدثوا في دار الإسلام بيعة ولا كنيسة، فإن أحدثوها هدمت عليهم، ويجوز أن يبنوا ما استهدم من بيعهم وكنائسهم العتيقة» الماوردي: الأحكام السلطانية، طبعة القاهرة ص١٤٥ـــ١٤٦.

ومن الواضح أن هذه الشروط غير المسامحة قد جاءت متأخرة عن صدر الإسلام والماوردي نفسه يذكر أن لكل قوم صلحاً ربما خالف ما سواه. (الماوردي: الأحكام السلطانية، طبعة القاهرة ص١٤٦.

وللتعليق على موضوع التسامح الذي أبداه المسلمون اتجاه أهل الذمة تراجع المباحث التالية: الذميون في بلاد الإسلام ـــ محمد عزت الطهطاوي (مجلة الأزهر المجلد ٥٦ سنة ١٩٨٣) عدة حلقات بقلم الدكتور عبد الله مبروك النجار، راجع الحلقة المنشورة في ص٢٤ـــ٣٨) و(المجلد ٥٥ سنة ١٩٨٣ ص٤٠٢ـــ٤١٠)

شروح وتعليقات

وردت هذه الشروط من هذه الطريق مع اختلاف يسير في الالفاظ في كتاب السنن الكبرى للبيهقي ٩ /٢٠٢، أخرجه في كتابه الجزية (باب الامام يكتب كتاب الصلح على الجزية). وذكرها ابن حزم في المحلى ٧/ ٣٤٦ ـ ٣٤٧ بسنده عن عبد الرحمن ابن غنم، والشافعي في الامم ج٤ ص١٢٥ ـ ١٢٦ (ط مصورة عن طبعة بولاق ١٣٢١هـ فيما يتعلق بالشروط التي ينبغي للامام ان يأخذها على أهل الذمة. وأوردها ابن تيمية في كتابه الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ١/٣٠٦ ـ ٣٠٨ وقال: اورده ابو داود في سننه، وأعاد ابن تيمية ذكرها في كتابه المسمى " اقتضاء الصراط المستقيم " ١/٣٢٠ ـ ٣٢١ تحقيق د. ناصر العقل وفي هذا الموضع من كتابه قال ابن تيمية: رواه حرب اسناده جيد، وقال بعد ان ساق بقية المتن: " الشروط أشهر شئ في كتب الفقه والعلم، وهي مجمع عليها في الجملة بين العلماء من الأئمة المتبوعين، وأصحابهم، وسائر الأئمة ".

وأعاد ذكرها ثالثاً (ابن تيمية) في مجموع الفتاوى ٢٨ / ٦٥٢ (باسناد مختصر). وممن ذكرها ايضاً الطرطوشي في كتابه (سراج الملوك).

وأشار لها ابن القيم في احكام أهل الذمة ٣/ ١١٦٣ لكنه ذكر الشروط نفسها عن طريق عبد الله بن الامام أحمد.. عن اسماعيل بن عياش عن عدد من أهل العلم.. عن عبدالرحمن بن عياش وبين الطريقين اختلاف، الفتاوى ٢٨ / ٦٥٢.

وكـان ابـن القـيم قـد نقـل عـن كتـاب لأبـي الشـيخ الاصـبهاني (٢٧٤ - ٣٦٩هـ) عنوانه " شروط عمر " (راجع ص ١٢٣٧ مـن كتابـه) وقـد يكـون هـذا الكتاب مفقوداً اليوم.

ولعل ابن قيّم الجوزية (٦٩١ ـ ٧٥١هـ) هو أكثر مـن أهـتم بهـذه الشـروط قال: " وشهرة هذه الشروط تعـني عـن إسـنادها، فـانّ الأئمـة تلقوهـا بـالقبول وذكروها في كتبهم، واحتجّوا بها، ولم يزل ذكر الشروط العمرية على ألسنتهم وفي كتبهم، وقد أنفذها بعده الخلفاء، وعملوا بموجبها " ٣ ص ١١٦٥، ثـم بنـى على أساسها أحكام أهل الذمة في ديار الإسلام مفصّـلاً ذلـك في سـتة فصـول هي:

١- في أحكام البيع والكنائس والصوامع وما يتعلق بذلك.

٢- في أحكام ضيافتهم للمارة بهم وما يتعلق بها.

٣- فيما يتعلق بتغيير لباسهم وتمييزهم عن المسـلمين في المركـب واللبـاس وغيره.

٤- فيما يتعلق باظهار المنكر من أفعالهم وأقوالهم مما نُهوا عنه.

٥- في امر معاملتهم للمسلمين بالشركة ونحوها.

ونظراً للاخـتلاف الـوارد بـين النسـخة الليدنيـة الـتي نحـن بصـددها وبـين النسخة التي أوردها ابـن قـيم الجوزيـة رأينـا ان نُثبـت الأخـيرة ايضـاً لتسـهيل الاطلاع على النسختين معاً والمقارنة بينهم. وندرج فيما يلي الـنص كمـا جـاء في كتابه أحكام أهل الذمة (ص ١١٥٩ ـ ١١٦١):

[قال عبد الله بن الإمام أحمد: حدثني أبو شـرحبيل الحمصـي عيسـى ابـن

خالد قال: حدثني [عمي] ابو اليمان وأبو المغيرة قالا: أخبرنا إسماعيل ابن عياش قال: حدثنا غير واحد من أهل العلم قالوا: كتب أهل الجزيرة إلى عبد الرحمن بن غنم: " إنا حين قدمت بلادنا طلبنا إليك الأمان لأنفسنا وأهل ملتنا على أنا شرطنا لك على أنفسنا: ألا نُحدثَ في مدينتنا كنيسة، ولا فيما حولها ديراً ولا قِلاّيَة ولا صومعة راهب، ولانجدد ماخرب من كنائسنا ولا ما كان منها في خطط المسلمين، وألا نمنع كنائسنا من المسلمين أن ينْزلوها في الليل والنهار وأن نوسع أبوابها للمارة وابن السبيل، ولا نؤوي فيها ولا في منازلنا جاسوساً، وألا نكتم غشاً للمسلمين، وألا نضرب بنواقيسنا إلا ضرباً خفياً في جوف كنائسنا، ولا نظهر عليها صليباً، ولا ترفع أصواتنا في الصلاة ولا القراءة في كنائسنا فيما يحضره المسلمون، وألا نخرج صليباً ولا كتاباً في سوق المسلمين، وألا نخرج باعوثاً ـ قال: والباعوث يجتمعون كما يخرج المسلمون يوم الأضحى والفطر ـ ولا شعانين، ولانرفع أصواتنا مع موتانا، ولا نظهر النيران معهم في أسواق المسلمين، وألا نجاورهم بالخنازير، ولا ببيع الخمور، ولا نظهر شرِكاً، ولا نرغِّب في ديننا، ولا ندعوا إليه أحداً، ولا نتخذ شيئاً من الرقيق الذي جرت عليه سهام المسلمين، وألا نمنع أحداً، ولا نتخذ شيئاً من الرقيق الذي جرت عليه سهام المسلمين، وألا نمنع أحداً من أقربائنا أرادوا الدخول في الإسلام، وأن نلزم زينّا حيثما كنا، وألا نتشبه بالمسلمين في لبس قَلَنْسُوة، ولا عمامة ولا نعلين ولا فرق شعر ولا في مراكبهم، ولا نتكلم بكلامهم، ولا نكتني بكناهم، وأن نجز مقادم رؤوسنا، ولانفرق نواصينا، ونشد الزنانير على أوساطنا، ولاننقش خواتمنا بالعربية، ولا نركب السروج، ولا نتخذ شيئاً من السلاح ولا نحمله، ولانتقلد السيوف، وأن نوقر المسلمين في

مجالسهم، ونرشدهم الطريق، ونقوم لهم عن المجالس إن أرادوا الجلوس، ولا نطلع عليهم في منازلهم، ولا نعلم أولادنا القرآن، ولا يشارك أحد منا مسلماً في تجارة إلا أن يكون إلى المسلم أمر التجارة، وأن نضيف كل مسلم عابر سبيل ثلاثة أيام ونطعمه من أوسط ما نجد. ضَمِنا لك ذلك على أنفسنا وذرارينا وأزواجنا ومساكيننا، وإن نحن غيّرها أو خالفنا عما شرطنا على أنفسنا، وقبلنا الأمان عليه، فلا ذمة لنا، وقد حل لك منّا ما يحل لأهل المعاندة والشقاق ".

فكتب بذلك عبد الرحمن بن غنم إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فكتب إليه عمر: "أن أمض لهم ما سألوا، وألحق فيهم حرفين أشترطهما عليهم مع ما شرطوا على أنفسهم: ألا يشتروا من سبايانا شيئاً ومن ضرب مسلماً [عمداً] فقد خلع عهده".

فأنفذ عبد الرحمن بن غنم ذلك، وأقر من أقام من الروم في مدائن الشام على هذا الشرط].

انتهى النص الذي اورده ابن القيم

ورداً على ما ورد في بعض تلك النصوص التي يشتم منها رائحة اضطهاد الفاروق لأهل الذمة فان الدكتور توفيق الطويل يستبعد ما اتهم به عمر من اضطهاد الذميين أو اساءة معاملتهم، قائلاً: (ان من يدين بالإسلام الصحيح ويعرف ألاّ فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى، لا يمكن ان تصفو نفسه من إحساس التعصب، ويفيض قلبه بالتسامح والعفو والرحمة "[1] ويضيف: حسبنا

(١) قصة الاضطهاد الديني في المسيحية والإسلام ص١٥٤، الزهراء للاعلام العربي ـــ القاهرة ١٤١٢ هـــ ١٩٩١ م.

في دحض اتهام الفاروق باضطهاد الذميين أن نذكر الصلح الذي عقده مع رسل صفرنيوس أسقف بيت المقدس كنموذج لموقفه من المسيحين.

وهكذا كان عمر بن الخطاب مع قبط مصر أقرهم وأمنهم على أموالهم وأنفسهم وعقائدهم، فلا يضار أحد بسبب دينه ولا يكره على شيء في أمره، من شاء منهم أن يرحل مع الروم كان له ما أراد، ومن شاء من الروم والأجانب المقيمين بالمدينة أن يظل بها بقي آمنا وليس على أهل المدينة إى أداء الجزية لقاء منعهم وكفالة أمنهم. وبمثل هذا كان يعامل الفاروق الذميين فيما نعلم.

والحاصل ان أكثر المسلمين يعتقدون بصحّة هذه الشروط، وهذا ما أكد عليه الحصني في تاريخه (٦٠ - ٦١) بقوله:

«وقد اتخذ علماء الدين وحملة الشريعة هذه الشروط التي قررها الفاروق وأجرى أهل الذمة عليها قانوناً يرجع إليه في معاملتهم كل حين وفرّع الفقهاء وشرّاح الآثار وأهل النظر من المتفكرين عليها تفاريع كثيرة بمقتضى تجدد الكوائن ومراعاة الأوفق في كل جيل وطبق الخلفاء وولاة الأمر الذين أتوا بعد ذلك العهد الاحكام العملية على أهل الذمة وفقاً لتلك الشروط ولم يزل العمل بها يضعف بمقدار ضعف السلطة الإسلامية وتناقص الحدود الشرعية وتناسيها وغلبة القوانين الوضعية عليها إلى أن ماتت فيما مات من الاحكام على أنه لم يعدم من ملوك الإسلام من أوقف اهل الذمة عند الحدود التي حدها الفاروق والزمهم بعدم مجاوزتها ومن هؤلاء الملوك الصالح المجاهد الناصر السلطان نور الدين الشهيد فانه بعد ان دانت له الأقطار الشامية بالطاعة اراد ان يقف بالأمم النصرانية وغيرها عند الحد الشرعي فجمع علماء المسلمين في وقته وبطارقة النصارى وعلماءهم من اليعاقبة والملكية

والنسطورية وغيرهم في مجلس عقد في دار المدرسة التي بناها الملك العادل وجدد معهم شروطاً مستمدة من الشروط العمرية على ما يناسب وقتهم والتزمهم العمل بها والجري على مقتضاها وبقى الحال على ذلك إلى أواسط الدولة الأيوبية حيث اختل شيئاً فشيئاً وقد عثرنا على نسخة من تلك الشروط كتبت في عهد السلطان المذكور وعليها امضاؤه وخطه وهي زينة مكتبتنا اليوم ولله الحمد ولولا خشية التطويل لاثبتناها برمتها. ولتعلم ان نسبة هذه الشروط إلى سيدنا عمر بن الخطاب من حيث أنه قررها وفصلها وزاد فيها ما اقتضاه اجتهاده توكيداً لأحكامها عملا بقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ فلا يقال ان كثيراً من أحكام أهل الذمة ورد في القرآن الكريم في غير آية وبين (ﷺ) المشرع العظيم عدة أحكام بفعله في حياته وباقراره كما وقع في غزوة بني النضير وبني قريظة وانزالهم على حكم سعد بن معاذ وصلحه مع أهل خيبر مما هو مفصل في كتب الحديث فلا حاجة لإعادته وفي كتاب اقضية النبي (ﷺ) لأبن فرح مولى الطلاع الاندلسي نبذة صالحة اكتفينا بالالماع اليها عن ذكرها لطولها.» اهـ.

- اتهام عمر باضطهاد أهل الذمة:

على أن هنالك كلام آخر لاكته الالسن حول اتهام الفاروق باضطهاد الذميين من مسيحين ويهود قيل إنه أول من وضعهم في مرتبة أدنى من مرتبة المسلمين، وغالى في هذا الصدد حتى أذل أعناقهم جهرة عياناً! روى ابن عبد الحكم أن عمر بن الخطاب قد " كتب أن يختم في رقاب اهل الذمة بالرصاص، ويظهروا مناطقهم ويجزوا نواصيهم ويركبوا على الأكف عرضاً، ولايضربوا الجزية إلا على من جرت عليه المواسي، ولا يضربوا على النساء

والا على الولدان، ولا يدعوهم يتشبهون بالمسلمين في لبوسهم[1]، وقيل إنه حرم عليهم رفع الصليب على كنائسهم أو العمل على إقامة كنائس أو بيع جديدة.. إلخ. ويقال إن هذا قد مهد لاضطهاد الذميين في الفترات التي اشتد فيها جمود الناس.

وقال أبو عبيد في كتاب الأموال بمسنده عن خليفة بن قيس: كان عمر بن الخطاب يأمر فأكتب إلى أهل الأمصار في أهل الكتاب ان يجزوا نواصيهم، وأن يربطوا الكستيجات[2] في أوساطهم ليُعرف زيهم من زي أهل الكتاب.

قال: وكتب عمر إلى أمراء الاجناد أن يختموا رقاب أهل الذمة. وعن أسلم أن عمر أمر في أهل الذمة أن يجزوا نواصيهم، وان يركبوا على الأكف، وان يركبوا عرضاً لا يركبوا كما يركب المسلمون، وان يوثقوا المناطق (يعني الزنانير).

قال ابن تيمية: وعمر بن الخطاب لما فتح الشام اسلم منه خلق كثير لا يحصى.. فان العامة والفلاحين وغيرهم كان عامتهم نصارى، ولم يكن في المسلمين من يعمل فلاحة ولم يكن للمسلمين في دمشق مسجد يصلون فيه الا مسجد واحد لقلتهم، ثم صار أكثر أهل الشام وغيرهم مسلمين طوعاً لا كرهاً، فان اكراه أهل الذمة على الإسلام غير جائز[3]. ونقل ابن ابي الحديد والعلامة الآبي هذه الرواية التي تدلل على منع عمر عن الاستعانة بهم قالوا:

(١) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها ع٤ ص١٥١ طبعة ليدن ١٩٢٠ م.

(٢) جمع كستيج بالضم خيط غليظ يشده الذمي فوق ثيابه، دون الزنّار، معرب كستي، القاموس المحيط، باب الجيم، فصل الكاف واللام ١ / ٢٠٥. وجاء في أحكام أهل الذمة بتحقيق صبحي الصالح ٢ /٧٦٢ انها لفظة فارسية الأصل انتقلت إلى الشام.

(٣) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ١ / ٣٠٩ ــ ٣١٣.

واستكتب ابو موسى نصرانياً فكتب اليه عمر: اعزلْهُ واستعمل حنيفياً، فكتب اليه ابو موسى: ان من غَنَائهِ وخَبَره كيتَ وكيت. فكتب إليه عمر رضى الله عنه: ليس لنا أن نأتمنهم وقد خونهم الله. ولا أن نرفعهم وقد وضعهم الله. ولا ان نستنصحهم في الأمر وهم يرون الإسلام قد وترهم. ويعطُون الجزية عن يدٍ وهم صاغرون.

فكتب إليه أبو موسى: ان البلد لا يصلُحُ إلا به.

فكتب إليه عمر- رضى الله عنه ـ ماتَ النَّصرَ اني والسلام[1]. قال ابن قتيبة وغيره: وذُكر له غلامٌ نصراني كاتب حافظ من أهل الحيرة، وقالوا: لو اتَّخذته كاتباً. قال: لقداتخذت اذاً بطانةً من دون المؤمنين[2]. لكن الدكتور غالب عبد الكافي القريشي لا يرى فائدة من الدفاع عن تلك النصوص، وخاصة عن الشروط العمرية مؤكداً على أهميتها وعدالتها ووجوب تطبيقها بحذافيرها، قال:

" لا ينبغي أن يجعلنا ضعفنا اليوم مدافعين عن هذه النصوص، ومحاولين الاعتذار لأهل الكتاب عما حصل من الخلفاء الراشدين ومن تبعهم من وضع

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد ٩٣/٣، نثر الدر للآبي ج٢ ص٢٥.

(٢) ابن قتيبة: عيون الاخبار ٤٣/١، شرح نهج البلاغة لأبن ابي الحديد ١٠٩/٣، نثر الدر للآبي ٣٢/٢.وفي موضوع الاستعانة بأهل الذمة، يذهب ابن حزم إلى النهى عن الإستعانة بهم. المحلى ج١١ ص١١٢ ــ ١١٣، ولايعطينا مالك رأيا محدداً، ولا يرى ابن القاسم المصرى (ت ١٩١ هـ) بأسا من عملهم ذواتية وخدما. سحنون: المدونة الكبرى ج٣ ص٤٠. ويذهب ابو يوسف ــ وهو حنفي ــ والماوردي ــ وهو شافعي ــ إلى أنه يجوز الإستعانة بهم، ولا يضرب لهم بسهم في الغنيمة وإنما يعطون حسب عنائهم. الخراج ص٢١٤، الأحكام السلطانية ص١٥٨ ــ ١٥٩.

الشروط على أهل الذمة واخذهم بها. وصدق عمر - إذ قال: "لا تعزوهم وقد أذلهم الله ".

ولقد كان عمر بن الخطاب - أول من وضع شروطاً على أهل الذمة يلتزمون بها و هي مشهورة عند العلماء وأئمة الفقه بالشروط العمرية، معظم هذه الشروط تركز على معنيين الأول خضوعهم الكامل لأحكام الإسلام وتعاليمه دون ذمها أو ذم رسول الله (ﷺ) والمعنى الثاني عدم إظهار شعائر دينهم والمجاهرة بانحرافاتهم والتشبه بالمسلمين مركبا وملبسا[1].

ولكنه كان رحيما بهم في معاملتهم وأعطائهم كافة الحقوق التي يستحقونها كمواطنين، ولما كثر أهل الذمة بعد اتساع الفتوحات وبقي الكثيرون على دينهم دون إكراه لهم على الإسلام ونظمت شؤون الجزية، كان لابد من وضع - علامات لدافعي الجزية فلا يطالبون بها وقد دفعوها وهذا الأخير هو الدافع لوضع الختم على أعناقهم وسواء كانت أختاماً معلقة على رقابهم أو مطبوعة على صفائح أعناقهم ثم إذا انتهى قبض الجزية من جميعهم تكسر تلك الخواتيم أو تمحى إن كانت مطبوعة، يشهد لهذا ما قاله أبو يوسف في كتابه الخراج حيث قال: وينبغي مع هذا ان تختم رقابهم في وقت جباية جزية رؤوسهم حتى يفرغ من عرضهم ثم تكسر الخواتيم كما فعل بهم عثمان بن حنيف - أن سألوا كسرها[2].

---

(١) انظر الخراج لأبي يوسف ص١٣٧ ط المطبعة السلفية. والأموال لأبي عبيد ص٦٦ ـ ٦٧ وأحكام أهل الذمة لابن القيم ج١ ص٢٥.

(٢) الخراج ص١٣٧ وعثمان بن حنيف كان ضمن من ولاهم عمر على بعض أعمال العراق منها مسح السواد.

وروى أبو يوسف عن عبيدالله عن نافع عن أسلم مولى عمر عن عمر بن الخطاب أنه كتب إلى عماله أن يختموا رقاب أهل الذمة[1].

وبعد أن سرد قصة مسح عثمان بن حنيف لأرض السواد ووضع الجزية على الرؤوس والخراج على الأرض قال: وختم على علوج السواد فختم خمسمائة ألأف علج على الطبقات: ثمانية وأربعين، وأربعة وعشرين واثني عشر. فلما فرغ من عرضهم دفعهم إلى الدهاقين[2]، وكسر الخواتيم[3].

ويُبدي حبيب زيات - أحد أفاضل النصارى - شكوكه حول صحة الشروط العمرية قال: «وهذه الشروط هي التي جَرَّت عليهم في كل حين أصناف المحن والشدائد، وأرغمت الكثيرين منهم على الخروج من دين آبائهم، وانتحال الإسلام صيانة لدمائهم وأموالهم، وهرباً من الذل والصغار، فأقفرت الديار والأديار وعادت الكنائس مساجد والبيع معابد والصوامع جوامع والمذابح لعبدة الشيطان مصارع - كما قال العماد الأصفهاني[4]... وأقل ما يجوز اليوم أن يقال في (الشروط العمرية) أنها وُضعت بعد الصدر الأول من الإسلام، ونُسبت مغالطة لثاني الخلفاء الراشدين، ليكون لها بفضل التلقب باسمه أصل راسخ في السُنَّة، وتكتسب من فرية الانتماء إليه سلطة لا تعادلها سلطة أخرى بعد الشارع الأول»[5].

---

(١) المرجع السابق.

(٢) الدهقان هو زعيم فلاحي العجم، ورئيس الأقليم معرب وهو بالكسر والضم. انظر القاموس المحيط ج٤: ٢٢٦ بيروت.

(٣) انظر الخراج لأبي يوسف ص١٣٨ راجع اوليات الفاروق السياسية ص٢٥٠ ــ ٢٥١.

(٤) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين لأبي شامة ١٣٤/٢.

(٥) حبيب زيات: سمات النصارى واليهود في الإسلام، مجلة المشرق، السنة ٤٣ نيسان ــ حزيران ١٩٤٩ ص١٦١ــ١٦٢.

ويرجح حبيب زيات بأن الشروط هذه «اختلقها فقهاء باسم الخليفة الثاني وبنو عليها مظالم النصارى مدة ثلاثة عشر قرناً، وهي التي نثرت عقد نظامهم وشتَّت شملهم في الشرق والغرب وأخلت بيعهم وديارهم، واستنزفت أموالهم ودماءهم، وكان من أنكاِها فيهم وأشدها وبالاً عليهم أربعة شروط اشتهرت بالسِمات أي العلامات الفارقة، ليُعرفوا بها لأوّل نظرة تقع عليهم فيُؤخذوا بالذل والصغار وهي الصليب والزنار والعمامة والغيار»[1].

ويتحفظ الباحث الأردني زكريا القضاه على بعض النصوص الواردة في الشروط العمرية كالنص القائل «ولا نظهر شركاً في نادي المسلمين» قال «ولا نحسب أن نصارى الروم يقرّون على أنفسهم بالشرك»» ومثل «ونقوم لهم في المجالس إن أرادوا الجلوس» فهل يعقل أن يكون هذا من شروط الصلح وبنداً من بنود معاهدته رغم قول الرسول (ﷺ): «لا يقيم الرجل الرجل من مجلسه ثم يجلسه فيه ولكن تفسّحوا أو توسعوا» ومثل «ولا نعلم أولادنا القرآن» فكيف يشترطون على أنفسهم هذا الشرط؟.. وكيف نوفق بين هذا وبين قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ ومثل «نشدّ الزنانير على أوساطنا» وأضاف الباحث «يبدو من الصياغات التفصيلية لهذه الشروط أنها تعالج أوضاعاً لم تكن موجودة زمن الفتح وإنما ظهرت في فترات لاحقة يمكن ربطها بالتطورات التي حدثت على وضع أهل الذمة ابتداءً بأيام عمر بن عبد العزيز إلى أيام هارون الرشيد إلى قرارات المتوكل مما يدعوّ للاعتقاد أنه كثر الإدراج في النصّ الأصلي للمعاهدة ليعبر عن صيغ فقهية وُضعت لتنظيم أوضاع تالية، وأياً كان أمر

---

(١) حبيب زيات: مصدر سابق ص١٧٣.

الشروط العمرية، فإن أحداً من المؤرخين لم ينص على أنها هي معاهدة فتح بيت المقدس أو أنها تنطبق عليها، بل أن لبيت المقدس معاهدة خاصة اشتهرت باسم العهدة العمرية وأنه وإن كان في ألفاظها اختلافات وزيادات حسب الروايات المختلفة بحيث لا يمكن الوثوق بنص معين، فإن المؤكد أن فحوى الروايات متفق على سماحة المسلمين في هذا العهد ورعايتهم للحرمات الدينية بما يتفق مع الاستراتيجية العامة للمعاهدات الإسلامية مع أهل الذمة»[1]. ويعتقد الأب أبونا، أن جميع العهود (المكتوبة لأجل حماية المسيحيين في العالم الإسلامي ومن بينها الشروط العمرية) والمحفوظة في الكنائس الشرقية، هي من وحي الخيال استنبطها المسيحيون «للذود عن كيانهم والحفاظ على دينهم وتقاليدهم»[2].

ويرى رشيد الخيون أن «رواية الشروط العمرية واحد من ملفات الأحداث، وأكثر من هذا نسبتها إلى ضحيتها (أي المسيحيين) مثل الاعتراف بالإكراه، أو تزييف الاعتراف، فماذا يبقى من إنسانية المسلم إذا حُرم عليه تبادل السلام على الآخر، وتهنئته بعيده أو فرحه، وتعزيته بحزنه؟ لماذا الشدة والعسر بالدين إلى حدٍّ يعد التضييق على الآخرين في الطريق ثواباً».

مال الفقيه محمد الأمين بن محمد الجنكي الشنقيطي في تفسيره «لو وجد مضطراً آدمياً غير معصوم كالحربي والمرتد فله قتله، والأكل منه عند

(١) الندوة الثانية من أعمال المؤتمر الرابع لتاريخ بلاد الشام، المجلد الثاني سنة ١٩٨٥، ٢٨٢ــ٢٨٣، البحث الموسوم ((معاهدة فتح بيت المقدس)) لزكريا القضاة.

(٢) البير أبونا: تاريخ الكنيسة الشرقية ٢/٥٧.

الشافعية، وبه قال القاضي من الحنابلة، واحتجوا بأنه لا حرمة له، فهو بمنزلة السباع. والله أعلم»[1].

- رأي آخر في السياسة العمرية نحو الذميين:

يقول محمد عبد الله عنان في كتابه (مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام):

كانت الطوائف غير المسلمة تعتبر دائما في نظر المجتمع الإسلامي منحطة من الوجهة الاجتماعية. وكانت من أجل ذلك، لا تلقى في ميادين الحياة العامة ما يلقاه المسلمون من الرعاية والاحترام والعزة. وترجع هذه التفرقة إلى عصر الإسلام الأول. وكانت تفرقة رسمية تقررها الدولة وتقصد إليها. وكان عمر بن الخطاب، ثاني الخلفاء، أول من صاغ هذه السياسة نحو الذميين في تشريع واوامر خاصة كانت مصدر هذا النوع من التشريع في الدول الإسلامية.

من هذه الخطط والاوامر: الا يجلس الذميون في حضرة مسلم الا اذا اذنوا. والا يلبسوا ارياء المسلمين بل يتخذوا ازياء والوانا خاصة. كما كان يحظر عليهم ان يتسموا بالاسماء العربية او ينقشوا الاحرف العربية على اختامهم، او يستعملوا السروج او يحملوا السلاح او يسترقوا مسلماً.

ومما كتبه عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص، فاتح مصر، وأول حكامها من المسلمين بشأن الذميين، ان تختم رقاب اهل الذمة بالرصاص، ويظهروا مناطقهم، ويجزوا نواحيهم، ويركبوا على الأكف عرضاً، ولا يضربوا الجزية الا على من حجرت عليه الموس، ولا يضربوها على النساء ولا على الولدان، ولا يدعوهم يتشبهون بالمسلمين في لبوسهم. (تجد طرفاً من هذه

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ص١١٥، رشيد الخيون: موقع تنوير - الكويت.

الوثائق في كتاب " فتوح مصر وأخبارها " لابن عبد الحكم).

كانت هذه التفرقة الرسمية تخلق من الطوائف غير المسلمة في ظل الدولة الإسلامية مجتمعا آخر ذا حياة ونفسية ونظم اجتماعية خاصة، تنظر اليه الحكومة الإسلامية، وينظر اليه المسلمون بعين غير تلك التي ينظرون بها إلى ابناء دينهم..

وكثيرا ماعقد الذميون مع حكام النواحي معاهدات محلية للتخلص من هذه الأغلال والفوارق الاجتماعية المهينة ومع ذلك فقد كان مركز الذميين في الدول الإسلامية دائما منحطاً من الوجهة الأجتماعية.

وكان الذميون موضع التوجس والريب من السلطات الحاكمة وقلما كانت الحكومات الإسلامية الأولى تجيزهم إلى وظائف الدولة اللهم الا اعمال المحاسبة والجباية، حيث كان لهم فيها براعة خاصة اور فعتهم إلى مراتب النفوذ والثقة او تعهد اليهم بالمهام الخطيرة او تأتمنهم على مصلحة ذات شأن.

فليس غريباً ان يتوق الذميون في تلك العصور إلى التحرر من اعباء هذا النظام ووصماته، وان يؤثر الاذكياء والطامعون منهم اغتنام كل ما ينعم به المسلم من المزايا الأجتماعية والاقتصادية باعتناق الإسلام. وان يشقوا لانفسهم إلى الحياة سبلاً طيبة باهرة بالاندماج في المجتمع الإسلامي وان يتمتعوا خلال ذلك بنعمة الحرية الفكرية التي كانت من اسمى ظواهر الحياة الإسلامية.

ولم يكن دخول الذمي في الإسلام يفضي دائماً لأول وهلة إلى تمتعه بكل ما يتمتع به المسلم من الحقوق والمزايا بيد ان اعتناق الإسلام كان أول خطوة في تحرره من الاعباء المرهقة والتقاليد المزرية والعرف المؤذي.

يروي ابن عبد الحكم، ان عمر بن الخطاب كان يأخذ من صالحه من المعاهدين ماسمى على نفسه، لا يضع من ذلك شيئاً ولا يزيد عليه،ومن نزل منهم على الجزية ولم يسلم شيئاً يؤديه، نظر عمر في امره، فاذا احتاجوا، خفف عنهم، وان استغنوا، زاد عليهم بقدر استغنائهم. ثم يروي ان صاحب اطيان قدم على عمرو بن العاص، فقال له: اخبرنا ما على احدنا من الجزية فيصير لها، فقال عمرو وهو يشير إلى ركن كنيسة: لو اعطيتني من الارض إلى السقف ما اخبرتك ما عليك، انما انتم خزانة لنا، ان كثر علينا، كثرنا عيكم، وان خفف عنا، خففنا عنكم.

ولم تكن الجزية تقف عند القدر المفروض من المال، بل كانت تتعدى ذلك إلى جباية مقادير اخرى من الحنطة والزيت والعسل والثياب. ولم تكن هذه المغارم تفرض على الصبية والنساء والشيوخ. وكان يراعى في التقدير والتحصيل، ان يخرج الذميون قبل كل شيء من غلة ارضهم ما يكفي لتعهد كنائسهم ومرافقهم ومؤونهم وكان الرفق يتعدى إلى الأمهال في اداء الخراج.

ولما بلغ تناقص الجزية اقصاه، رأت الخلافة ان تفرضها حتى على من اعتنق الإسلام من الذميين في كافة انحاء الدولة وسوى بينهم وبين المسلمين الخلص. وقد كتب في هذا الصدد إلى حيان بن شريح، عامل مصر: ان الله بعث محمداً (ﷺ) هادياً ولم يبعثه جابياً. ولعمرى لعمر اشوق إلى ان يدخل الناس كلهم الإسلام على يديه.[1]

---

(١) رفائيل بطي: ذاكرة عراقية ٢/٢٧٩ ــ ٢٨١ دار المدى / دمشق سنة ٢٠٠٠.

– قول ابن تيمية في الشروط العمرية[1] والتعليق على رأيه:

في شروط عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه التي شرطها على أهل الذمة لما قدم الشام وشارطهم بمحضر من المهاجرين والانصار، وعليها العمل عند أئمة المسلمين لقوله صلى الله تعالى عليه وسلم " عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الامور فان كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة " وقوله صلى الله تعالى عليه وسلم " اقتدوا بالذين من بعدي ابي بكر وعمر " لان هذا صار اجماعا من اصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الذين لا يجتمعون على ضلالة على ما نقلوه وفهموه من كتاب الله وسنة رسوله، وهذه الشروط مروية من وجوه مختصرة ومبسوطة.

منها ما رواه سفيان الثوري عن مسروق بن عبد الرحمن بن عتبة قال:

كتب عمر حين صالح نصارى الشام كتابا وشرط عليهم فيه أن لا يحدثوا في مدنهم ولا ما حولهاديراً ولا صومعة ولا كنيسة ولا قلاية لراهب، ولا يجددوا ما خرب، ولا يمنعوا كنائسهم أن ينزلها أحد من المسلمين ثلاث ليال يطعموهم، ولا يؤوا جاسوساً ولا يكتموا غش المسلمين ولا يعلموا أولادهم القرآن ولا يظهروا شركا ولا يمنعوا ذوى قرابتهم من الإسلام ان أرادوه، وأن يوقروا المسلمين وأن يقوموا لهم من مجالسهم أن أرادوا الجلوس ولا يشتبهوا بالمسلمين في شى ممن لباسهم من قلنسوة ولا عمامة ولا نعلين ولا فرق شعر، ولا يتكنوا بكناهم ولا يركبوا سرجا ولا يتقلدوا سيفا ولا يتخدوا شيئا من سلاح ولا ينقشوا خواتيمهم بالعربية ولا يبيعوا الخمور، وان يجزوا مقادم

---

(١) نقلاً عن المنار ج٣ المجلد ٢٧ (ص١٨٦ ـــ ٩٠).

رؤوسهم وان يلزموا زيهم حينما كانوا، وأن يشدوا الزنانير على أوساطهم، ولا يظهروا صاليباولا شيئا من كتبهم في شيء من طرق المسلمين ولا يجاوروا المسلمين بموتاهم ولا يضربوا بالناقوس الا ضرباً خفيا ولا يرفعوا أصواتهم بقراءتهم في كنائسهم في شيء من حضرة المسلمين، ولا يخرجوا شعانين، ولا يرفعوا مع موتاهم أصواتهم ولا يظهروا النيران معهم ولا يشتروا من الرقيق ما جرت عليه سهام المسلمين، فان خالفوا شيئا مما اشترط عليهم فلا ذمة لهم، وقد حل للمسلمين منهم ما يحل من أهل المعاندة والشقاق.

وأما ما يرويه بعض العامة عن النبي (ﷺ) انه قال «من آذى ذميا فقد آذاني» فهذا كذب على رسول الله (ﷺ) لم يروه أحد من أهل العلم وكيف ذلك واذا هم قد يكون بحق وقد يكون بغير حق بل قد قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟﴾ فكيف يحرم أذى الكفار مطلقا وأي ذنب أعظم من الكفر، ولكن في سنن أبي داود عن العرباض بن سارية عن النبي (ﷺ) قال: «ان الله لم يأذن لكم أن تدخلوا بيوت أهل الكتاب الا بإذن، ولا ضرب أبشارهم، ولا أكل ثمارهم إذا أعطوكم الذي عليهم» وكان عمر بن الخطاب يقول: أذلوهم ولا تظلموهم.

وعن صفوان بن سليم عن عدة من أبناء أصحاب رسول الله (ﷺ) عن آبائهم عن رسول الله (ﷺ) قال: «الا من ظلم معاهداً أو انتقصه حقه او كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس فانا حجيجه يوم القيام» وفي سنن أبي داود عن قابوس بن أبي ظبيان عن أبيه عن ابن عباس قال قال رسول الله (ﷺ): «ليس على مسلم جزية، ولا تصلح قبلتان بأرض» وهذه من الشروط قد ذكرها أئمة العلماء من أهل المذاهب المتنوعة وغيرها في كتبهم

واعتمدوها فقد ذكروا أن على الامام أن يلزم أهل الذمة بالتمييز عن المسلمين في لباسهم، وشعورهم، وكتبهم، وركوبهم بان يلبسوا ثوبا يخالف ثياب المسلمين كالعسلى، والازرق، والاصفر والادكن ويشدوا الخرق في قلانسهم وعمائمهم والزنانير فوق ثيابهم، وقد أطلق طائفة من العلماء أنهم يؤخدون باللبس وشد الزنانير جميعا، ومنهم من قال هذا يجب اذا شرط عليهم، وقد تقدم اشتراط عمر بن الخطاب رضي الله عنه ذلك عليهم جميعا حيث قال: ولا يتشبهوا بالمسلمين في شيء من لباسهم في قلنسوة ولا غيرها من عمامة ولا نعلين إلى أن قال: ويلزمهم بذلك حيثما كانوا ويشدوا الزنانير على أوساطهم.

وهذه الشروط يجددها عليهم من يوفقه الله تعالى من ولاة أمور المسلمين كما جدد عمر بن عبد العزيز في خلافته وبالغ في اتباع سنة عمر ابن الخطاب حيث كان من العلم والعدل والقيام بالكتاب والسنة بمنزلة ميزة الله بها عن غيره من الائمة، وجددها هارون الرشيد وجعفر المتوكل وغيرهما وأمروا بهدم الكنائس التي ينبغي هدمها كالكنائس التي بالديار المصريه كلها ففي وجوب هدمها قولان ولا نزاع في جواز هدم ما كان بأرض العنوة اذا فتحت ولو أقرت بأيديهم لكونهم أهل الوطن كما أقرهم المسلمون على كنائس بالشام ومصر ثم ظهرت شعائر المسلمين فيما بعد في تلك البقعة بحيث بنيت فيها المساجد فلا يجتمع شعائر الكفر مع شعائر الإسلام كما قال النبي (ﷺ): «لا يجتمع قبلتان بأرض» ولهذا شرط عليهم عمر والمسلمون ان لا يظهروا شعائر دينهم. وأيضا فلا نزاع بين المسلمين ان ارض المسلمين لا يجوز أن تحبس على الديارات والصوامع ولا يصح الوقف عليها بل لو وقفها ذمى وتحاكم الينا لم يحكم بصحة الوقف فكيف نحبس أموال المسلمين على

معابد الكفار التي يشرك فيها بالرحمن ويسب الله ورسوله فيها أقبح سب وكان من سبب إحداث هذه الكنائس وهذه الاحباس عليها شيئان أحدهما أن بني عبيد الله القداح[1] الذين كان ظاهرهم الرفض وباطنهم النفاق يستوزون تارة يهوديا وتارة نصرانيا واجتلب ذلك النصراني خلقا كثيراً وبني كنائس كثيرة والثاني استيلاء الكتاب من النصارى على أموال المسلمين فيدلسون فيها على المسلمين ما يشاؤون والله اعلم قاله ابن تيميه.

وفي معرض تعليقه على قول ابن تيميه[2] أبدى رشيد رضا استغرابه لتكذيب ابن تيميه لحديث " من آذى ذمياً فقد آذاني ".

قال: استغربت هذا لأن الحديث مروي بلفظ قريب من هذا اللفظ وهو ما أخرجه الخطيب البغدادي من حديث ابن مسعود مرفوعا إلى النبي (ﷺ): «من آذى ذمياً فأنا خصمه، ومن كنت خصمه خصمته يوم القيامة» وقد أورده السيوطي في الجامع الصغير واشار إلى حسنه. ولولا ميل شيخ الإسلام إلى التشديد على المخالفين في أصل الدين أو في المذاهب المخالفة لما كان عليه السلف الصالح لما اقتصر على إنكار الحديث باللفظ الذي ذكر، وسكت عن اللفظ الآخر المروي بمعناه، على أنه يجوز أن يكون قد نسبه عند ما كتب هذه المسألة وهو أقرب من عدم اطلاعه عليه.

وأما انكاره اطلاق تحريم الايذاء بأن منه ما يكون بحق كالقصاص فهو يرد على مثله في حديث «من آذى مسلما فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله»

---

(١) يعني بذلك (الدولة الفاطمية) التي ملئت تاريخ مصر الإسلامية بالمفاخر العظيمة وكان من حسناتها التسامح مع عموم أهل الذمة، وابن تيمية الذين ينبز هذه الدولة بالرفض فلأنه معروف بمواقفه الشديدة العداء من كافة شيعة آل البيت النبوي الشريف.

(٢) المنار ج٤ المجلد ٢٧ (ص٣١٤ ــ ٣١٦).

رواه الطبراني في الاوسط من حديث أنس والجواب عنهما وعن أمثالهما تقييد الايذاء بما علم من ضرورات الشرع وهو كونه بغير حق.

هذا وان بعض العلماء لا يعدون عمل عمر في مثل هذا (رضي الله عنه) حجة شرعية كما هو الاصل في عمل الصحابي ولا يوجبون اتباعه، وبعض ما روي عنه من تلك الاعمال مروي بأسانيد ضعيفة قال الشوكاني في بحث ما ضربه من العثور على أهل الكتاب وغيرهم:

"وفعل عمر وأن لم يكن حجة لكنه قد عمل الناس به قاطبة فهو اجماع، ويمكن أن يقال لا يسلم الاجماع على ذلك والاصل تحريم أموال أهل الذمة حتى يقوم دليل والحديث محتمل والمراد حديث العشور على أهل الكتاب ومما ضعفوه من تلك الروايات ما أخرجه البيهقي من طريق حزام بن معاوية قال كتب الينا عمر: أدبوا الخيل ولا يرفع بين ظهرانيكم الصليب ولا تجاوركم الخنازير، ومثله ما رواه البيهقي علي ابن عباس: كل مصر مصره المسلمون لا تبنى فيه بيعة، ولا كنيسة، ولا يُضرب فيه ناقوس، ولا يباع فيه لحم خنْزير وفي اسناده حنش وهو ضعيف.

وجملة القول إن سياسة عمر العسكرية والمالية والادارية كانت سياسة فتح عسكري وعدل ديني، واجتهاد مبني على اساس المصلحة العامة، وهي تختلف باختلاف الازمنة والاحوال وليست من أمور العبادات التي يوقف فيها عند نصوص الشارع بقدر الاستطاعه، ولا يجب على ولاة الامور التقيد بها في كل زمان، بل يتبع في كل عصر وفي كل حال ما فيه المصلحة مع مراعاة النصوص القطعية العامة من وجوب الوفاء بعهود المعاهدين ما وفوا بعهودهم معنا، وتحريم الظلم التي تجردت منها السياسة الاوربية المبنية على الغدر،

والافـك، والخيانـة، واسـتحلال جميـع الرذائـل في سـبيل المنـافع السياسـية والاستعمارية.

- الشروط العمرية في الرؤية الغربية:

رأي العلامة رخرت دوزي **R.P.A. Dozy** (١٨٢٠ ـ ١٨٨٣)[١]

لقد انتشر الإسلام بسرعة مدهشة بين الشعوب التي غزاها، وهذه ظاهرة لم ير لها العالم مثيلا من قبل، وهي تبدو ـ لأول وهلة ـ لغـزا مستتـرا لا سـبيل إلى حله وتحليله، لاسيما إذا عرفنا أن هذا الدين الجديد لم يُكره أحـداً علـى الدخول فيه.

وقد كان " محمد " (ﷺ) يأمر بالتسامح والإغضاء، وقد وضـع للمسـلمين قاعدة الجزية وفرضها على كل من لم يدن به من أهل الكتب المنزلة من يهود ونصارى، فمنحهم حريتهم الدينية على أن يدفعوا ما فرضه عليهم من الجزية، وزاد في تسـامحه فمـنح هـذه الميـزة لمـن يقطنـون إقلـيم البحـرين مـن المشركين[٢].

وجاء من بعده " عثمان " فخطا خطو جديدة أخـرى، فـاعتبر بربـر شمـال افريقية كاليهود والنصارى وسكان إقليم البحرين.

---

(١) في كتابه ملوك الطوائف في الاندلس (ليدن ١٨٤٩ ــ ١٨٦١)، وهو من أهم الكتب في هذا الموضوع وكان قد ترجمه إلى الاسبانية سانتياجو (مدريد ١٩٢٠)، وأعاد طبعـه ليفـي ــ بروفنسال، (ليدن ١٩٣٢) فاصبح مرجعاً، وترجمه إلى العربية الاستاذ كامل كيلاني بعنوان " ملوك الطوائف ونظرات في تاريخ الإسلام للعلامة دُوزي " الطبعة الأولى ١٩٣٣م ــ ١٣٥١ هـ، نشر: مكتبة ومطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر ــ القاهرة، والنص المذكور ورد بين (ص٣٠٠ ــ ٤٠٤).

(٢) يقصد بذلك (المجوس) من أهل هجر (البحرين) وكانوا عرباً حيث قال فيهم "سنوا بهم سـنة أهل الكتاب".

ولسنا نعرف - على الحقيقة - شيئاً عن ديانة هؤلاء البربر القديمة إلا معلومات تافهة ضئيلة لا تغني شيئاً، ولن نعدو الصواب إذا قلنا إننا نجهل كل شئ عن هذه الديانة القديمة.

على أننا إذا أخذنا بالحكم على طبع الشعب وخلقه واتخذنا من ذلك مقياساً للحكم على ديانته استطعنا أن نستنج أن ديانة البربر القديمة كانت أقرب إلى أن تكون كهنوتية منها إلى أن تكون إلهية.

ومهما يكن من أمر، فليس ثمة مجال للشك في ان البربر لم يكونوا أهل كتاب مقدس قط، وعلى هذا نرى - في جلاء ووضوح - أن التسامح الديني قد وصل في هذه الطريق إلى آخر مداه، إن لم نقل إنه أربى على ما كان يرمي إليه النبي.

أضف إلى هذا أن الحكم الإسلامي كان يتوخى التيسير والخير العام والبر بالشعوب المحكومة لاسيما النصارى. فقد كان سواد المسيحيين في الشرق ينتمي إلى مذاهب لقيت من اضطهاد حكومة القسطنطينية ما أرهق أصحابها إرهاقا. فلما جاء الإسلام - ومن طبيعته التسامح والإخاء - ترك لهم الحرية التامة في البقاء على دينهم ما داموا يؤثرونه على غيره من الأديان، وظللهم بحمايته، وسوى بينهم في الحقوق، على اختلاف مذاهبهم وشتى نحلهم.

ولا تنس أنهم كانوا مضطرين إلى دفع ضرائب فادحة للإمبراطور الروماني، فلما جاء الإسلام أعفاهم منها، ولم يفرض عليهم إلا جزية معتدلة لا ترهق أحداً، ومتى عرفت هذه الاسباب زالت دهشتك وعجبك من إيثارهم حكم المسلمين على حكم الرومان واندفاعهم إلى مساعدة العرب في فتوحاتهم بكل قلوبهم وقواهم بدلا من مناوأتهم والتألب عليهم.

أسباب انتشار الإسلام:

وإذا كان ذلك كذلك، فما بالهم لم يبقوا على دينهم؟ حفزهم إلى الدخول في هذا الدين الجديد من غير أن يكرهو ا على الدخول فيه، وهم يعلمون أن إسلامهم لا يرتاح إليه ملوكهم؟

لقد تضافرت أسباب عدة على الوصول إلى هذه النتيجة، وقد ألمعنا ـ آنفا ـ إلى ما يعود عليهم من الفائدة المادية إذا أسلموا، لأن إعفاءهم من الجزية ـ على اعتدالها ـ كان مما يرغبهم في الإسلام.

أضف إلى هذا ما يشعرون به من الكرامة الشخصية إذا أسلموا وأصبح لهم من الحقوق ما للمسلمين.

نعم كان المسلمون متسامحين، ولكنهم لم يزيدوا على ذلك شيئاً، فقد كانوا ـ على تسامحهم ـ لا يضعون المسيحى والمسلم في صف واحد بل ينظرون إلى النصراني كما ينظرون إلى جنس منحط.

الشروط العمرية

وقد سن " عمر " لهم قانونا يحوى إذلالهم ومهانتهم بين طياته، فلم يسمح لهم بإنشاء الكنائس والمعابد، بل حرمهم حتى [من] بناء الأديرة الصغيرة.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل تعداه ـ بعد قليل ـ إلى ما هو شر منه، فقد حظر عليهم تجديد بناء الكنائس التي تهدم ـ وإن لم يتمسك المسلمون بتنفيذ هذا الشرط دائما ـ وقد أباح القانون للمسلمين أن يدخلوا الكنائس في أي وقت شاءوا ليلاً أو نهاراً، وشرط عليهم أن يقدموا الطعام لضيوفهم ثلاث مرات في كل يوم، وحظر عليهم أن يرفعوا الصلبان على كنائسهم، وأن يبيعوا

الكتب المقدسة في شوارع المسلمين، كما حظر عليهم إقامة الصلاة وترتيل الأناشيد الدينية في الكنائس بصوت مرتفع إذا كانت قريبة من بيوت المسلمين، وأمرهم أن يشيعوا موتاهم إلى قبورهم في صمت وسكون، وألا يوقدوا شموعا أمامهم متى وصلوا إلى الأحياء الإسلامية.

كما حرّم عليهم التعصب لدينهم والتعرض بأي سوء لمن يتحول عنه إلى الإسلام، وفرض عليهم احترام المسلمين في كل فرصة أو مناسبة فإذا جلس المسلم وجب على المسيحي أن يقوم.

وشرط عليهم أن يحتفظوا بأزيائهم ولايتزيوا بزى المسلمين ليتميزوا للناظر عنهم، ولم يُعفِ مسيحياً من شد الزنار إلى وسطه، وحرم عليهم أن يتحدثوا بالعربية أو ينقشوها على أختامهم.

ولم يبح لهم أن يتخذوا لخيولهم سروجاً أو يتقلدوا سلاحا أو يستخدموا مسلما عندهم.

ولا ريب أن هذه الشروط لم تكن تطبق بحذافيرها - في أول الأمر - إلا في أحوال استثنائية نادرة، لأن الولاة المنوط بهم تنفيذها كانوا على جانب كبير من التسامح والعدل والرحمة، فلم يبالوا بتنفيذ هذه الشرائط القاسية، وقد وصل بهم التسامح إلى حد أنهم كانوا يبرمون معاهدات - في بعض الأحايين - بينهم وبين المسيحيين تعفيهم من تنفيذ أكثر هذه الأمور.

ومهما يكن من أمر فقد كان مركز المسيحيين عند المسلمين يكاد يكون مماثلا لمركز اليهود في أوروبا إبان القرون الوسطى.

وهو المركز الذي لا يزال يضعهم فيه السواد الأعظم من الناس. فقد كان سادتهم ينظرون إليهم باشمئزاز واحتقار ويعدونهم من الأنجاس، فلا يتحدث

مسلم إلى مسيحي أو قسيس - على الأخص - إلا عن بعد حذرا من ملامسته كيلا يدنس ثوبه.

ومتى دان المسيحي بالإسلام تطهر من رجسه كما يتطهر اليهودي عندنا حين يدين بالمسيحية بعد أن نعمده، ثم يصبح إلى حد ما على قدم المساواة مع المسلم.

أقول إلى حد ما لأن مسلمي العرب دائماً ارستقراطيون لا ينظرون إلى المسيحي - حتى بعد إسلامه - إلا نظرة السيد، ولا يخاطبونه إلا من حالق على أن إسلام المسيحي كان الخطوة الأولى إلى الكرامة والشعور بالعزة، والزمن وحده كفيل بتحقيق ما يليها من الخطوات، ولن يلبث ابن المسيحي أن يصبح مسلماً أصيلاً يتمتع بكل ما يتمتع به العربي من عزة وكبرياء[1].

- العهدة العمرية لبطريرك القدس المسمى صفر ونيوس:

" بسم الله الرحمن الرحيم " الحمد لله الذي اعزنا بالإسلام واكرمنا بالايمان ورحمنا بنبيه محمد (ﷺ) وهدانا من الضلالة وجمعنا به بعد الشتات وألف قلوبناونصرنا علي الاعداء ومكن لنا من البلاد وجعلنا اخوانا متحابين. واحمدوا الله عباد الله على هذه النعمة. هذا كتاب عمر بن الخطاب لعهد وميثاق اعطي إلى البطرك المبجل المكرم وهو صفرونيوس بطرك الملة الملكية في طور الزيتون بمقام القدس الشريف في الاشتمال على الرعية والقسوس والرهبان حيث كانوا واين وجدوا يكون عليهم الامان. وان الذمي اذا حفظ احكام الذمة وجب له الامان والصون منا نحن المؤمنين ومن يتولى بعدنا. وليقطع عنهم اسباب جوانحهم كحسب ما قد جرى منهم من الطاعة

(١) ارجع إلى كتاب " دوزي " "تاريخ المسلمين في أسبانيا " (ج٢ ص١٠٩).

والخضوع. وليكن الامان عليهم وعلى كنائسهم ودياراتهم وكافة زياراتهم التي بيدهم داخلاً وخارجاً وهي القمامة وبيت لحم مولد عيسى عليه السلام كنيسة الكبراء والمغارة ذات الثلاثة ابواب قبلي وشمالي وغربي وبقية اجناس النصارى الموجودين هناك وهم الكرج والحبش والذين يأتون للزيارة من القبط والافرنج والسريان والارمن والنساطرة واليعاقبة والموارنة تابعين البطرك المذكور. ويكون متقدماً عليهم لانهم اعطوات من حضرة النبي الكريم والحبيب المرسل من الله وشرفوا بختم يده الكريم وامر بالنظر اليهم والامان عليهم كذلك نحن المؤمنين نحسن اليهم اكراماً لمن احسن اليهم وليكونوا معافين من الجزية والخفارة والمواجب ومسلمين من البلايا كافة في البر والبحور وفي دخولهم إلى القمامة وبقية زياراتهم لا يؤخذ منهم شيء. واما الذين يقبلون إلى زيارة القمامة فيؤدي النصراني إلى البطرك درهماً وثلث من الفضة وكل مؤمن ومؤمنة يحفظ ما امرنا به سلطان أو حاكم او وال يجري حكمه في الأرض غني ام فقير من المسلمين المؤمنين والمؤمنات. وقد اعطي لهم مرسومنا هذا بحضور جمع الصحابة الكرام عبد الله وعثمان بن عفان وسعد بن زيد وعبد الرحمن بن عوف وبقية الاخوة الصحابة الكرام، فليعتمد على ماشرحنا في كتابنا هذا ويعمل به ويبقى في يدهم. وصلى الله تعالى على سيدنا محمد وآله وأصحابه والحمد لله رب العالمين حسبنا الله ونعم الوكيل. في عشرين من شهر ربيع الأول سنة ١٥ للهجرة النبوية وكل من قرأ مرسومنا هذا من المؤمنين وخالفه من الآن والى الدين فليكن لعهد الله ناكثاً ولرسوله الحبيب مبغضا"[(١)].

---

(١) نقلاً عن الوثائق العثمانية المحفوظة باستنابول وورد نصها كذلك في الهلال ج٣، السنة ٧،=

ويبدي أحد الباحثين شكوكه في هذا العهد فيقول: «ولئن استطعنا فهم الأمان على الأنفس والكنائس الممنوح للبطرك صفر ونيوس في هذا العهد لأن هذا ما جرى عليه المسلمون في معاملتهم مع أهل الذمة. فإننا لم نجد أي رواية تاريخية تستثني نصارى فلسطين عامة أو بيت المقدس خاصة من دفع الجزية. ذلك الحكم الذي جرى عليه عمل المسلمين في سائر فتوحاتهم كما أن تركيز هذا النصّ على تقديم البطرك صفرونيوس على سائر طوائف النصارى وجعلهم تابعين له وتمكينه هو ومن يتسلم الرئاسة بعده من طائفته من جباية درهم وثلث من الفضة من كل نصراني يزور كنيسة القيامة قد يُلقي ضوءاً على أنه وُضع في فترات لاحقة للفتح لمواجهة أو لقطع الخلافات الطائفية على الرئاسة الروحية لكنيسة القيامة. ونُسب إلى عمر لإكسابه أهمية والاحتجاج به على أن الرئاسة للطائفة الأرثوذكسية على مرّ الأيام، وهذا ما ركّز عليه النص يذكره ثلاث مرات..»[1].



=الصادر في نوفمبر ١٨٩٨ ص١١٠ ــ١١١ وفي الاخيرة وردت كلمة (باغضاً بدلاً من مبغضاً) واشكر الدكتور أحمد آقگوندوز على تفضله بتصوير النسخة المحفوظة بدار الوثائق العثمانية.

(١) زكريا القضاه: معاهدة فتح بيت المقدس: ٥٢ بحوث المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام، المجلد الثاني ص٢٧٨.

عهد عمر لأهل بيت المقدس
(النص الذي ذكره الطبري)

" بسم الله الرحمن الرحيم:

هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل ايلياء من الأمان، أعطاهم أمانا لأنفسهم ولكنائسهم وصلبانهم سقيمها وبريئها وسائر ملتها أن لاتسكن كنائسهم ولاتهدم، ولا ينتقص منها ولا من حيزها ولا من حليهم ولامن شئ من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يُضار أحد منهم ولا يسكن بايلياء معهم أحد من اليهود.

وعلى اهل ايلياء ان يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص فمن خرج منهم فهو آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم، ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان (كذا ولعله تحريف) فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ما على أهل ايلياء من الجزية ومن شاء سار مع الروم ومن شاء رجع إلى أهله فانه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم. وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة المؤمنين اذا أعطوا الذي عليهم من الجزية شهد على ذلك خالد ابن الوليد وعمرو بن العاص وعبد الرحمن بن عوف ومعاوية ابن ابي سفيان وكتب وحضر سنة خمس عشرة "[1].

---

(١) تاريخ الطبري ٦٠٧/٣ وقارن ذلك مع ما ورد في فتوح الشام للواقدي ٢١٤/١، وفتوح البلدان للبلاذري ١٤٤/١ـ١٤٥، والكامل لابن الأثير ٣٤٩/٢، والمختصر في أخبار البشر لأبي=

نص آخر للعهد (مشكوك فيه!):

نقلت مجلة (المنار) عن جريدة المناظر نصّ آخر للعهد[1]، يتضمن (١٥) مادة وهي كالآتي:

١- يسمح للمسيحيين الذين سلموا للمسلمين ان يبقوا في مدينتهم المقدسة وان يقيموا فروض ديانتهم وطقوسهم كما يشاؤون ولكن لا يسمح لهم ان ينشئوا معابد ولا كنائس جديدة لا في المدينة ولا في نواحيها.

٢- يجب على المسيحيين ان يتركوا أبواب كنائسهم مفتوحة أو ان الصلاة واستعمال الطقوس ويباح للمسلمين الدخول اليها عندئذ لمراقبة ما يصنعون خوفاً من ان يتآمروا سراً على المسلمين.

٣- يجب ان تكون ابواب المسيحيين مفتوحة لجميع ضيوف المسلمين.

٤- يجب على المسيحيين ان يقدموا للمسلمين الذين يأتون لزيارة المدينة المقدسة (أعني أورشليم) طعاماً ليوم واحد فقط بدون ان يأخذوا ثمنه واذا مرض أحد أولئك الضيوف التزموا بخدمته حتى يبرأ.

٥- لا يجوز للنصارى أن يمنعوا أولادهم من تعلم القرآن ولا يجوز لهم ان ينهوهم عن اعتناق المذهب الإسلامي اذا أرادوا.

٦- يجب ان يعتبر المسيحيون المسلمين أسياداً لهم وان يكون لهم فيهم المقام الأول في كل شيء.

٧- لا يجوز للمسيحيين ان يلبسوا لباس الإسلام ولا ان يتسموا بأسمائهم ولا

=الفداء ١/١٦٠. وحول قدوم عمر إلى بيت المقدس انظر مجلة المقتطف المجلد ٣٢ ص١٠٠٢ سنة ١٩٠٧.

(١) المنار المجلد ٧ (سنة ١٩٠٤) ص٩٧ ـــ وما بعدها.

أن يتصفوا بصفاتهم بل يجب ان يكونوا على خلاف منهم في كل شيء.

٨- يجب على المسيحيين اذا ارادوا ان يركبوا ان لا يركبوا خيلا ولا نوقاً بل حميرا وبغالاً و لا يجوز لهم ان يقلوا سلاحاً ولا ان يستعملوه في بيوتهم وكذلك لا يجوز ان تكون منازلهم مزينة بمثل الزينة والتحف والاشياء التي يزين بها المسلمون منازلهم حتى ولا براذع حميرهم يجوز ان تكون كبراذع حمير المسلمين.

٩- لا يجوز للمسيحيين ان يبيعوا خمراً ولا كحولا البتة ولا اشربة روحية إلا باذن الخليفة وممثليه فقط ولا يجوز لهم ان يتركوا خنازيرهم ومواشيهم تسرح في الاسواق.

١٠-يجب على المسيحيين ان يلبسوا ثياب الحداد دائماوان يشدوا وسطهم بسيور من جلد سواء كانوا في المدينة أم في الخارج.

١١-لا يجوز للمسيحيين ان يرفعوا صلباناً فوق الكنائس ولا ان يدقوا جرساً والاجراس والصلبان الموجودة حالاً متى وقعت لا يجوز ان يوضع غيرها في مكانها.

١٢-لا يجوز للمسيحيين ان يطلوا علىالمسلمين في معابدهم.

١٣-يجب ان يقدموا الجزية في أوانها ولا يتأخروا عن جمع الضرائب التي يفرضها عليهم المسلمون.

١٤-يجب ان يحترموا الخلافة الإسلامية والمسلمين كسادة للبلاد وأصحابها ولا يتآمروا عليهم البتة.

١٥-يلتزم الخليفة بتأمين النصارى الطائعين والخاضعين لجميع شروط

ونصوص هذه المعاهدة.

"ومما ينتقد من هذه المعاهدة ان المسلمين لم يكونوا يقولون مدينتهم المقدسة".

ولا كلمة (الطقوس) ولم يكونوا يرحلون لزيارة تلك البلدة ولم يكن لهم لباس مخصوص بل كانوا يلبسون ملابس الروم التي يغنمونها ولم يكونوا يزينون بيوتهم ولم يكن في زمانهم شيء يسمى (الكحول) ولا الاشربة الروحية وانما كانوا يسمون كل مسكر خمرا الا النبيذ اذا صار يسكر ويمتنع شرعا ان يقيد بيع الخمر باذن الخليفة، ولم يكن لهم معابد يمنعون المسلمين من الاشراف عليها ولم يضربوا على أهل تلك البلدة ضرائب ولم يكونوا يعبرون عن السلطة بالخلافة الإسلامية ولا عن عمر بالخليفة، هذا ولم يكونوا يخافون من المؤامرة عليهم فانهم غلبوا القوم وهم مستعدون للقتال ومعهم الروم فكيف يخافونهم بعد ذلك ولو خافوا أو احتاطوا لم يكن ذلك معيبا ولا منتقداً ولاباعثا للتعصب فانه أمر طبيعي معهود من جميع الفاتحين والسيادة بطبيعتها للفاتح فلا معنى لاشتراطها، ولم يكن من فائدتهم المنع من التشبه بهم ورؤية عباداتهم وتعلم كتابتهم والتسمي بأسمائهم. فالظاهر ان المعاهدة وضعت في هذا العصر لأن اسلوبها واصطلاحاتها كلها عصرية، فأين المنصفون يميزون بين تساهل المسلمين وتعصب غيرهم انهم يختلقون على سلفنا حتى في هذا العصر عصر الحرية والعلم ليعيبونا وينفروا قومهم وسائر الناس منا فهل فعلنا نحن شيئا من مثل هذا!!

أكتفي بهذه الاشارات في تفنيد مسائل هذه المعاهدة المختلقة ولكني أقول انني لا أنكر أن منها ماله نظير في بعض كتب المسلمين ولكن لاثقة

بروايته ومن المأثور في ذلك ما رواه البيهقي من طريق حزام ابن معاوية قال: كتب الىناعمر: ادبوا الخيل ولا يرفع بين ظهرانيكم الصليب ولا تجاوركم الخنازير، ولكن اسناده ضعيف ولو صح لأمكن حمله على جماعة المسلمين على أن أقوال الصحابة ليست حجة في الدين عند جمهور علماء الاصول الا ان يجمعوا عليها أو ترفع إلى النبي (ﷺ) أو يكون لها حكم المرفوع بان يكن هناك دليل على انها ليست من اجتهادهم بل سمعوها عن الشارع.

ومنها ماروواه البيهقي عن ابن عباس: كل مصر مصره المسلمون لا تبنى فيه بيعة ولا كنيسة ولا يضرب فيه ناقوس ولايباع فيه لحم خنزير: وفي إسناده حنش وهو ضعيف على ان المسلمين أحرار في مصر مصروه لانفسهم ان يمنعوا غيرهم من الاقامة معهم فيه مطلقاً أو بشروط وكذلك أهل الذمة اذا كانت لهم أرض وجعلوها بلدا ولم يقبلوا ان يبيعوا منها شيئا لمسلم فان الإسلام لا يكرههم على بيعها منها شيئا لمسلم فان الإسلام لا يكرههم على بيعها ولو لاجل المسجد. ومفهوم كلام ابن عباس انه لا يمنع بناء الكنائس في غير المصر الذي مصره المسلمون كالامصار القديمة وما مصره غيرهم ولو بشركته معهم.

ولو صحت هذه المعاهدة التي نقلها لما كانت أبعد مما يعامل به أهل اوربا بالمسلمين وغيرهم في مستعمراتهم لاسيما في اثناء الفتح اذ تكون السياسة عسكرية بل هي أخف منه. وقد أعجبني قول الياس افندي الحداد من وجهاء نصارى طرابلس الشام جوابا عن قول آخر: ان بعض الاحكام التي تعامل بها المسلمون أهل الذمة قاسية. قال الياس افندي: ان هذه سياسة عسكرية وهي ضرورية في اثناء الفتح لابد منها لكل فاتح مهما كان عادلاً

ومتساهلاً: واقول انها مع كونها عسكرية كانت أعدل وأرحم سياسة كما قال بعض فلاسفة أوربا (راجع علوم العرب واكتشافاتهم في المجلد الخامس من المنار او ص١٠٥ من كتاب الإسلام والنصرانية) ثم انني لم أر في كتب الحديث والمغازي المأثورة شيئا في معاملة أهل الذمة قال رواية ان الصحابة اتفقوا أوأجمعوا عليه رأيا ألا ما رواه ابن عساكر عن الوليد من عمر وغيره وهو:

" ان عمر واصحاب رسول الله (ﷺ) أجمع رأيهم على إقرار ماكان بأيديهم من أرضهم يعمرونها ويؤدّون منها خراجها إلى المسلمين فمن أسلم منهم رفع عن رأسه الخراج وصار ما كان في يده من الأرض وداره بين أصحابه من أهل قريته يؤدون عنها ماكان يؤدي من خراجها ويسلمون له ماله ورقيقه وحيوانه، وفرضوا له في ديوان المسلمين وصار من المسلمين له ما لهم وعليه ما عليهم، ولا يرون انه وان اسلم أولى بما كان في يده من ارضه من اصحاب من أهل بيته وقرابته ولايجعلونها صافية للمسلمين. وسموا من ثبت منهم على دينه وقريته ذمة للمسلمين ويرون انه لا يصلح لاحد من المسلمين شراء ما في ايديهم من الارضين كرها لما احتجوا به على المسلمين من امساكهم كان عن قتالهم وتركهم مظاهرة عدوهم من الروم عليهم. فهاب لذلك أصحاب رسول الله (ﷺ) وولاة الامر قسمهم وأخذ ما في أيديهم من تلك الارضين وكره ايضا المسلمون شراءها طوعا لما كان من ظهور المسلمين على البلاد وعلى من كان يقاتلهم عنها ولتركهم كان البعثة إلى المسلمين وولاة الامر في الأمان، قبل ظهورهم عليهم. قال وكرهوا شراءها منهم طوعاً لماكان من ايقاف عمر واصحاب الارضين محبوسة على آخر الامة من المسلمين المجاهدين لا تباع ولاتورث قوة.على جهاد من لم يظهروا

عليه بعد من المشركين ولما ألزموه أنفسهم من اقامة الجهاد بحروفها كما في (كنْز العمال). وأغرب ما في هذه الرواية ان يسلم الذمي فتنزع منه أرضه وتعطى لاصحابه الذميين من ذوي قرباه ويفرض له بدل ذلك من بيت مال المسلمين. فيقارن المنصف بين هذا وبين انتزاع أعظم دول أوربا وطنية وحرية ومدنية أرض المسلمين من أيديهم حتى أوقافهم الدينية وذلك بوسائل لا مروج لها الا القوة القاهرة والبلاد التي يجري فيها ذلك قريبة منا ويعرف ما فيها العارفون ".

❖ عهد (موضوع) آخر زعموا أنه من النبي (ﷺ) للنصارى:

نشرت مجلة (روضة المعارف) التي تصدر في بيروت في عددها الثالث عشر من سنة ١٩٠٩ صورة عهد للنبي (ﷺ) تزعم انه املاه على معاوية لأهل الذمة، وقد اشار اليه رشيد رضا في (المنار) على انه من الاكاذيب الموضوعة على النبي (ﷺ) وهذا رده عليه[1]

«قد اطلعنا في مجلة روضة المعارف على هذا العهد الملفق الموضوع فساءنا اندفاع قومنا في تيار المجاملة إلى هذا الحد الذي يتهجم فيه على نشر هذه الاكاذيب الموضوعة على النبي (ﷺ) على حين نحن في غنى عنها بما عندنا من الآيات الكريمة والاحاديث الصحيحة وسيرة السلف المعروفة.

ان هذا العهد المكذوب لم يروه أحد من المحدثين ولا يحتاج من له ادنى شمة من علوم الدين إلى اطلاع واسع ليعرف انه مصنوع موضوع فذلك واضح في عبارته في أغلاطها واسلوبه في ركاكته ومافيه من الاصطلاحات الحادثة ومن المبالغة والتكرار ومن مسائله التي توهم ان الإسلام وجد في

---

(١) المنار ج٦ المجلة ١٢ سنة ١٩٠٩ م / ١٣٢٧ هـ ص٤٢١ ـ ٤٢٣.

الارض لأجل تعزيز النصرانية وخدمة أهلها والدفاع عنهم والخضوع والذل لهم وإعانتهم على المعاصي والجنايات اذا ارتكبوها فان مما جاء في " وان جر احد من النصارى جريرته " فهل يعقل من شم رائحة الإسلام ان النبي الذي يقول كما في صحيح البخاري " لو ان فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها " يأخذ العهد على أمته بأن ينصروا مرتكبي الجرائم والجنايات من النصارى ويحموهم ويدفعوا عنهم؟ وهل يتفق هذا مع قوله تعالى في الآية التي أذن فيها للمسلمين بالجهاد والدفاع عن أنفسهم" ٢٢: ٤١ ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾.

وفي هذا العهد كثير من امثال هذه المسائل الباطلة بالاجماع التي لا يبيحها الإسلام لأحد بل بعد استباحتها كفرا وردة عن الإسلام.

اما ما يدل على كذب هذا العهد مما يتوقف العلم به على الإلمام بالتاريخ فربما يعذر ناشروه بجهلهم له ولكنهم لا يعذرون بجهل المسائل المعلومة من الدين بالضرورة ثم ان هنا مسألة تأريخية تكاد تكون معروفة عند العامة وقد جهلها ناشرو هذا العهد وهي مسألة التأريخ بالهجرة ففيه " كتبه معاوية بن ابي سفيان باملاء رسول الله يوم الاثنين في ختام أربعة أشهر من السنة الرابعة من الهجرة بالمدينة " فمن المشهور أن هذا التأريخ قد حدث في خلافة عمر ابن الخطاب بمشاورة الصحابة (رضي الله عنهم) ولم يفعله النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولا أبو بكر (رضي الله عنه) وما ذكر مختلق العهد هذا التأريخ الا ليظهر كذبه علم التاريخ فالمروي في صحيح البخاري ان معاوية اسلم في عام الفتح أي في السنة التاسعة للهجرة فكيف كان يكتب للنبي في السنة الرابعة، ثم ان ختام

الشهر الرابع للهجرة وهو شهر جمادى الآخرة لم يكن يوم الاثنين، وانما كان يوم الجمعة.

وذلك ان الهجرة كانت في شهر ربيع الأول ولما أراد الصحابة في عهد عمر التأريخ بالهجرة جعلوه من أول السنة القمرية التي حدثت فيها فكان في ذلك زيادة شهرين كما هو مشهور ثم انه اكثر من الشهود ليظهر كذبه أيضا وهاك البيان بالايجاز.

في ذكر هؤلاء الشهود أربعة أنواع الغلط احدها واهونها الاسماء المحرفة والمصحفة كالفضيل بن العباس صوابه الفضل وحسن بن ثابت صوابه حسان وابو درداء صوابه الدرداء ويزيد بن ثابت صوابه زيد. والثاني من لم يكن اسلم كمعاوية. والثالث من كان قد مات او استشهد كحمزة. والرابع من لاوجود لهم في الصحابة كداود بن جبير والعاصي ابو حنيفة واساف بن يزيد وكعب بن كعب.



الملحق السادس

قصة بشير الرومي

(الذي اسلم ثم ارتد إلى النصرانية وما جرى له والقساوسة من الحوار مع الشيخ الدمشقي المسلم)

وبالاسناد اخبرنا الشيخ ابو الحسين علي بن محمد بن محمد بن بشران السكري، قال: أخبرنا ابو عمرو عثمان بن أحمد بن عبد الله بن السماك. حدثنا عبيد بن محمد ابن خلف البزاز، حدثنا الحسن بن الصباح البزار، حدثنا محمد بن كثير المصيصي الصنعاني، عن محمد بن الحسين عن واصل، قال:

أُسِرَ غلام من بني بطارقة الرُّوم، وكان غلاماً جميلاً، فلما صاروا إلى دار السلام، وقع إلى الخليفة [وهو عبد الملك بن مروان][1] ذلك في ولاية بني امية، فسمّاه بشيراً، وأمر به إلى الكتّاب، فكتب وقرأ القرآن وروى الشعر وقاس وطلب الاحاديث وحجّ، فلما بلغ واجتمع اتاه الشيطان فوسوس إليه وذكّره النصرانية دين آبائه، فهرب مرتداً من دار الإسلام إلى أرض الروم (الذي سبق له في أم الكتاب) فاتي به ملك الطاغية فسأله عن حاله وما كان فيه وما الذي دعاه إلى الدخول في النصرانية، فأخبره برغبته فيه، فعظم في عين الملك فرؤسه وصيره بطريقاً من بطارقته، وأقطعه قرى كثيرة فهي اليوم تُعرف به يقال لها قرى بشير، وكان من قضاء الله وقدره أنه أُسر ثلاثون رجلاً من المسلمين فلما دخلوا على بشير سألهم رجلاً رجلاً عن دينهم، وكان فيهم شيخ من أهل دمشق يقال له واصل، فسائله بشير فأبى الشيخ ان يرد عليه شئ ما، فقال بشير:

---

(١) هذا التوضيح ورد من الاصل المخطوط.

مالك لا تجيبني، قال الشيخ: لستُ اجيبك اليوم بشيء، قال بشير للشيخ: أني سائلك غداً فاعدّ جواباً، وأمره بالانصراف، فلما كان من الغد بعث بشير فأُدخل الشيخ إليه، فقال بشير: الحمد لله الذي كان قبل أن يكون شيء، وخلق سبع سماوات طباقاً بلا عون كان معه من خلقه، مقبحاً لكم معاشر العرب حين تقولون ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون! فسكت الشيخ. فقال له بشير: ما لَكَ لا تجيبني؟ فقال: كيف أجيبك وأنا أسير في يدك، فان اجبتك بما تهوى سخطت عليَّ ربي، وهلكت في ديني وان اجبتك بما لا تهوى خفتُ عليَّ نفسي، فأُعطني عهد الله وميثاقه وما أخذ النبيون على الأسم انك لا تغدر بي ولا تمُحل بي ولا تبغ لي باغية سوء، وانك اذا سمعت الحق تنقاد له، فقال بشير: عليَّ عهد الله وميثاقهُ وما أخذ الله عز وجل على النبيين، وما أخذه النبيون على الأمم اني لا اغدر بك ولا أمحل بك ولا ابغي لك باغية سوء، وأني اذا سمعت الحق انقدت إليه.

قال الشيخ: اما ما وصفت من صفة الله عز وجل فقد احسنت الصفة، وأما ما لم يبلغ علمك ولم يستحكم عليه رأيك أكثر واعم وأكبر مما وصفت فلا يصف الواصفون صفته، وأما ما ذكرت من هذين الرجلين فقد أسأت الصفة ألم يكونا يأكلان الطعام ويشربان ويبولان ويتغوطان وينامان ويستيقظان ويفرحان ويحزنان. قال بشير: بلى، قال فَلِمَ فرقّتم بينهما؟ قال بشير: لأن عيسى بن مريم عليه السلام، كان له روحان اثنتان في جسد واحد، روح يعلم بها الغيوب وما في قعر البحار، وما ينحات من ورق الأشجار، وروح يبرئ بها الأكمه والأبرص ويُحي بها الموتى. قال الشيخ: روحان اثنتان في جسد واحد! قال بشير: نعم، قال الشيخ: فهل كانت القوية تفوق موضع الضعيفة منهما أم لا؟ قال بشير: قاتلك الله ماذا تريد أن تقول ان قلت انها لا تعلم وما ذا تريد أن

قلت انها لا تعلم؟ قال الشيخ: ان قلت انها تعلم قلت فما يُغني عنها قولها حين لا تطرد هذه الآفات عنها، وان قلت انها لا تعلم قلت فكيف تعلم الغيوب ولا تعلم موضع روح معها في جسد واحد!! فسكت بشير.

قال الشيخ: اسألك بالله هل عبدتم الصليب مثلاً لعيسى بن مريم انه صُلب؟ قال بشير: نعم. قال الشيخ فبرضىً كان منه أم بسخط؟ قال بشير: هذا اختُ تلك ماذا تريد أن تقول ان قلت برضى منه قلت: ما نقمتم اعطوا ما سألوا وأرادوا، وان قلت بسخطٍ قلت فلم تعبدون ما لا يمنع نفسه ثم قال الشيخ لبشير: نشدتك بالله هل كان عيسى يأكل الطعام ويشرب ويصوم ويصلّي ويبول ويتغوط وينام ويستيقظ ويفرح ويحزن؟

قال: نعم

قال الشيخ: نشدتك بالله لمن كان يصوم ويصلي؟

قال: لله عز وجل، ثم قال بشير: والضار النافع ما ينبغي لمثلك أن يعيش في النصرانية أراك رجلاً قد تعلمت الكلام، وأنا رجل صاحب سيف ولكن غداً آتيك من يُخزيك الله على يديه! ثم أمره بالانصراف.

فلما كان من غد بعث بشير إلى الشيخ، فلما دخلَ عليه اذا عنده قس عظيم اللحية، قال له بشير: ان هذا رجل من العرب له علم وعقل وأصل في العرب، وقد أحبَّ الدخول في ديننا فكلّمه حتى تنصّره، فسجد القس لبشير وقال: قديماً اتيت إلى الخير وهذا أفضل مما اتيت الي، ثم أقبل القس على الشيخ فقال: أيها الشيخ ما أنت بالكبير الذي قد ذهب عقله وتفرق عنه حلمه، غداً اغطسك في المعمودية غطسة تخرج منها كيوم ولدتك امك، قال الشيخ: وما هذه المعمودية؟ قال القس: ماء مقدس، قال الشيخ: مَنْ قدّسه؟ قال القس:

قدسته أنا والأساقفة قبلي، قال الشيخ: فهل كان لكم ذنوب وخطايا؟ قال القس: نعم، غير انها كثير! قال الشيخ: فهل يقدس الماء من لا يقدس نفسه؟ قال: فسكت القس، ثم قال: اني لم اقدسه انا! قال الشيخ: فكيف كانت القصة اذن؟ قال القس: انما كانت سُنَّة من عيسى بن مريم، قال الشيخ فكيف كان الأمر؟ قال القس: ان يحيى بن زكريا اغطس عيسى بن مريم عليهم السلام بالأردن[1] غطسه ومسح برأسه ودعا له بالبركة، قال الشيخ: فاحتاج عيسى إلى يحيى يمسح رأسه ويدعو له بالبركة، فاعبدوا يحيى فيحى خير لكم من عيسى اذن!! فسكت القس: فاستلقى بشير على فراشه، وأدخل كمّه في فيه، وجعل يضحك [ثم] قال للقس: قم خزاك الله دعوتك لتنصّره فاذا انت قد أسْلمت. قال: ثم ان امر الشيخ بلغ الملك فبعث اليه فقال: ما هذا الذي قد بلغني عنك وعن تنقصك ديننا ووقيعتك؟

قال الشيخ: ان لي ديناً كنت سُألتُ عنه فلما تصنعت عنه سألت عنه فلم أجد بُدّاً للذي عنه دُعيت عنه، قال الملك: فهل في يدك حجج؟ قال الشيخ: نعم، ادع لي من شئت يحاججني فان كان الحق في يدي فلم تلومني في الذب عن الحق وان كان الحق في يديك رجعت إلى الحق.

فدعا الملك بعظيم النصرانية، فلما دخلَ عليه سجد له الملك ومن عنده أجمعون! قال الشيخ: أيها الملك مَنْ هذا؟ قال الملك: هذا رأس النصرانية، هذا الذي تأخذ النصرانية دينها عنه! قال الشيخ فهل له من ولد أم هل له من امرأة أم هل له من عَقب؟ قال الملك: مالك خزاك الله هذا أزكى وأطهر ان يدنّس بالحيض! هذا ازكى وأطهر من ذلك! قال الشيخ: فانتم تكرهون لأدمي يكون

(١) في الهامش من الأصل [الأردن نهر حماه وهو العاصي].

منه ما يكون من بني آدم من الغائط والبول والنوم والسهر ويأخذكم من ذكر النساء وتزعمون ان رب العالمين سكن في ظلمة الأحشاء وضيق الرحم ودنُس بالحيض!

قال القس: هذا شيطان من شياطين العرب رمى به البحر إليكم فاخرجوه من حيث جاء، فأقبل الشيخ على القس فقال: عبدتم عيسى بن مريم انه لا أب له فهذا آدم لا أب له ولا أم خلقه الله عز وجل بيده واسجد له ملائكته فضمّوا آدم مع عيسى حتى يكون لكم إلآهان اثنان، فان كنتم انما عبدتموه لأنه أحيى الموتى فهذا حزقيل[1] ألم تجَدونه مكتوباً عندكم في التوراة والانجيل لا ننكره نحن ولاأنتم مرَّ بميت فدعا الله عز وجل له فأحياه حتى كلّمه فضمُّوا حزقيل مع عيسى حتى يكون لكم حزقيل ثالث ثلاث، وان كنتم انما عبدتموه لأنه أراكم العجب، فهذا يُوشع بن نون قاتل قومه حتى غربت الشمس، قال لها: ارجعي باذن الله، فرجعت اثني عشر برجاً فضموا يوشع بن نون مع عيسى يكون لكم رابع أربعة، وان كنتم انما عبدتموه لأنه عُرج به إلى السماء فمن ملائكة الله عز وجل مع كل نفس اثنان بالليل، واثناء بالنهار، يعرجون إلى السماء، مالوا ذهبنا نعدّهم لا لتبس علينا عقولنا، واختلط علينا ديننا، وما أزددنا في ديننا الا تحيّراً، ثم قال: أيها القس أخبرني عن رجل حلّ به موت، أيكون أهون عليه أو القتل؟ قال القس: القتل، قال: فلم لم يقتل عيسى اُمّه عذبها بنزع النفس! ان قلت انه قتلها فابرأ امه من قتلها، وان قلت انه لم يقتلها فما برّ امه من عذبها بنزع النفس! قال القس: اذهبوا به إلى الكنيسة العظمى

(١) في الهامش [وحزقيل بن بوزي من انبياء بني اسرائيل وله كتاب]

فانه لا يدخلها أحد الاّ تنصّر، قال الملك: اذهبو به! قال الشيخ: لماذا يُذهب لي ولاحجّة عليّ دُحضت؟ قال الملك: لن يضرّك انما هو بيت من بيوت ربك عزّ وجل يُذكر الله عز وجل فيه. قال الشيخ: ان كان هكذا فلا بأس. قال: فذهبوا به فلما دخل الكنيسة وضع اصبعه في اذنيه ورفع صوته للآذان فجزعوا لذلك جزعاً شديداً وضربوه ولببوه[1] وجاءوا به إلى الملك، فقالوا: أيها الملك، أحلَّ بنفسه القتل، فقال له الملك لم أحللت بنفسك القتل؟ فقال: أيها الملك اين ذهب بي. قال: ذهبوا بك إلى بيت من بيوت الله عز وجل لتذكر فيه ربك عز وجل! قال: فقد دخلت وذكرت ربي بلساني وعظمته بقلبي، وان كان كل ما ذكر الله في كتابكم يصغر دينكم فزادكم الله صغاراً، قال الملك: صدق ولا سبيل لكم عليه، قالوا: أيها الملك لا نرضى حتى تقتله! قال الشيخ: انكم متى قتلتموني فبلغ ذلك ملكنا وضع يده في قتل القسيسين والاساقفة وخرّب الكنائس وكسّر الصُلبان ومنع النواقيس! قال: فانه يفعل، قال: نعم، فلا يشكوا ففكروا في ذلك فتركوه.

قال الشيخ: ايها الملك، ما عاب أهل الكتاب على أهل الأوثان؟ قال: بما عبدوا ما عملوا بايديهم! قال: فهل انتم تعبدون ما عملتم بايديكم هذا الذي في كنائسكم فان كان في الانجيل فلا كلام لنا فيه، وان لم يكن في الانجيل فلم تشبّه دينك بدين أهل الأوثان؟ قال الملك: صدق، هل تجدون في الانجيل؟ قال القس: لا، قال الملك: فلم تشبه ديني بدين اهل الأوثان؟ فأقر بنقض الكنائس فجعلوا ينقضونها ويبكون! قال القس: ان هذا الشيطان من شياطين

---

(١) في الهامش [التلبب ــ الخنق [قال الطريحي: " اللبة " المنحر وموضع القلادة، ولببت الرجل تلبباً: اذا جمعت ثيابه عند صدره ونحره عند الخصومة ثم جررته " مجمع البحرين ٢ / ١٦٥.

العرب رمى به البحر اليكم به رجالاً فأخرجوه إلى بلاد دمشق، ووضع الملك يده في قتل القسيسين والاساقفة والبطارقة [ب - ٢٥] حتى هربوا إلى الشام لأنهم لم يجدوا أحداً يحاجّه.

تم الحديث بحمد الله وعونه وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم[1].



(١) هذه الحكاية وردت ضمن مخطوط ليدن مقحمة في ثنايا الحديث عن حريق دمشق، ويبدو ان جامع المخطوط دونها في خضم ما ذكره من الوقائع المتشابهة لما لها من صلة بنصارى الشام وآثرنا اخراجها بداعي هذا الغرض، ولكونها تعطي صورة عن التعامل المسيحي الإسلامي في تلك الاعصر، وتغليب لغة الجدل والنقاش الديني المهيمن على الوجدان الشعبي.

الملحق السابع

العهدة النبوية[1] للنصارى

وفي تاريخ الفتوح عهود كثيرة كتبت لأهل الذمة عاهدهم المسلمون فيها بحمايتهم وتسهيل اعمالهم في مقابل ما يؤدونه من الجزية ككتاب النبي (ﷺ) إلى صاحب ايلة في العقبة والى أهل أذرح في أثناء غزوة تبوك في السنة التاسعة للهجرة وذكر كتاب علي ابن أبي طالب رابع الخلفاء الراشدين في السنة المذكورة.

وقد اقتدى بالنبي عليه الصلاة والسلام قواده في أثناء الفتح بالشام ومصر والعراق وفارس وكتبوا العهود لأهل الذمة على نحو ما تقدم في مقابلة الجزية. منها عهد خالد بن الوليد الذي كتبه لأهل الشام وهذا نصه:

" بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أعطى خالد بن الوليد أهل دمشق اذا مكن من دخولها اعطاهم أماناً على انفسهم واموالهم وكنائسهم وسور مدينتهم لا يهدم ولا يسكن شئ من دورهم لهم بذلك عهد الله وذمة رسوله والخلفاء والمؤمنين لا يعرض لهم الا بخير اذا اعطوا الجزية ".

وإليك صورة عهد ابي عبيدة بن الجراح إلى أهل بعلبك. بعد البسملة " هذا كتاب أمان لفلان بن فلان وأهل بعلبك رومها وفرسها وعربها على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم ودورهم وأهل المدينة وخارجها وعلى الروم ان

---

(١) العُهدة بالضم كتابُ الحِلْفِ واستعهد من صاحبه: اشترط عليه، ولجت عليه عهدةٌ (القاموس ٣٨٧ — ٣٨٨).

يرعوا سرحهم ما بينهم وبين خمسة عشر ميلا ولا ينزلوا قرية عامرة، فان مضى شهر ربيع وجمادى الأولى ساروا إلى حيث شاؤا ومن اسلم منهم فله مالنا وعليه ما علينا ولتجارهم ان يسافروا إلى حيث أرادوا من البلاد التي صالحنا عليها وعلى من اغتلم منهم الجزية والخراج شهد الله وكفى بالله شهيداً".

العهدة النبوية :

ومن بين الوثائق التي وصلتنا منذ قرون العهد المنسوب إلى النبي (ﷺ) على انه كتبه إلى النصارى ورهبانهم ويسمى بالعهدة النبوية. وتنسب كتابته إلى صهر الرسول (ﷺ) وابن عمه علي بن ابي طالب كرم الله وجهه، ويقال انه وضع في مسجد النبي في السنة الثانية للهجرة! وحُملت منه نسخ إلى الاديار[1].

وروي أن نسخة من ذلك العهد نسخة محفوظة في دير طورسينا نقلها السلطان سليم الفاتح العثماني إلى الآستانة في اوائل القرن السادس عشر للميلاد بعد ان عرضها على مجلس شرعي لترجمتها إلى اللغة التركية، وقد ابقوا النسخة التركية في الدير وصورة عن الأصل العربي مع عهود برعاية حقوقهم الواردة في نص ذلك العهد، وحملوا النسخة العربية الأصلية إلى الاستانة[2].

وقد نقل صاحب كتاب " منشآت السلاطين " لأفريدون بك[3] نص العهدة النبوية كما نقلها جرجي زيدان صاحب تاريخ التمدن الإسلامي وعلق على

(١) منتخبات التواريخ ٦٦ ـــ ٦٥.

(٢) م. س

(٣) أحمد فريدون بك التوقيعي المتوفي ٩٩٠ هـــ ـــ ١٥٨٢ م والعهد مذكور في الجزء الأول من كتابه المذكور، المطبوع ١٢٦٤ هـــ. ونقله عنه صاحب كتاب (قاوس الادارة والقضاء).

نص الكتاب بقوله: والغالب في اعتقادنا ان النبي عليه الصلاة والسلام أذا كان قد اعطى عهداً للنصارى والرهبان عموماً فهو غير هذا العهد أو لعله كان مختصراً وطولوه أوتنوسي وضاع اصله فكتبوه من عندهم او ان النصارى وضعوا هذا العهد من عند انفسهم لغرض سياسي اذ لم يذكر خبر هذا العهد احد من مؤرخي الفتوح او غيرهم من كتاب المسلمين في الازمنة الأولى فضلا عما في عبارته وبعض نصوصه مما لم يكن معروفاً في صدر الإسلام وخصوصاً في السنة الثانية من الهجرة.

ولغرض الأطلاع على العهد نورد نصه الكامل كما أورده الدكتور مراد كامل[1].

- **عهد نبوي:**

(مخطوطة رقم ١ وثائق عربية، من مكتبة دير سانت كاترين بطور سيناء)

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

---

(١) MARDIS DE DARELSALAM 1952. P.144- 146.

وجاء في مجلة كلية الآداب. بالاسكندرية المجلد ١٨ ص٤٩ وما بعدها (سنة ١٩٦٤) ضمن مقال للدكتور حسن صبحي بأن دير سانت كاترين يحنفظ بثمان نسخ مخطوطة باللغة العرقبية للعهد النبوي وانها كتبت في ازمنة متفاوتة وهي تختلف في النص ولكنها متفقة في المعنى، وان العهد ذُكر في مراسيم ادصرها السلطان محمد الثاني في عام ١٤٥٧ والسلطان سليم في عام ١٥١٧ والسلطان عبد العزيز عام ١٨٦٨ والسلطان عبد الحميد في عام ١٩٠٤، ولما جاء السلطان سليم إلى مصر ذهب اليه الرهبان وعرضوا عليه العهدة النبوية الشريفة " ففرح بها اكثر من تملكه لمدينة القاهرة " وتراجع ايضا المراجع التالية:

- مخطوطات " دير سانت كاترين ". أرقام ١ و٢ و٣ و٤ و٥ و٦٥٩، ٦٩٦، ٩٦١.
- RABINO, M.H.L, Le Monastere De Sainte – Catherine Du Mont sinai Le caire, 1938, P.40.
- مخطوط رقم ٢٢٥٣ (يوناني) ــ (حوليات ومعاهدات. ص٤٢)، انظر أيضاً: كتاب تاريخ الدير ــ مخطوط عربي كتب عام ١٨٥٢ م ــ مكتبة الدير ــ رقم ٦٩٢ (عربي) ــ ص٣.

نسخة سجل العهد كتبه محمد بن عبد الله رسول الله (ﷺ) إلى كافة النصارى.

هذا كتاب كتبه محمد بن عبد الله إلى كافة الناس أجمعين بشيراً ونذيراً ومؤتمناً على وديعة الله في خلقه لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، وكان الله عزيزاً حكيما.

كتبه لأهل ملته ولجميع من ينتحل دين النصرانية من مشارق الأرض ومغاربها، قريبها وبعيدها، فصيحها وعجمها، معروفها ومجهولها، كتاباً جعل لهم عهداً.فمن نكث العهد الذي فيه وخالفه إلى غيره وتعدى ما أمره كان لعهد الله ناكثاً، ولميثاقه ناقضاً، وبدينه مستهزئاً، وللّعنة مستوجباً، سلطاناً كان أم غيره من المسلمين المؤمنين وإن احتمى راهب أو سائح في جبل أو واد أو مغارة أوعمران أو سهل أو رمل أو رونة أو بيعة فأنا أكون من ورائهم، ذاب عنهم من كل عدو لهم بنفسي وأعواني وأهل ملتي وأتباعي، لأنهم رعيتي وأهل ذمتي وأنا أعزل عنهم الأذى في المؤن التي تحمل أهل العهد منه القيام بالخراج إلا ما طابت به نفوسهم. وليس عليهم جبر ولا إكراه على شئ من ذلك. ولا يضير أسقف من أسقفيته، ولا راهب من رهبانيته، ولاحبيس من صومعته، ولا سائح من سياحته، ولا يهدم بيت من بيوت كنائسهم وبيعهم، ولايدخل شئ من مال كنائسهم في بناء مسجد، ولا في منازل المسلمين. فمن فعل شيئاً من ذلك فقد نكث عهد الله وخالف رسول الله. ولا يحمل على الرهبان والأساقفة، ولا من يتعبد، جزية ولاغرامة. وأنا أحفظ ذمتهم أين ما كانوا من بر أو بحر، في المشرق والمغرب، والشمال والجنوب، وهم في ذمتي وميثاقي وأماني من كل مكروه، وكذا من ينفرد بالعبادة في الجبال والمواضع

المباركة لا يلزمهم مما يزرعوه، لا خراج ولا عُشر، ولايشاطرون، لكونه برسم أفواههم، ويعافون عند إدراك الغلة باطلاق قدح واحد من كل أردب برسم أفواههم، ولايلزموا بخروج في حرب ولا قيام بجزية، ولا من أصحاب الخراج وذوي الأموال والغضارات والتجارات مما أكثر من اثني عشر درهماً بالحجة في كل عام. ولا يكلف أحد منهم شططاً، ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾. ويحفظ (نسخة أخرى، ويخفض) لهم جناح الرحمة، ويكف عنهم أذى المكروه حيث ما كانوا وحيث ما حلوا. وأن صارت النصرانية عند المسلمين فعليه برضاها وتمكينها من الصلاة في بيعها ولايحيل بينها وبين من هو في دينها، ومن خالف عهد الله واعتمد بالضد من ذلك فقد عصى ميثاقه ورسوله.ويعانوا على مرمة بيعهم ومواضعهم ويكون ذلك معونة لهم على دينهم وافعالهم بالعهد. ولا يلزم أحد منهم بنقل سلاح، بل المسلمين يذبوا عنهم، ولايخالفوا هذا العهد أبداً إلى حين تقوم الساعة، وتنقضي الدنيا.

وشهد بهذا العهد الذي كتبه محمد بن عبد الله رسول الله (ﷺ) لجميع النصارى، والوفاء بجميع ما شرط لهم عليه من أثبت اسمه وشهادة آخرة رضوان الله تعالى عليهم.

علي بن أبي طالب. أبو بكر بن قحافة. عمر بن الخطاب. عثمان بن عفان. أبو الدرداء. أبو هريرة. عبد الله بن مسعود. عباس بن عبد المطلب. فضيل بن عباس. الزبير بن العوام. طلحة بن عبد الله. سعد بن معاذ. سعد بن عبادة. ثابت بن نفيس. زيد بن ثابت. أبو حنيفة بن عبيد. هاشم بن عبيد. حارث بن ثابت. عبد العظيم بن حسن. معظم بن قرشي. عبد الله بن العاص. عمر بن ياسين.

وكتب علي بن أبي طالب هذا العهد بخطه في مسجد النبي (ﷺ) بتاريخ الثالث من محرم ثاني سنة من الهجرة النبوية وأودعت نسخته في خزانة السلطان وختم بخاتم النبي عليه الصلاة والسلام. وهو مكتوب في جلد أديم طائفي.

فطوبى ثم طوبى لمن عمل به وبشروطه وهو عند الله من راجين عفو ربه.

وفي الأصل المنقول منه هذه النسخة المتوجة بالنشان الشريف السلطان ما صورته.

" نقلت هذه النسخة من النسخة الكائنة بخط أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه بالأمر الشريف السلطاني لا زال نافذاً بعون المعين السبحاني. ووضعت بايدي طائفة الرهبان القاطنين بجبل طور سينا، ليكون لهم سنداً على ما تشهد به المراسيم والسجلات التي في أيدي الطائفة المذكورة".

- **صورة أخرى للعهدة النبوية:**

أورد جرجي زيدان صورة اخرى للعهدة النبوية المحفوظة بطور سيناء، وهي وان كانت تتفق في الغالب من مضمونها مع سابقتها فاننا نثبتها ليسهل مقارنتها مع الأولى:

" بسم الله الرحمن الرحيم "

هذا كتاب كتبه محمد بن عبد الله إلى كافة الناس أجمعين مبشراً ونذيراً ومؤتمناً على وديعة الله في خلقه لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، وكان الله عزيزاً حكيما.

كتبه لأهل ملة النصارى ولمن تنحل دين النصرانية من مشارق الأرض ومغاربها، قريبها وبعيدها، فصيحها وعجمها، معروفها ومجهولها، كتاباً جعل لهم عهداً. فمن نكث العهد الذي فيه وخالفه إلى غيره وتعدى ما أمره كان لعهد الله ناكثاً، ولميثاقه ناقضاً، وبدينه مستهزئاً، وللعنة مستوجباً، سلطاناً كان أم غيره من المسلمين المؤمنين. وإن احتمى راهب أو سائح في جبل أو واد أو مغارة أوعمران أو سهل أو رمل أو رونة أو بيعة فأنا أكون من ورائهم، ذاب عنهم من كل عدو لهم بنفسي وأعواني وأهلي وملتي وأتباعي، لأنهم رعيتي وأهل ذمتي. وأنا أعزل عنهم الأذى في المؤن التي تحل أهل العهد منه القيام بالخراج إلا ما طابت به نفوسهم. وليس عليهم جبر ولا إكراه على شئ من ذلك. ولا يغير أسقف من أسقفيته، ولا راهب من رهبانيته، ولاحبيس من صومعته، ولا سائح من سياحته، ولا يهدم بيت من بيوت كنائسهم وبيعهم، ولايدخل شئ من مال كنائسهم في بناء مسجد، ولا في منازل المسلمين. فمن فعل شيئاً من ذلك فقد نكث عهد الله وخالف رسول الله ولا يحمل على الرهبان والأساقفة، ولا من يتعبد، جزية ولاغرامة. وأنا أحفظ ذمتهم أين ما كانوا من بر أو بحر، في المشرق والمغرب، والشمال والجنوب، وهم في ذمتي وميثاقي وأماني من كل مكروه، وكذلك من يتفرد بالعبادة في الجبال والمواضع المباركة لا يلزمهم مما يزرعوه، لا خراج ولا عُشر، ولايشاطرون، لكونه برسم أفواههم، ويعافون عند إدراك الغلة باطلاق قدح واحد من كل أردب برسم أفواههم، ولايلزموا بخروج في حرب ولا قيام بجزية، ولا من أصحاب الخراج وذوي الأموال والغضارات والتجارات مما أكثر من اثني عشر درهماً بالحجة في كل عام. ولا يكلف أحد منهم شططاً، ولاتجادلوا إلا بالتي

هي أحسن. ويحفظ (نسخة أخرى، ويخفض) لهم جناح الرحمة، ويكف عنهم أذى المكروه حيث ما كانوا وحيث ما حلوا وأن صارت النصرانية عند المسلمين فعليه برضاها وتمكينها من الصلاة في بيعها ولايحيل بينها وبين من هو في دينها، ومن خالف عهد الله واعتمد بالضد من ذلك فقد عصى ميثاقه ورسوله ويعانوا على مرمة بيعهم ومواضعهم ويكون ذلك معونة لهم على دينهم وافعالهم بالعهد ولا يلزم أحد منهم بنقل سلاح، بل المسلمين يذبوا عنهم، ولايخالفوا هذا العهد أبداً إلى حين تقوم الساعة، وتنقضى الدنيا[1].

يذكر ان السيد محمد حسنى العامري (كاتب باسبورتات السويس بمصر) أنه زار دير سيناء والتقى فيه بالأب بوليـاروبيو الذي اراه العهدة النبوية بخط علي بن أبي طالب ووصفها بما يلي: " صحيفة كبيرة طولها ٦٥ سنتميترا وعرضها ٤٨ في اعلاها صورة الدير تحتها العهدة مكتوبة باللغة التركية بخط ديواني مع مقدمة وانها النسخة التي كتبت بأمر السلطان سليم الفاتح لما فتح مصر في اول القرن السادس عشر بدلاً من العهدة الاصلية التي استولى هو عليها على ما يقال"[2].

" جاء بعض القسوس وخيار النصرانية إلى مجلس الشرع النبوي في عهد السلطان سليم (بمصر) وقالوا انهم اتوا من قديم الزمان إلى مقام كليم الله في الوادي المقدس وصعدوا إلى جبل المناجاة وزاروا طور سينا وشاهدوا الدير المبني هناك من زمن الجاهلية وتحققوا بالعيان ان النبي محمد بن عبد الله احسن إلى أهل هذا الدير بعهدة نالوا بها الرعاية ودخلوا في ذمة المسلمين

(١) الهلال ج٣ السنة ٧ الصادر في ١ نوفمبر ١٨٩٨ ص ١٠٩ ــ ١١٠.

(٢) ورد هذا الوصف في مجلة الهلال الجزء ١٧ السنة ٧ الصادر في ١ حزيران ١٨٩٩ م ــ ٢٢ محرم ١٣١٧.

وتمتعوا هم واجدادهم واستاذتهم وكبراؤههم بالحرمة والرعاية وانهم حصلوا بمقتضى هذه العهدة من الخلفاء الراشدين واسلاف السلاطين نور الله مضاجعهم بانوار اليقين إلى يوم الدين على أوامر او منشورات تقضى بمعاملتهم بالحسنى وان تلك الأوامر تتضمن ذكر هذه العهدة المشار اليها ونظرت فاذا هي لا تخالف الشرع الشريف ".

ثم وردت ترجمة العهدة بالتركية وفي ذيلها أسماء كبار الصحابة وهي سبب ترتيبها في صورة ذلك التقرير:

هاشم بن عبيد	سعد بن معاذ
أبو حنيفة بن عبيد	سعد بن عباس
علي بن أبي طالب	ثابت بن نفيس (قيس)
أبو بكر بن أبي قحافة	زيد بن ثابت
عمر بن الخطاب	معطمة بن قرش
عثمان بن عفان	حارث بن ثابت
أو الدرداء	عبد الصمد بن حسن
أبو هريرة	عبد الله بن عمرو(عمر)
عبد الله بن مسعود	ابن عاصم
فضل بن عباس	ابن عباس
طلحة بن عبد الله	عارف ادريس

وبعد ترجمة العهدة واسماء الصحابة جاء ما ترجمته " وكانت العهدة المذكور وقد كتبت بخط علي بن أبي طالب ووضعت في مسجد النبى في

السنة الثانية للهجرة في اليوم الثالث من محرم الحرام واما نسختها التي عرضت على هذا المجلس فقد حملت إلى الاساتذة وحفظت في خزينة جلالة السلطان واعطيت عنها صورة على صحيفة مربعة كبيرة صفراء اللون مذهبة الزوايا وهي التي ترجمت إلى التركية وبمقتضاها اعطيت لهم هذه الحجة ليكونوا في مأمن هم وكل من يصدر من عندهم او يرد اليه ولا يدخل احد دير هم الا باذنهم عملاً بنص الآية الشريفة " اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولي الامر منكم".

شهود الحال

مولانا عمر بن مصطفى

محمد بن إدريس ومصطفى بن عبد الله وغيرهم.

- **رأي جرجي زيدان:**

بعد حفنة من السنين عاد جرجي زيدان إلى نشر العهدة المذكورة مجدداً وفي هذه المرة أبدى شكوكه حولها ومما ذكره في تعليقه:

" أما صحة هذا العهد فلنا فيه نظر. ليس لأن النبي لم يعط عهوداً فانه عاهد كثيرين على الأمان منهم صاحب أيلة (في العقبة) وهذا نص كتابه إليه:

" بسم الله الرحمن الرحيم هذه أمنة من الله ومحمد النبي رسول الله ليحيى بن روية واهل ايلة سفنهم وسيارتهم في البر والبحر لهم ذمة الله وذمة محمد النبي ومن كان معهم من اهل الشام وأهل اليمن واهل البحر فمن احدث منهم حدثا فانه لا يحول ماله دون نفسه وانه طيب لمن اخذه من الناس وانه لا يحل ان يمنعوا ما يردونه ولا طريقاً يردونه من بر او بحر ".

ومثله كتابه إلى أهل اذرح واهل مقنا وقد نشرناه في تاريخ التمدن الإسلامي ٩٢ ج٣. أما العهدة النبوية التي نحن في صددها فانهاموجهة إلى النصارى كافة. ويقولون انها كتبت بخط علي بن أبي طالب ووضعت في مسجد النبي في السنة الثانية للهجرة وحملت منه نسخ إلى الاديار. ومن ذلك نسخة كانت محفوظة في دير طور سينا فنقلها السلطان سليم الفاتح العثماني إلى الآستانة في اوائل القرن السادس عشر للميلاد بعد ان عرضها على مجلس شرعي فنقلوها إلى اللغة التركية وابقوا النسخة التركية في الدير وصورة الاصل العربي مع عهود برعاية حقوقهم الواردة في نص ذلك العهد وحملوا النسخة العربية الاصلية إلى الاستانة.

أما من حيث صحة نسبتها إلى النبي فالغالب في اعتقادنا ان النبي اذا كان قد اعطى عهداً للنصارى والرهبان عموماً فهو غير هذا العهد من عند انفسهم لغرض سياسي اذ لم يذكر خبره احد من مؤرخي الفتوح او غيرهم من كتاب المسلمين في الازمن الاولى فضلاً عما في عباراته والفاظه مما لم يكن معروفا في صدر الإسلام وخصوصاً في السنة الثانية للهجرة والله اعلم "[1].



(١) الهلال السنة ٢٠ (سنة ١٩١٢) ص٣٠١ ــ ٣٠٣، وقد رأيت ضمن فهرس مخطوطات جامعة كامبرج مخطوطة بعنوان " العهد الذي شرطها (كذا) محمد لأهل الملّة النصرانية " وهو برقم ٤١٦، ويقع في ٤٦ ورقة. وقد أخبرني السيد أدهم (سفير البوسنة في دولة الكويت) لدى لقائه في باريس ١ أكتوبر ٢٠٠٦ بأن نسخة نفيسة من هذه العهدة موجودة فعلاً في سرايفو وأنه اطلع عليها بنفسه وصورها وقدمها لعدد من المسؤولين الدوليين.
وأكد لي فضيلة مفتي البوسنة الشيخ مصطفى سيرك Mustafa Ceric وجود (عهد نامه) كتبه السلطان محمد الفاتح سنة ١٤٦٣ لصالح المسيحيين في البوسنة، وأنه وافق مقاصد الشريعة الخمس الضرورية «النفس والدين والعقل والمال والعرض» ووعد بتصويره لي (لقاء مع فضيلته، ليدن ٢٦ شباط /فبروري ٢٠٠٧).

العهود النبوية في المصادر السريانية

يذكر ماري بن سليمان (القرن الثاني عشر الميلادي) أن النبي محمداً تسلم رسالة من رأس الكنيسة الشرقية، مع استنكار ملك الفرس، ورد في الرواية: كان الجاثليق أو الفطرك «يكاتب صاحب شريعة الإسلام، ويهدي له ويسأله الوصاة (هكذا وردت) برعيته في نواحيه، فأجابه إلى ذلك، وكتب إلى أصحابه كتباً بليغة مؤكدة، وبرّه صاحب الشريعة، عليه السلام، ببرّ كان فيه عدة من الإبل وثياب عدنية، وتأتى ذلك إلى ملك الفرس، فأنكر على الفطرك فعله ومكاتبته، وخاصة عند ورود هداياه، فداراه (الجاثليق) إلى أن سلم منه، وعاش إلى أيام عمر بن الخطاب عليه السلام (هكذا وردت)، فكتب له كتاباً مؤكداً بالحفظ والحياطة، وأن لا يؤخذ من إخوانه وخدمه الجزية وأشياعه أيضاً، وهذا الكتاب محتفظ به إلى هذه الغاية»[1]. أما تاريخ السعردي (القرن الثاني عشر الميلادي) فيذكر أن رسول الجاثليق قد التقى أبا بكر وعمر بن الخطاب، وأخذ من الأخير العهد لأهل دينه. ويذكر مؤرخ آخر، يدعى صليبا بن يوحنان الموصلي (القرن الرابع عشر الميلادي)، في سياق تعرضه لسيرة الجاثليق ايشوعياب «في أيامه.. كان قد بدأ يظهر أمر العرب بني إسماعيل، سنة خمس وثلاثين وتسعمائة للاسكندر، ولما كشف الله لهذا الأب ما يؤول إليه هذا الظهور من السلطان والملك والقوة وفتح البلاد جمع رأيه، وسابق بعقله وحكمته إلى مكاتبة صاحب شريعتهم، وهو بعد غير متمكن، وأنذره بما

---

(١) تاريخ الكنيسة الشرقية ٢ص٥٤ عن المجدل، أخبار بطاركة الشرق، ص٦٢، مجلة المشرق، آذار، ١٩٠٩، ص٦٠٩-٦١٨ و٦٧٤-٦٨٣.

يصير إليه أمره من القوة، وسيَّر ذلك له مع هدايا جميلة فلما قوي أمره وتمكن عاد كاتبه، وأخذ منه العهد والزمام لجميع النصارى في كافة البلدان، التي يملك عليها هو وأصحابه من بعده، وأن يكونوا في حمايته، آمنين على جاري عادتهم في إقامة الصلوة والبيع»[1].

ويرى البعض أن المؤرخين المسيحيين اختلقوا مثل هذه الصلات، محاولة منهم للتخفيف من وطأة الجزية، والضغوط الأخرى عليهم، ومنها ما شرعه عمر بن الخطاب ونسب إلى عمر بن عبد العزيز أو بالعكس في شأن لباسهم وكنائسهم ومعاملتهم. فاعتبر الأب أبونا العهود المحفوظة في الكنائس الشرقية، التي تذرع بها المسيحيون عهوداً «خيالية يستنبطونها للذود عن كيانهم والحفاظ على دينهم وتقاليدهم»[2]. وأهم هذه العهود: كان عهد النبي محمد، وفحواه: أن من واجب المسلمين حماية المسيحيين ولا يضطهدونهم إلى الحرب معهم، ولهم حرية العبادة في كنائسهم وأديرتهم، ولا يضطرونهم إلى اعتناق الإسلام وجاء في عهد عمر بن الخطاب: «لا يغير لكم أسقف من أساقفتكم، ولا رئيس من رؤسائكم، ولا يهدم بيت من بيوت صلواتكم، ولا بيعة من بيعكم، ولا يدخل شيء من بنائكم إلى بناء المساجد، ولا منازل المسلمين، ولا يعرض لعابر سبيل منكم في أقطار الأرض، ولا تكلفوا الخروج مع المسلمين إلى عدوهم لملاقاة الحرب، ولا يجبر أحد مما كان على ملة النصرانية على الإسلام كرهاً، لما أنزل إليه في كتابه إذ يقول: لا إكراه في الدين»[3].

---

(١) المصدر نفسه، عن المجدل، ص٥٤-٥٥.

(٢) المصدر نفسه، ص٥٧.

(٣) المصدر نفسه، ص٥٦-٥٧.

ومن قصص العهود أن عهداً خاصاً بمسيحيي نجران عثر عليه منسوخاً في دفتر لحبيب الراهب العام ٢٦٥هـ (٨٧٨هـ) فشهد صاحبه الراهب أنه عثر عليه ببيت الحكمة ببغداد، وأنه كان يتولى حفظه قبل أن يترهب، وأنه مغلف في جلد ثور، ومختوم بخاتم النبي محمد[1]. وما يميز نسخة هذا العهد في المصادر المسيحية عنها في المصادر الإسلامية عبارة «لأهل نجران وسائر من ينتحل دين النصرانية في أقطار الأرض» وتأييده بالشهود من كبار صحابة المسلمين. وللإيضاح نأتي بصيغتي العهد السريانية والعربية، ولنقل الصيغة المسيحية والصيغة الإسلامية. والأولى منقولة عن تاريخ السعردي، المترجم إلى العربية العام ١٠٢٠م، والثانية عن كتاب «الخراج»لأبي يوسف (ت ٧٩٨م)، المصنف بطلب من هارون الرشيد.

«نسخة عهد وسجل من محمد بن عبد الله عليه السلام لأهل نجران وسائر من ينتحل دين النصرانية في أقطار الأرض: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب أمان من الله ورسوله للذين أوتوا الكتاب من النصارى، من كان منهم على دين نجران أو على شيء من نحل النصرانية.كتبه لهم محمد بن عبد الله، رسول الله، إلى الناس كافة، ذمة لهم من الله ورسوله وعهداً عهد إل المسلمين من بعده عليهم أن يعوه ويعرفوه ويؤمنوا به ويحفظوه لهم ليس لأحد من الولاة ولا لذي شيعة من السلطان وغيره نقضه، ولا تعديه إلى غيره، ولا حمل مؤنة من المؤمنين عليهم سوى الشروط المشروطة في هذا الكتاب فمن حفظه ورعاه ووفى بما فيه فهو على العهد المستقيم والوفا بذمة رسول الله. ومن نكثه وخالفه إلى غيره وبذله فعليه وزره، وقد خان أمان الله، ونكث عهده وعصاه،

---

(١) مجلة بين النهرين، العدد ١٩٧٦/٤، ص١٨٢.

وخالف رسوله، وهو عند الله من الكاذبين، لأن الذمة واجبة في دين الله المفترض، وعهده المؤكد، وبرى الله المؤمنين منه وصالح المؤمنين.

فأما السبب الذي استوجب أهل النصرانية الذمة من الله ورسوله والمؤمنين فحق لهم لازم لمن كان مسلماً، وعهد مؤكد لهم على هذه الدعوة، ينبغي للمسلمين رعايته والمعونة به وحفظه والمواظبة عليه والوفا به، إذ كان جميع أهل الملل والكتب العتيقة أهل عداوة لله ورسوله وإجماع بالبغضاء والجحد للصفة المنعوتة في كتاب الله من توكيده عليهم في حال نبيه، وذلك يؤذن عن غش صدورهم وسوء مآخذهم وقساوة قلوبهم بأن علموا أوزارهم وحملوها وكتموا ما أكده الله عليهم فيها بأن يظهروه ولا يكتموه ويعرفوه ولا يجحدوه فعملت الأمم بخلاف ذلك ما كانت الحجة به عليه فلم يرعوه حق رعايته، ولم يأخذوا في ذلك بالآثار المحدودة، وأجمعوا على عداوة الله ورسوله، والتأليب عليهم والراس (والمثالب عليهم والتزيين) للناس بالكذب والحجة لا يكون الله أرسله إلى الناس بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً.

يبشر بالجنة من أطاعه، وينذر بالنار من عصاه. فقد حملوا من ذلك أكثر ما زينوا لأنفسهم من التكذيب، وزينوا للناس فعله، ودفع رسالته وطلب الغائلة له، والأخذ عليه بالمرصاد. فهموا برسول الله وأرادوا قتله وأعلنوا المشركين من قريش وغيرهم على عدوانه والمماراة في نقضه وجحوده. واسوجبوا بذلك الانخداع من عهد الله والخروج من ذمته وكان من أمرهم في يوم حنين وبني قينقاع وقريظة والنضر رؤسائهم ما كان من ولاتهم أعداء الله من أهل مكة على حرب رسول الله ومظاهرتهم إياهم بالمادة من القوة والسلاح إعانة على رسول الله وعداوة للمؤمنين. خلا من كان من أهل النصرانية، فلما لم يجيبوا

إلى محاربة الله ورسوله لما وصفهم الله من لين قلوبهم لأهل هذه الدعوة ومسالمة صدورهم لأهل الإسلام، وكان فيما أتى الله عليهم في كتابه وما أنزله من الوحي أن وصف اليهود وقساوة قلوبهم ورقة قلوب أهل النصرانية إلى مودة المؤمنين، فقال: لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود...»[1].



(١) مجلة بين النهرين، المصدر السابق.

الملحق الثامن
النصارى في ظل الدولة العثمانية

كانت الدولة العثمانية منذ نشأتها قد انفتحت على العالم المسيحي والتحق بخدمتها كثير من الذميين، كما حاربت إلى جانب جيوشها في فترة التأسيس قوات مسيحية، ولما كانت تتسم بالتسامح الديني فقد لجأ إليها كثير من المضطهدين الذين لعبوا دورهم في نقل بعض المنجزات الأوربية وبخاصة تقنية البارود وأحداث الكشوف الجغرافية والتقدم البحري ورغم ذلك فإن الأخطار التي أحاطت بها وحركات الانشقاق الداخلية وضيق الآفاق الدينية لفقهاء السلاطين يومذاك وكثرة الحروب التي خاضتها الدولة ضد الغرب المسيحي أدت إلى إغلاق الحدود الفاصلة بين العالمين الإسلامي والمسيحي مما شكل عائقاً في وجه تدفق الأفكار بين الشرق والغرب، ومع ذلك فقد تمتع المسيحيون واليهود في ظل العثمانيين بقدر كبير من الحرية الدينية، وسمح لهم بتطبيق شرائعهم في الأمور التي لا يكون المسلمون طرفاً فيها. واحتضن محمد الثاني (ولد ٨٣٣هـ/١٤٢٩م وتولى ٨٥٥هـ/١٤٥١م وتوفي ٨٨٦هـ/١٤٨١م) الكنيسة اليونانية الأرثوذكسية عمداً، لأن انعدام الثقة المتبادل بين اليونان والروم الكاثوليك أفاد الأتراك في مقاومة الصليبيين. وعلى الرغم من أن المسيحيين أنتعشوا تحت حكم السلاطين، فإنهم عانوا ضعفاً شديداً فقد كانوا في حقيقة الأمر عبيداً أرقاء، ولكن كان في مقدورهم إنهاء هذا الوضع بالدخول في الإسلام، وفعل الملايين منهم ذلك أما الذين رفضوا فكانوا مبعدين عن الجيش، لأن الحروب الإسلامية كانت في ظاهرها مقدسة من

أجل تحويل الكفار إلى الإسلام وخضع مثل هؤلاء المسيحيين لضريبة خاصة بدلا من الخدمة العسكرية وكانوا عادة فلاحين مستأجرين يدفعون عشر إنتاجهم إلى مالك الأرض، وكان لزاماً عليهم أن يقدموا واحداً من كل عشرة أبناء لهم، حتى ينشأ تنشئة إسلامية في خدمة السلطان.

وكانوا يسمون الانكشارية أو العسكر الجديد وكان مراد الأول قد أنشا هذه الفرقة سنة (١٣٦٠)، كوسيلة لتجريد رعاياه المسيحيين من الشباب الذي يحتمل أن يكونوا مصدر خطر ولم يكن عددهم كبيراً - نحو عشرين ألفاً في عهد سليمان وكانوا يتلقون تدريباً عالياً على كل المهارات الحربية، وكان محرماً عليهم الزواج أو الاشتغال بالأعمال الاقتصادية، ويلقنون الروح العسكرية والمجد الحر والعقيدة الإسلامية، وكانوا شجعاناً في الحرب، قدر ما كانوا ساخطين قلقين وقت السلم[1].

وحظي بطاركة النصارى بامتيازات خاصة من لدن سلاطين بني عثمان ومن ذلك عدة فرامين تتعلق بحقوقهم ومنحهم بعض الاستقلال مع كامل الاكليروس المسيحي في القسطنطينية ومن بين اهم الفرامين ما صدر من العثمانيين في المصادقة على انتخاب البطريرك نيوفوتوس في ٣٠/ ١٧٨٩/٦[2].

---

(١) قصة الحضارة ٢٦ /١١٠ ـــ ١١١. وانظر أيضاً: أحمد عبد الرحيم مصطفى: أصول التاريخ العثماني ص١٢٤ وما بعدها. دار الشروق مصر — الطبعة الثانية ١٩٨٦م-١٤٠٦هـ. وعملية استخدام الأطفال المسيحيين منذ نعومة أظفارهم إلى "إنكشاريين" تاريخياً عملية كانت معروفة في سائر أرجاء العالم المسيحي مثلها مثل بيزنطة "قبل عدد من السنين نبه بورشيلانا الفلورنس قائلاً: إن هذا التركي سيأتي يوماً ليأخذ أولادكم وأنتم عاجزون عن الإتيان بحركة ونحن سندفع الثمن — ص١٢٢ Assedio". حكمت قفلجملي: التاريخ العثماني رؤية مادية. تعريب فاضل لقمان. دار الجليل. دمشق (دون تاريخ). ص٥٢-٥٣.

(٢) الهلال ج١٦ السنة ٦ الصادر في ١٥ ابريل ١٨٩٨ م ص٦٠٩ وما بعدها.

- فتح القسطنطينية:

سُمِّيت المدينة بالقسطنطينية نسبة إلى الإمبراطور قسطنطين الأكبر لأنه نقل كرسي المملكة الرومانية الشرقية إليها سنة ٣٣٠م. وكانت تُسمى قبل ذلك باسم بيزانتين أو بيزانتيوم نسبة إلى بيزاس الذي أسسها سنة ٦٦٧ قبل الميلاد، ومن أسمائها الكثيرة الأخرى: فروق سماها بذلك العرب في صدر الإسلام وأول من ذكرها منهم أبو تمام حيث يقول وهو يصف وقعة حرب:

وقعةٌ زعزعت مدينة قسطنطين حتى ارتجت بسور فروق

فربما أرادوا بذلك أنها فارقة بين القارتين آسيا وأوروبا أو بين البحرين الأسود والأبيض وبعد الفتح العثماني سنة ١٤٥٣م عرفت باسم استمبول وأصله يوناني وهو (IstinPolis) ومعناه (في المدينة)، وقيل بل سُميت تركيباً من لفظين (إسلام) و(بول)، وسُميت أيضاً بالأستانة وهي كلمة فارسية تعني العتبة وسُميت بالباب العالي أي باب أو المدخل الذي يفضي إلى دار الحكم والسلطان، وسُميت بالمابين وهو لفظ عربي من كلمتين (ما) و(بين) للدلالة على سراي السلطان الذي يقع ما بين جهتي (الحرم) و(الخدم)[1].

إن الأحوال الواضحة في الدولة البيزنطية إبان عهد العثمانيين والظروف المحيطة، كان لها أثر أي أثر في تسهيل فتحها، وإن الحملة الصليبية الرابعة وما تمخض عنها من إقامة دولة لاتينية في القسطنطينية استمرت زهاء ستين عاماً (من سنة ١٢٠٤-١٢٦١م) قد أثر في كيان الدولة البيزنطية فأضعف أسطولها وأفقدها السيادة التجارية في البحر الأبيض، فلما عادت الدولة بعد ذلك إلى عاصمتها لم تجد المال الكافي ولا القوة البحرية اللازمة لتأمين

---

(١) الهلال السنة ٦، ص١٧٩-١٨٠ (سنة ١٨٩٧-١٨٩٨م).

سيادتها مما مكن العثمانيين من أن يسلخوا من جسم الدولة أجزاء كبيرة بالتدريج حتى انتهى الأمر بأن أصبحت الدولة قاصرة على العاصمة العتيدة وشقة صغيرة من الأرض حولها.

- الاستعداد للقتال:

بعد أن تربع محمد الثاني على عرش آل عثمان، ووطَّد أركان الأمن داخل حدود دولته المترامية الأطراف، أخذ يرنو ببصره نحو القسطنطينية العظيمة ويعد العدة للاستيلاء عليها، وكان محمد شاباً مقداماً طموحاً بعيد النظر ينفذ إلى غايته نفاذ السهم إلى الرمية، كما كان يعرف كيف يحتفظ بسره لنفسه، حتى لقد أثر عنه أنه قال: لو أن شعرة من ذقنه عرفت ما تضم عليه جوانحه لبادر بانتزاعها.

وقد كان السبب الذي حدا به إلى مبادرة بيزنطة بالشر أن آخر أباطرتها قسطنطين بالبولوجوس انتهز فرصة ثورة نشبت ضد السلطان في آسيا الصغرى، وأرسل إليه يطلب زيادة نفقة أمير عثماني كان في أسره، وإلا فإنه سيساعد ذلك الأمير على المطالبة بالعرش العثماني، فحقدها السلطان على الإمبراطور، وبمجرد إخماده الثورة، شرع في بناء حصن على الجانب الأوروبي من البسفور في أضيق مكان منه على مبعدة من القسطنطينية بنحو خمسة أميال، ولما احتج الإمبراطور على خرق حياد تلك المنطقة، لم يأبه السلطان لاحتجاجه، وبذا أصبحت الحرب بين الدولتين واقعة لا محالة، فقضت كلتاهما خريف سنة ١٤٥٢ في إعداد معدَّات الحرب هجوماً ودفاعاً.

- حصار القسطنطينية:

بعد أن تمت استعدادات الجانبين كاشف السلطان وزراءه ومستشاريه بعزمه

على اقتحام القسطنطينية، وأمر آلاف العمال بإعداد العربات اللازمة لنقل المدافع إلى ميدان القتال وتمهيد الطرق الصالحة لسيرها. وفي فبراير سنة ١٤٥٣ سار كرادجا باشا على رأس طليعة الجيش ومعه عشرة آلاف جندي تتقدمهم المدافع الثقيلة تجرها العربات، وفي الثالث والعشرين من هذا الشهر أقلع السلطان من عاصمته هدريانوبل على رأس جحفل جرار سار يتهادى في موكبه، حتى وصل في السادس من إبريل إلى ضواحي القسطنطينية. وفي اليوم التالي أعلن السلطان بداية حصارها، وتخير الأماكن الصالحة لنصب مدافعه التي بلغ عددها ٦٩، كما رابط أسطوله في بحر مرمرة مستعداً لشد أزر الجيش البري، وابتدأت المدافع تصب على أسوار المدينة وابلاً من قذائفها، حتى استطاعت أن تحدث بها بعض الثغرات. ولكن المدافعين كانوا يسرعون إلى ترميمها قبل استفحال خطرها، أو ساعدهم على ذلك أن المدافع كانت تضطر إلى التوقف بعض الوقت حتى لا تنصهر فوهاتها، وبينما المدافعون في هذا اليأس القاتل إذ وصلتهم من جزيرة خيوس إمدادات في خمس سفن حربية استطاعت أن تشق طريقها إلى القرن الذهبي تحت سمع الأسطول التركي وبصره، وتمكنت من دخول الميناء سالمة بعد معركة طاحنة مع كثير من سفن الأسطول التركي.

وغضب السلطان لهذا الحادث، ولكن اليأس لم يتسرب إلى نفسه الوثابة فلما أعياه اقتحام القرن الذهبي المحصن بالسلاسل المنيعة، صمم على نقل جزء من الأسطول براً بطريقة هندسية جريئة تشهد له بالمقدرة الفائقة والعبقرية النادرة؛ ذلك أنه مهد طريقاً ووضع عليه كتلاً خشبية عظيمة ملساء في مسافة الخمسة الأميال المحصورة بين البسفور والقرن الذهبي، ثم أمر بدفع

المراكب على ذلك الطريق وجذبها حتى وصلت سالمة إلى الخليج، وتم ذلك كله في الليل دون إثارة ضجة أو ضوضاء، حتى أصبح البيزنطيون في صبيحة الثالث والعشرين من إبريل فإذا هم يفاجئون برؤية السفن العثمانية داخل سلاسل القرن الذهبي، فصعقتهم هذه المفاجأة الهائلة، وأيقنوا بقرب نهايتهم المحتومة.

- **مركز المدافعين:**

وأمام كل هذه الاستعدادات الجبارة كان مركز القسطنطينية المنيع وأسوارها الضخمة المتداعية في بعض أجزائها، لا تغني عنها شيئا أمام السلطان وجحافله، وخاصة إذا علمنا أن المدافعين على قلة عددهم كانوا منقسمين شيعاً وأحزاباً، وأعمتهم الخلافات المذهبية إلى حد دفع الغراندوق نوتارس زعيم الأرثوذكس والذي أسندت إليه القيادة، إلى أن يقول في صراحة إنه يفضل أن يرى عمامة السلطان في القسطنطينية على أن يرى فيها قلنسوة البابا. من أجل ذلك كله لم تنفع البسالة العظيمة والجرأة النادرة التي أبداها حنا غستنياني القائد الجنوي في الدفاع عن القسطنطينية وترميم الثغرات التي تحدثها قذائف المهاجمين إلا في تأخير أمد سقوطها.

- **الهجوم الأخير:**

بعد ذلك أخلد معسكر السلطان إلى الهدوء فترة من الزمن، بعد أن استمر قصف مدافعه نحو ستة أسابيع، ولكنه كان الهدوء الذي يسبق العاصفة؛ ذلك أن السلطان أعد عدته للهجوم الحاسم على العاصمة، واستثار حماسة جنوده إلى أقصى حد عندما أعلن إليهم أن كل ما تقع عليه أيديهم في المدينة ملك لهم ما عدا الأراضي والمباني. وفي صبيحة التاسع والعشرين من مايو بدأ

الهجوم واندفع العثمانيون كالأمواج المتلاطمة صوب أسوار المدينة، وبدأ قصف المدافع تتجاوب أصداؤه من البر والبحر، وشرع الجنود يتسلقون أسوار المدينة غير آبهين للموت الذي كان يترصدهم، وأخيراً وبعد لأي استطاعوا أن يوسعوا الثغرة التي أحدثوها عند باب القديس رومانوس وتدافعوا إليها، وفي تلك الأثناء خر حنا غستنياني جريحاً كما صرع الإمبراطور وهو يدافع عن أسوار عاصمته بنفسه، فكان هذا مما فت في أعضاد المدافعين وأدى إلى تراخيهم في الدفاع فلم يأت الظهر حتى كانت المدينة قد استسلمت للبطل المهاجم الذي سُمّي منذ تلك اللحظة محمداً الفاتح، واجتنى ثمار النصر الذي طالما اشرأبت إليه الأعناق، وعند العصر تهادى موكبه الظافر يشق شوارع المدينة حتى وصل إلى كنيسة القديسة آيا صوفيا، وكان أفراد حاشيته قد هيئوها ليؤدي فيها صلاة المغرب، وعندما وصل إليها دخلها مطأطئ الرأس عاري القدمين وأدى صلاة المغرب.

وبعد ذلك أباح السلطان المدينة لجنده ثلاثة أيام براً بوعده، ثم أعاد إليها النظام والهدوء، وأعلن أنه حامي الكنيسة الإغريقية، وأن شخص الإمبراطور اليوناني مصون مقدس معافى ومن معه من كبار موظفي الكنيسة، وأن جميع اليونانيين في حل من استعمال كنائسهم وإقامة طقوسهم الدينية من غير تعرض لهم أو تدخل في شئونهم الدينية، وبذلك طمأن رعاياه المسيحيين وأمنهم على أرواحهم ومنحهم الحرية الدينية، وهذا تسامح جميل يذكر له بالفخر والثناء مما جعل مؤرخي الفرنج أنفسهم يعترفون بأن فتح القسطنطينية على يد الأتراك لم يحدث بها من الدمار مثل ما حاق بها على يد اللاتين في مستهل القرن الثالث عشر. ومع هذا فقد سرت بعض الأنباء المبالغ بها حول

حرق إسطنبول وتخريبها على يد العثمانيين، في نفس الوقت سرت فيه مزاعم عديدة حول ميل محمد الفاتح للنصرانية وأنه راسل البابا الكاثوليكي وأن البابا أرسل له رسالة يغريه فيها ويخاطبه بما يلي: (لو أصبحت مسيحياً لأصبحت أوروبا كلها لك ولنصبناك إمبراطوراً على اليونان وعلى الشرق) وزاد البعض بأن والدة السلطان مسيحية وأنها بنت لشخص فرنسي كان قد اهتدى واعتنق الإسلام، وهذه الدعاوى لا تستند إلى دليل وأهم ما يلفت الانتباه فيها دعوى تدمير إسطنبول لكونها فُتحت عنوة بحسب القانون الإسلامي وقد ردَّ على هذه الدعوى أحد المتخصصين بالتاريخ العثماني وهو الدكتور أحمد آقگوندوز رداً شافياً ملخصه: ''حسب القانون الدولي الإسلامي لا يتم التعرض لكنائس البلدان المفتوحة صلحاً. على أن لا يسمح ببناء غيرها، ولكن يجوز تعميرها وإصلاحها. ولكن الوضع يختلف تماماً بالنسبة للبلدان المفتوحة عنوة. أي أن الحاكم المسلم يستطيع في هذه الحالة من هدم جميع المعابد وتهجير غير المسلمين منها. وإسطنبول فتحت عنوة وبعد قتال وحرب. لذا كان تحويل آيا صوفيا وبعض الكنائس إلى جوامع نتيجة تطبيق هذا الحكم الشرعي ولكن لم يطبق هذا الحكم على جميع الكنائس في إسطنبول، ولو طُبِّق ما بقيت هناك كنيسة واحدة للنصارى ولا أي كنيس لليهود بل هدمت كلها.

بعد أن قام السلطان محمد الفاتح بفتح إسطنبول بعون من الله وبحد سيفه وحَوَّل كنيسة آيا صوفيا إلى جامع استقبل وفد الأساقفة والحاخامين. وقال أعضاء هذا الوفد للسلطان بأنه فتح إسطنبول حرباً وعنوةً وأنه لو شاء لهدم جميع المعابد المسيحية واليهودية حسب قوانين الحرب السارية آنذاك بين الدول، ولكنهم يرجون من السلطان أن يتلطف ويعامل إسطنبول وكأنها فتحت

صلحاً، وإن وفدهم وإن جاء متأخراً، إلا أنهم يأملون منه الاستجابة لرجائهم ويلحون في هذا الرجاء.

بعد قيام الفاتح بمشاورة العلماء المسلمين من حوله قرر الاستجابة لهذا الرجاء، ولم يتعرض للكنائس الأخرى ولمعابد اليهود التي لم تحول بعد إلى جامع، مع أنه كان يحق له أن يفعل ذلك. وهذا هو سبب بقاء المعابد المسيحية واليهودية في إسطنبول منذ ذلك التاريخ حتى الآن. أي يعود سبب هذا إلى رؤية الفاتح للحرية الدينية والوجدانية إيمانه بها. والفتوى الصادرة من الشيخ أبو السعود أفندي شيخ الإسلام توضح هذا المعنى بكل جلاء. وأصل الفتوى كما يأتي:

(هل قام المرحوم السلطان محمد الفاتح بفتح إسطنبول المحروسة والقرى المجاورة لها عنوة؟ الجواب: المعروف للجميع أنها فتحت عنوة. ولكن وجود الكنائس القديمة تشير إلى فتحها صلحاً).

ويؤيد المؤرخون ما قدمناه هنا من معلومات. فقد أرسل السلطان محمد الفاتح في يوم ٢٣/مايس (أي قبل الفتح) الداماد قاسم إسفنديار أوغلو رسولاً من قبله إلى البيزنطيين ليعلمهم بما يأتي: إن المدينة ستسقط بعد أول هجوم عام. وإن على الإمبراطور ـ الذي هو عسكري جيد ـ أن يعلم هذا، وأنه إن استسلموا وسلموا المدينة صلحاً فتسلم أرواحهم وأموالهم ولن يتعرض لها أحد حسب قوانين الشريعة الإسلامية. أما إن فتحت المدينة عنوةً فإن الدماء ستسيل ولن يتحمل السلطان مسؤولية ما سيجري.

ومع هذا فلم يقبل عرض الصلح هذا وفتحت المدينة عنوة، ومع ذلك تمت معاملتهم كما أسلفنا سابقاً. وعدم قيام الفاتح بإزالة نقوش الموزائيك من

آيا صوفيا وعدم هدمه لأسوار إسطنبول يوضح أسلوب الفاتح في التعامل مع هذه المواضيع.

ويتبين من هذا أن ما وعده السلطان محمد الفاتح للصربيين من أنه (سيسمح بإنشاء كنيسة بجانب كل جامع) هذا الوعد طبقه في إسطنبول أيضاً. وألا يكفي دليلاً على تسامح الدولة العثمانية في موضوع الحرية الدينية وحرية الضمير وجود البطريركية الرومية وكنيستها بجانب الجامع في محلة (صوباشي) في منطقة (فنر) في إسطنبول؟ وأليس الإذن ببناء كنيسة أمام جامع (مهريماه سلطان) في نهاية شارع (أدرنه قابي) دليلاً مادياً على هذا التسامح وعلى الحرية الدينية؟".

- أثر الفتح في العلاقات المسيحية ـ العثمانية:

وكان لخبر ذلك الفتح رنة ودويّ في سائر انحاء اوربا وخصوصاً الروملي واليونان فعمد المسيحيون إلى ركوب البحار يلتمسون ملجأ يأوون اليه بأولادهم وأموالهم حتى غص بحر الروم بالسفن تحمل الناس من الأستانة والمورة والروملي واليونان إلى ترانسلفانيا والمجر وسردينيا وصقلية وسهول كوبان وبلاد التتر كأنهم شتات اليهود بعد خراب اورشليم. وكان محمد الفاتح إنما رغب في القسطنطينية طمعاً بما خصتها به الطبيعة من مناعة المكان وتوسط المركز فأراد فتحها ليتخذها عاصمة ويعيد اليها رونقها ومدها ولكنه لم يكد يدخلها الاوقد هجرها الناس حتى كادت تخلو من السكان. فاصدر فرماناً يقضي بالاعدام على كل يوناني فرّ من العاصمة إلى الروملي او الأناضول اذا لم يرجع حالاً وأصدر فرمانا آخر إلى الذين لجأو إلى بلاد الاجانب ان يعودوا ولهم ما يردونه من حرية الدين والمعاش.

فتقاطر الناس إلى القسطنطينية زرافات ووحداناً بين خائف وآمل ولم ينقض سبتمبر من ذلك العام حتى بلغ عدد الراجعين نحوعشرة آلاف يوناني وخمسة آلاف من غيرهم وخمسة آلاف عائلة من سكان شواطيء البحر الاسود وغيرها.

على ان ذلك وحده لم يكن كافيا لترغيب الناس في تعمير العاصمة فرأى ذلك الفاتح العظيم ان يكسب الشعب بواسطة الاكليروس فبعث واستقدم البطريرك القسطنطيني فقيل له ان توفي منذ العام فاوعز إلى المسيحيين ان ينتخبوا بطريركا غيره ويجروا في انتخابه على مقتضى قوانينهم وتقاليدهم. فاجتمع كهنة القسطنطينية وأعيان اليونان فوقع انتخابهم على جورج سكولاريوس اولا ثم قبل المنصب فسموه البطريرك جناديوس ورفعوا ذلك إلى السلطان فأمرهم ان يحتفلوا في تنصيبه كما كانوا يحتفلوا بتنصيب البطاركة على عهد الامبراطرة المسيحيين. فجاؤا به إلى السراي السلطانية ودخلوا على السلطان وكان السلطان بلباسه الرسمي جالساً على العرش الإمبراطوري المصنوع من الذهب والعاج المرصع بالحجارة الكريمة. فتقدم البطريرك نحوالعرش فسلمه السلطان عصا الرعاية وقال له باللسان اليوناني ما معناه " ان العزّة الالهية التي ملكتني هذه المملكة تجعلك رئيس اساقفة القسطنطينية (رومية الجديدة) وبطريركا مسكونيا " ثم خلع عليه رداء ثمينا وخولهُ الحكومة في كنيسة القسطنطينية كما كان يفعل البطاركة قبله على عهد الأباطرة المسيحيين ومنحه اختصاصاً لاحدّ له للنظر في شؤون المسيحيين الخاضعين للباب العالي مع لقب " ملة باشي " اي رئيس الأمة. وأوصاه ان يبذل ما في وسعه لحفظ الرعايا المسيحيين على ولاء الحكومة وان يرفع اليه

تقريراً مفصلاً عن قواعد الديانة المسيحية وطقوسها ليرى اذا كان فيها ما يخشى معه من مخالطة أهلها للمسلمين، وقضى جناديوس في حضرة السلطان ساعات ثم هم بالخروج فشيّعه السلطان بنفسه إلى باب القاعة وأمر له بفرس من الاسطبل السلطاني عليه سرج مرصع واوصى جماعة من أهل البلاط ان يسيروا في ركابه إلى الكنيسة الكبرى ثم رفع جناديوس تقريراً كافياً وصف به فضائل النصرانية فلم ير السلطان فيها ما يمنع الاختلاط فاصدر إلى البطريرك فرماناً يؤيد فيه ما منحه اياه من الامتيازات شفاهاً يوم التنصيب وفي جملة ذلك " اني ابيح للمسيحيين في بلاد الدولة معاطاة شؤون ديانتهم بكل حرية وان تكون الكنائس تحت حماية الحكومة فلا تحوّل إلى جوامع وان يتمتع الكهنة بامتيازات وحقوق خصوصية وان يعفوا من السخرة ويكون شخص البطريرك مقدساً لا يعتدى عليه وان تكون له السلطة المطلقة في امر الزيجة والدفن والميراث وسائر الاحوال الشخصية فيجري في احكامها على مقتضى قوانين الكنيسة اليونانية لا يعترضهُ احد في تنفيذ احكامه أو احكام من ينوب عنه بل يكون مستخدمو الحكومة في الأستانة وغيرها اعواناً له في تنفيذها ". وقد ادى هذا البطريرك للسلطان محمد خدمات جزيلة في مقابل ذلك بتحريض المسيحيين الفارين والبعيدين على القدوم إلى القسطنطينية وقد ضمن لهم راحتهم وحقوقهم.

ونسخة هذا الفرمان الاصلية تلفت في بعض الحرائق ولكن صفته الرسمية تأيدت في عهد السلطان سليم الأول بشهادة انكشاري طاعن في السن ممن شهدوا الفتح.وهذا الفرمان هو اصل كل ما تبع ذلك من الامتيازات والحقوق الكنائسية والبراآت التي يمنحها الباب العالي للبطاركة مصادقة على انتخابهم.

وبقي هذا الفرمان يصدر لكل بطريرك.

وقد يرى المتأمل ان مثل هذا الفرمان متمم لشروط الامتيازات البطريركية لأن الاعمال الكنائسية ليست دينية محضة فالأحوال الشخصية كالارث والزواج والنفقة والطلاق ونحوها انما هي أحوال مدنية وإن تكن فروعاً ناتجة عن اصول دينية ولما كانت الاديان في المملكة العثمانية مختلفة لا تشملها الشريعة الإسلامية كان من الحكمة ان يسمح السلطان لأرباب الملل بممارستها بانفسهم وما الفرمان الا دليل ذلك السماح ولابد من التنبيه إلى ما يمتاز به بطريرك القسطنطينية عن سائر بطاركة الروم فان للكنيسة الارثوذكسية أربعة بطاركة القسطنطيني والاسكندري والانطاكي والاورشليمي وهم بحقيقة الامر متساوون بالدرجة الكهنوتية ولكن محمد الفاتح ميز القسطنطيني منهم بالامتيازات المتقدم ذكرها فاصبحت سلطته في القرن السادس عشر نافذة على كل الكنائس الشرقية حتى اعترف البطاركة الثلاثة الآخرون بانه البطريرك المسكوني فضلا عن سعة دائرة سلطانة فان الابرشيات التابعة لكرسيه بلغت ١٠٨ ابرشية للكرسي الانطاكي ٣٠ الاورشليمي ١٤ والاسكندري ٤ ونال مثل هذه الامتيازات أيضا بطريرك الارمن ثم نالها غيره من رؤساء الملل المقيمين في الاستانة في ازمنة مختلفة.

وتوالي بعد جناديوس على كرسي القسطنطينية أربعة بطاركة وهم ايزيدور وصفرونيوس ويواساف ومرقس وقد تمتعوا جميعاً بالنفوذ والاكرام مما لم ينله اسلافهم على عهد اباطرة الروم فقد كان السلطان يكرمهم ويستشيرهم في بعض الشؤون الهامة ولم يلتمسوا امرا في مصلحة المسيحيين الا نالوه وكان لهم فضلا عن ذلك راتب مقداره مئة دوكا ذهباً يقتضونها كل

عام من خزينة الحكومة باعتبار كونهم من كبار رجالها ولكن ذلك لم يتمتع به غير البطاركة الخمسة المتقدم ذكرهم لأن الاحوال تغيرت بعدهم بمن ولي الكرسي من ضعفاء الرأي. وكيفية ذلك ان راهباً من اهل طرابزون اسمه سيميون سعى سنة ١٤٦٧ في شراء المركز البطريركي بثمن بواسطة اصدقاء له من مواطنيه كانوا قد اعتنقوا الإسلام وانتظموا في خدمة البلاط السلطاني فاشترط على نفسه اذا صار بطريركا ان يدفع مالا مقدار الف دوكا في العام ويتخلى عن الراتب الذي كان يدفع للبطاركة قبله. وفي العام التالي تقدم طالب اخر اسمه دنيس اسقف فيليبو بولو وكانت له دالّة ووساطة لدى والدة السلطان فجعل ذلك المال ثلاثة آلاف دوكا فأنزل سيميون وتولّى دنيس ثم تقدم ثالث اسمه رافائيل أضاف على ذلك المال ٥٠٠ و٢ دوكا وقد جروها على أنفسهم بضعف هؤلاء وطمعهم كما قد رأيت ثم تعدلت هذه الجزية سنة ١٧٨٩ بمبلغ ٠٠٠و٢٠ غرش فضلا عن نفقات اخرى للتسجيل وغيره.

وفي هذه النبذة التاريخية من تاريخ النصارى في ظل بني عثمان لا بد من الإشارة إلى شخصية مسيحية كان لها الدور المؤثر في العلاقات النصرانية العثمانية في النصف الأول من القرن السادس عشر الميلادي وهو البطريرك عطا الله (١٥٠٥ـ١٥٣٧م) الذي خلف البطريرك مرقس الثالث (١٤٩٣ـ١٥٠٣) على كرسي البطريركية الأرثوذكسية بالقدس وورث لقب «رئيس أساقفة بيت لم وبطريرك المدينة المقدسة أورشليم وصهيون المقدسة وسوريا وعبر الأردن» وكان شخصية يتمتع بحنكة وحكمة متناهية في معالجة المشاكل التي كانت تتعرض لها الكنيسة، وفي كانون الأول سنة ١٥١٧م قام باستقبال السلطان سليم استقبالاً ممتازاً مما حدا بالسلطان أن ينعم عليه بفرمان مؤرخ سنة ٩٢٣هـ

أعترف له بحق سيادته على المزارات وأعطى الحرية التامة للأرثوكسيين ليقيموا صلواتهم[١].

وعلى عهده زار القدس بطاركة القسطنطينية والاسكندرية وانطاكية عام ١٥٢٦م فانتهز الفرصة المسترو بوليت يوانيكوس واغتصب كرسي القسطنطينية فعقد عطا الله مجمعاً في أورشليم بحضور البطاركة الأربعة وحكموا على المغتصب بالعزل كما أنه أسس تحت رعايته العديد من جمعيات الإخاء الأرثوذكسي في كثير من مدن العالم الأرثوذكسي[٢] وكان لعطا الله أعمال أخرى جيدة لطائفته إلى حين استقالته وتسليم البطريركية إلى الراهب اليوناني جرمانوس سنة ١٥٣٤.

- معاهدة زشتوي:

ومن النصوص القانونية العثمانية التي تؤكد على حقوق رعاياها المسيحيين ما ورد في معاهدة زشتوي التي أُبرمت بين النمسا والإمبراطورية العثمانية في ٢٢ ذي الحجة سنة ١٢٠٥هـ الموافق ٤ أغسطس سنة ١٧٩١م بمدينة (ستووا) التي تسمى في كتب الترك زشتوي فقد ورد في البند الثاني عشر منها ما يلي: "أما بخصوص إجراء أصول الدين الكاثوليكي المسيحي في الدولة العثمانية وحرية قسوسه والمتمسكين به وحفظ وإصلاح كنائسه وحرية التعبد والمتعبدين والتردد على الأماكن المقدسة بأورشليم وغيرها وحماية هذه

---

(١) نص الفرمان في كتاب ((خلاصة تاريخ كنيسة أورشليم الأرثوذكسية)) تأليف شحادة خوري ونقولا خوري ص١١٠ــ١١١ القدس ١٩٢٥. وقد أبدى رؤوف أبو جابر شكوكه حول النص المذكور من الفرمان، (المسيحية العربية في القدس ــ كتاب أبحاث ودراسات في التاريخ العربي ص٣٥٥).

(٢) المسيحية العربية في القدس (المرجع السابق) ص٣٥٥.

الأماكن والحج إليها فإن الباب العالي السلطاني يجدد ويؤيد تبعاً لقاعدة كل أمر إلى ما كان عليه جميع الامتيازات الممنوحة للدين الكاثوليكي بمقتضى البند التاسع من المعاهدة السابقة وبمقتضى جميع الفرمانات والأوامر الأخرى الصادرة من بادئ أمره"[1]، ويذكر أن هذه المعاهدة صدرت على عهد السلطان سليم خان الثالث (١١٧٥-١٢٢٣هـ/١٧٦٢-١٨٠٨م).

- **الخط الهمايوني:**

في ١٨ فبراير ١٨٥٦م صدر وعد إصلاحي من السلطنة العثمانية للحد من نتائج حرب القرم (١٨٥٣-١٨٥٦م)، وفيه نص صريح على المحافظة على الحقوق والامتيازات التي تمتع بها رؤساء الملل غير الإسلامية، وذلك بالرغم من استهدافه القضاء على حواجز نظام الملل وتمتع كل سكان الإمبراطورية بمواطنة عثمانية عامة كما قضى بألا تبقى المسائل المدنية الخاصة برعايا الدولة المسيحيين من اختصاص رجال الدين وحدهم، بل جعلها من اختصاص مجلس مختلط من الأهالي ورجال الدين المسيحي يقوم الشعب بانتخابه بنفسه، وفتحت أبواب معاهد التعليم الرسمية ـ وبالتالي وظائف الدولة المدنية ـ أمام المسيحيين الذين فرضت عليهم الخدمة العسكرية رسمياً ووعدوا بازدياد تمثيلهم في مجالس الولايات والمجالس المحلية وسمح للأجانب بامتلاك الأراضي، وقد بحث فرمان (الخط الهمايوني) من أوله إلى آخره تقريباً، في موضوع المساواة الخاصة بالرعايا غير المسلمين في الدولة العثمانية. وقد أكد الفرمان، بصفة خاصة على ضرورة تولّي هؤلاء الرعايا غير المسلمين مختلف مناصب الدولة، واعترف في إحدى مواده بالحرية التامة في

---

(١) محمد فريد المحامي: تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص١٧٨.

العقيدة الدينية والعادات والأعراف الاجتماعية، وقد اعتبر بعض الباحثين أن هذا الإعلان، كان أول تعبير للعلمانيين يغزو الدولة العثمانية، والحقيقة أن هذا الفرمان وفَّر غطاءً قانونياً لحركة التبشير والمبشرين النصارى الذين استقروا بأعداد كبيرة في مختلف ولايا الدولة، بتأييد السفير الإنجليزي (كانِنج) سنة ١٨٥٦[١].

وبالطبع فإن المساواة الدينية التي وردت في الخط الهمايوني لم ترض كل الناس، فبعض المسلمين أسفوا لها على حين أن بعض المسيحيين استكشفوا أن يتساووا باليهود كما لم يرحب كبار رجال الدين المسيحيين بما نصَّ عليه من تقاضيهم مرتبات ثابتة وتوقفهم عن فرض "هبات" و"مساهمات" على رعاياهم[٢].

- **خلاصة فرمان انتخاب البطريرك نيوفوتوس:**

واليك خلاصة فرمان (براءة) صدربشأن المصادقة على انتخاب البطريرك القسطنطيني نيوفونوس في ١٩ شوال سنة ١٢٠٣هـ (٣٠ يونيو سنة ١٧٨٩) ومنه يتبين حدود البطاركة وحقوقهم بصفة رسمية:

" ان السنيودس (المجمع المقدس) المؤلف من عشرة ميتر وبوليتات قد رفع إلى مجلس وكلائنا عرض حالا بهيئة محضر بعزل البطريرك بروكوبيوس ونفيه لسوء تصرفه واهماله في واجباته (... الخ) وانتخاب بطريرك غيره فيه الكفاءة لذلك المنصب ويكون اهلا لثقة بابنا العالي وان رؤساء الملة قد اجتمعوا للنظر في ذلك وانتخبوا نيوفوتوس ميرت وبوليت كوملجانة لما له

(١) كما قال قارباط: الدولة العثمانية في القرن التاسع عشر ضمن كتاب دراسات في التاريخ العثماني للدكتور سيد محمد السيد. دار الصحوة - القاهرة ١٩٩٦، ص٢٦٧.

(٢) Lewis, Jeoffry, modern Turkey/Ernest Bonn p.٤٥ . London, ١٩٧٤.

من اللياقة والاهلية (... الخ)...

" فبناء على ذلك وبمراجعة قلم الاساقفة (ابيكنوس قلمي) وجد على بطريرك القسطنيطنية (اولا) مال سنوي (مال مقطوع مقدار) مقداره ٢٤ بوكاً (٠٠٠ و٢٠ قرش) تدفع إلى خزينتنا الشاهانية على أربعة اقساط ابتداء من أول مارس من كل عام مع المرتبات القلمية (١٠في١٠٠) (ثانيا) ٥٠٠ اقة من الضان تقدم كل يوم إلى وجاقات البوستانجية (ثالثا) ٧٥٠ غرشاً تدفع في شهر محرم من كل عام تفرق في الوجاقات الاخرى (رابعاً) ١٣٥٨ غرشاً تدفع في المحرم إلى خزينتنا العامرة لأجل بطريركية ايبك لأنها وبطريركية اكري الحقتا ببطريركية القسطنطينية. " وقد نظرنا في ملتمسهم المذكور (... الخ) وامرنا بارسال هذه البراءة الشاهانية التي بمقتضاها يتقلد نيوفوتوس المشار اليه منصب بطريركية القسطنطينية ومتعلقاتها بدلا من بروكوبيوس المعزول ويتمتع بكل امتيازاتها وحقوقها. وعليه فاننا نأمر جماعة الميتروبوليت ورؤساء الأساقفة والاساقفة في ممالكنا المحروسة وكل ايغو مانوس وقسيس وكل يوناني من رعايانا ان يعترفوا بنيوفوتوس بطريركا عليهم ويرجعوا اليه بكل ما يتعلق بمنصبه من الاحكام ويعتبروا سلطته الرعائية وان يطيعوه (... الخ)...

ونرجو ان يكون هذا المنصب له إلى آخر ايامه فلا يخرج إلى سواه بالدالة ولا بزيادة المال السنوي وان لا يعزل الا اذا ارتكب خيانة او اساء رعيته او اتى ماينافض الطقوس الملية والقوانين الكنائسية او كان غير مخلص لدولتنا العلية. واذا تقدمت ضد هذا البطريرك شكوى او نحوها فان بابنا العالي لا يعيرها سمعاً الا اذا كانت من المجمع المقدس (السينودس) باجماع الآراء. اما

تشكيات الافراد من الاساقفة اوالرعية فانها تقدم إلى السينودس وهو يرفع تقريرا عنها إلى بابنا العالي.

" ويتمتع هذا البطريرك بكل الامتيازات والحقوق التي كانت لاسلافه فله حق التصرف بشؤون الادارة العمومية لملةالروم في كل انحاء المملكة وان يتولى امر دخل الاديرة والكنائس ونفقاتها وتدبيرها بمساعدة السينودس وخوفا من وقوع الشطط في تدبير اموال الديور وفرارا من ضياع حقوق الطائفة وتكدير راحتها فلا يجوز للبطريرك عقد اي قرض كان بلا مصادقة السينودس وتوقيع جماعة الميترو بوليت باختامهم على كل تعهد اوعقد يتعلق بذلك (الخ).. ويكون للبطريرك او السينودس فقط الحق في تعيين الاساقفة ورؤساء الاساقفة وغيرهم عند اللزوم ومتى تم تعيينهم رسمياً يؤدون ما عليهم إلى خزينتنا من الحقوق المعلومة في مثل هذه الحال فتعطي لهم البراءة الناطقة بتعيينهم ولايجوز للاساقفة ورؤساء الاساقفة او الميتر وبوليت السفر من الأستانة او الرجوع اليها الا بأذن البطريرك اوالسينودس وللبطريرك والبطاركة الآخرين لطائفة الروم ان يعاقبوا جماعة الميتروبوليت والاساقفة ورؤساء والقسس اذا اتركبوا ما يستوجب ذلك.

" ونأمر ايضا ان يكون للبطريرك وحده او لمن ينوب عنه حق النظر في مسائل الزواج او الطلاق حسب شريعتهم ولهم ان يفرضوا العقاب على كل من يخل بقوانين الزيجة اوالطلاق من الكهنة او العوام لا يعترضهم في تنفيذ ذلك العقاب حاكم او باشا او ميرميران اوميرلوا او قاضي او نائب (الخ)..ولهم ان يمنعوا كل زواج أو طلاق غير قانوني كالزواج بأمرأتين او نحو ذلك

حسب شريعتهم وان يقاضوا المذنب او يحرموه من دخول الكنائس او زيارة القبر المقدس لا يعترضهم في تنفيذ ذلك أحد من ارباب الوظائف.

" ونأمر ايضا انه لا يجوز أحد ان يقلق البطريرك او أحد من اساقفته اوغيرهم من رجال الاكليروس وهم في معابدهم او ديورهم القديمة كاخراجهم منها بدعوى التصليح اوالترميم او نحو ذلك ولا يجوز لأحد الموظفين ان يأمر بدخول احد الديور اوالكنائس قسرا. ويصرح للبطريرك وسائر رجال الاكليروس ان يقرأوا اناجيلهم في اماكنهم ولكنهم يقرأونها بصوت منخفض وان يؤدوا وظائفهم وطقوسهم ويجروا كل ما تقتضيه القداديس من ايقاد البخور وعرض الايقونات ونحوها بلا عارض فمن اقلقهم او كلفهم نفقة على ذلك عدّ عمله مناقضاً لشرائعنا المقدسة.

" ونأمر ان يكون للبطريرك المشارك إليه حق التملك ليس فقط للكنائس التابعة لبطريركيته بل لكل ما فيها من الاثاث والآنية وكل ما يلحقها من الحدائق والكروم والديور والبيوت والحوانيت وكل الاوقاف (الخ) فاذا اخل أحد متولي تلك الأماكن بحقوق مصلحته فللبطريرك الحق المطلق بمعاقبته بلا معارض.

" وللبطريرك ان يرسل من قبله من يشاء إلى البلدان والقرى والاعمال لتحصيل الاموال او غيرها من الاساقفة والقسس وغيرهم فاذا تأخر احد هؤلاء عن الدفع كان للبطريرك ان يعاقبه بقص الشعر أوالحرمان وعلى موظفي الحكومة مساعدة اولئك بالحياة في اقتضاء المال المستحق وحمايتهم في ذهابهم ومجيئهم فيصحبونهم بالشرطة او نحوها في اسفارهم من مقاطعة إلى اخرى ولا يكلفوهم في ذلك مالاً وعلى سبيل الهدية وكل ما يحمل إلى

البطريرك من حاصلات عقار البطريركية اوالهدايا من العسل والعنب (الخ) فانه ينقل بسهولة ولا يؤخذ عليه ضريبة.

" ونأمر بان كل ما يرفع على البطريرك او الميترو بوليت او الاساقفة ورؤساء الاساقفة او نوابهم من القضايا لا ينظر الا في ديواننا الشاهاني وليس في مجلس آخر... الخ ".

فيؤخذ من هذا المنشور ممارسة العقائد الدينية في المملكة العثمانية كانت عبارة عن هبة يمنحها السلطان إلى من يريد من البطاركة وكان بطاركة الروم الإثوذكس اكثر الناس تمتعا بها. وما زالت الحال كذلك حتى تولى السلطان عبد المجيد فاصدر الخط الشريف المشهور بخط كلخانة سنة ١٨٣٧ ثم الاصلاحات الخيرية سنة ١٨٥٦ وبها تأيدت تلك الاصلاحات وتوطدت بين الباب العالي والدول العظمى ثم صدرت فرمانات ومنشورات اخرى بمثل هذا المعنى. فالامتيازات البطريركية التي كانت تصدر بها الفرمانات لبعض البطاركة خاصة صارت حقا عمومها لكل الطوائف القاطنة في المملكة العثمانية من المسيحيين وغيرهم ويدخل في ذلك حقوق انتخاب البطاركة وعزلهم وتمتعهم بحقوقهم وواجباتهم مما هو ضمن دائرة امورهم الملية والاحوال الشخصية.

فاصبح انتخاب البطاركة وعزلهم يجريان بمقتضى القانون الكنائسي بواسطة الملة بالاستقلال التام ومتى تم الانتخاب يعرض ذلك على الباب العالى فيصدر الفرمان بالمصادقة عليه ولا يكون للباب العالي وجه للاعتراض الا اذا كان البطريرك المنتخب صفة سياسية يخشى من اضرارها بالراحة العمومية او في سياسة الدولة العلية، وملافاة لذلك تقرر بعد حوادث المورة

باوائل القرن التاسع عشر ان يكون المجلس الملي الارثوذكسي بالاستانة مختلطاً من الاكليروس والعوام فاذا اقدموا على انتخاب بطريرك جديد رشحوا واحداً او عدة ورفعوا قائمة باسمائهم إلى الباب العالي قبل الانتخاب فمن كان في شخصه محظورات سياسة حذفوا اسمه وجرى الانتخاب على الباقين وقد اتبعت هذه الطريقة ايضا في الكرسي الانطاكي بالشام منذ اواخر التاسع عشر عند انتخاب البطريرك جراسموس.

وفي بداية عهد السلطان عبد المجيد (١٨٣٩ـ١٨٦٠م) صدرت تنظيمات خاصة وسّعت الحريات لجميع أتباع المسيحية في كافة أنحاء الإمبراطورية العثمانية[١] واستقبلت تلك الإحصاءات بسعادة كبيرة من المسيحيين وهناك الكثير من الوثائق التي تدلل على ذلك[٢].

ومن أهمها فرمان التسوية بين أصناف الرعية الذي أصدره السلطان عبد المجيد، وقد عُرِفَ هذا الفرمان بخط كلخانه سنة ١٨٣٩م ثم الخط الهمايوني

---

(١) يلاحظ أن التنصير مُورس بكثافة خلال هذه الفترة، وللمزيد يراجع، د. عبد الرازق عبد الرازق عيسى: التنصير الأمريكي في بلاد الشام (١٨٣٤-١٩١٤)، مكتبة مدبولي، القاهرة ٢٠٠٥.

(٢) تراجع مجموعة الفرمانات العثمانية المختصة بهذا الشأن المحفوظة بدور الوثائق والمحفوظات الحكومية في اسطنبول وعواصم بلاد الشام، وقد ترجمت مجموعة منها وصدرت في كتاب بعنوان ((الكنائس العربية في السجل الكنسي العثماني ١٨٦٩ ــ١٩٢٢) المترجمان: عبد الرحيم أبو حسين وصالح سعداوي. نشر: المعهد الملكي للدراسات الدينية، عمان، الأردن ١٩٩٨ وكتاب بطريركية فنار وتركيا، من تأليف م. ثريا شاهين، وخاصة الفصل الموسوم بـ(بطريركية فنار في استانبول وامتيازاتها في عهد الدولة العثمانية وفي عهد الجمهورية التركية). Sahin, M. Süreyya, Fener patrikhanesi ve Türkiye/ötükenyay, 1980 وكتاب نظام الشعوب (الأقليات) في الدولة العثمانية من تأليف بلال أريلماز .Eryilmaz, Bilal: Osmanli devletinde millet sistemi/İstanbul: ağacyay, 1992

سنة ١٨٥٦م ومن مقتضاهما تأمين الرعايا العثمانيين على أرواحهم وأموالهم وأعراضهم مهما كانت مذاهبهم. ومساواتهم لدى القانون وتعديل الضرائب وتنظيم القرعة العسكرية وغير ذلك مما تراه منصوصاً في ذلك الفرمان(١).

وبفضل لك الفرامين والإصلاحات العثمانية تمكنت الطوائف النصرانية ـ عدا اليهود ـ خلال النصف الثاني من القرن ١٩م/١٣هـ والتي كانت تتولى الأراضي العثمانية، من تغيير بنائها وتشكيلاتها الداخلية بسرعة، حيث بدأت تظهر بهوية جديدة وبأهداف اجتماعية وسياسية حديثة تحت أسماء قومية وعنصرية قديمة أما الدول الأوروبية فقد اسخدمت نفوذها السياسي وقوتها العسكرية أيضاً عند اللزوم لضمان مصالحها الشخصية في الأراضي العثمانية، وفي نفس الوقت أيدّت هذه التطورات بشدة، وضمنت للرعايا النصارى مركزاً اقتصادياً رفيعاً في الدولة.



(١) راجع نص الفرمان المتعلق بالعلاقات المسيحية الإسلامية (خط كلخانه) في كتاب محمد فريد المحامي: الدولة العلية العثمانية ص٢٥٦-٢٦٠، طبعة مصورة، دار الجيل- بيروت ١٣٩٧هـ-١٩٧٧م، ويرى باحث تركي معاصر "بأن إعلان مبدأ المساواة بين المسلمين وغيرهم في البلاد العربية (خلال العهد العثماني) لم تستفد منه بلاد الشام كثيراً نظراً لكثرة الأقليات المسيحية، فبينما كان المسلمون يتجهون إلى السلطنة ظلت الأقليات تتجه إلى الدول الأوربية لحمايتها وتأييد وضعها شبه المستقل".
أكمل الدين إحسان أوغلي: التعارف الأول بين العرب والأتراك، ص١٠٠ ضمن الجزء الثاني من كتاب العلاقات العربية التركية من منظور تركي، إسطنبول سنة ١٩٩٣، إصدار معهد البحوث والدراسات العربية بالاشتراك مع مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية بإسطنبول.

مصادر وفهارس الكتاب



المصـــادر

❖ المخطوطات:

- المجموع المرقم OR 951 ـ مكتبة جامعة لايدن ـ هولندا.
- روض المناظر في أخبار الأوائل والأواخر لمحمد بن الشحنة الحلبي (٧٤٩ ـ ٨١٥هـ). المكتبة الملكية ـ كوبنهاكن.
- رشف الرحيق في وصف الحريق لصلاح الدين بن أيبك الصفدي (٦٩٦-٧٦٤هـ) - مكتبة الأسكوريال - إسبانيا رقم ٥٦٣.

❖ ❖ ❖

❖ المطبوعات:

❖ القرآن الكريم

❖ اتحاف الورى باخبار ام القرى:

- محمد بن فهد (٨١٢ ـ ٨٨٥هـ) تحقيق: فهيم محمد شلتوت. ج١، القاهرة ١٩٨٣

❖ احكام اهل الذمة

- محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية (٦٩١ ـ ٧٥١هـ)
- طبعة بتحقيق: د. صبحي الصالح. دار العلم للملايين ط٢، سنة ١٤٠١هـ
- طبعة بتحقيق: يوسف بن أحمد البكري وشاكر توفيق العاروري ـ دار رمادي ـ السعودية.

❖ **الأحكام السلطانية والولايات الدينية**
- لأبي الحسن علي بن محمد الماوردي (٩٧٤ ـ ١٠٥٨م) القاهرة ١٩٦٦ وطبعة بيروت ـ دار الكتب العلمية ١٩٨٠

❖ **أحوال النصارى في خلافة بني العباس**
- جان موريس فييه بيروت ـ دار المشرق ١٩٩٠

❖ **الاستعانة بغير المسلمين في الفقه الإسلامي**
- د. عبد الله بن ابراهيم بن علي الطريقي. مؤسسة الرسالة ط٢ (١٤١٤هـ)

❖ **اسواق دمشق ومشيداتها التاريخية**
- د. قتيبة الشهابي، منشورات وزارة الثقافة بدمشق ١٩٩٠

❖ **الاعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة**
- قسم تاريخ دمشق ـ لابن شداد محمد بن علي (٢١٧ ـ ٢٨٥)م نشر المعهد الفرنسي بدمشق ١٩٥٦م / ١٣٧٥هـ

❖ **الأعلام (قاموس تراجم)**
- خير الدين الزركلي دار العلم للملايين طبعة سنة ١٩٨٤.

❖ **أعيان العصر وأعوان النصر**
- صلاح الدين الصفدي خليل بن أيبك (المتوفى ٧٦٤هـ) ج١ منشورات معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية في إطار جامعة فرانكفورت. سلسلة عيون التراث المجلد ٥٠/ ١ (ألمانيا)

❖ **الأم**
- للإمام الشافعي طبعة مصورة عن طبعة بولاق ١٣٢١هـ

❖ **الأموال**
- لأبي عبيد القاسم بن سلام (٧٧٠ ـ ٨٣٨هـ) بيروت ١٩٨٩

❖ **اوّليات الفاروق السياسية**

- د. غالب عبد الكافي القرشي، الوفاء للطباعة والنشر ط١ (١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م) المنصورة ـ مصر .

❖ **البداية والنهاية**

- للحافظ عماد الدين ابي الفداء اسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (٧٠١ ـ ٧٧٤هـ) تحقيق: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي بالتعاون مع مركز البحوث بدار هجر للطباعة، طبع في مصر (١٤١٩هـ / ١٩٩٨م).

❖ **بدائع الزهور في وقائع الدهور**

- محمد بن احمد بن اياس الحنفي: تحقيق محمد مصطفى، ج١، القسم الأول. نشر: فرانز شتاينر ـ فيسبادن (١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م).

❖ **تاريخ ابن قاضي شهبه**

- تقي الدين ابي بكر بن احمد بن قاضي شهبة الأسدي الدمشقي (٧٧٩ ـ ٨٥١هـ / ١٣٧٧ – ١٤٤٨م) المجلد الثاني من الجزء الأول من المخطوط، تحقيق عدنان درويش، دمشق ١٩٩٤، المعهد الفرنسي للدراسات العربية والجفان والجابي للطباعة.

❖ **تاريخ الدولة العلية العثمانية:**

- محمد فريد المحامي، بيروت، دار الجيل ١٩٧٧م–١٣٩٧م.

❖ **تاريخ ابن الوردي المسمى (تتمة المختصر في اخبار البشر)**

- زين الدين عمر بن المظفر المعروف بابن الوردي ت (٧٤٩هـ – ١٣٤٨م). طبعة بولاق. القاهرة.

❖ **تاريخ الإسلام**

- شمس الدين الذهبي

❖ **تاريخ الإسلام**

- د. حسن ابراهيم حسن، القاهرة

❖ **تاريخ بغداد**

- الخطيب البغدادي

❖ **التاريخ العثماني (رؤية مادية)**

- حكمت قفل جملي، تعريب: فاضل لقمان. دار الجليل — دمشق (بدون تاريخ).

❖ **تاريخ طرابلس السياسي والحضاري عبر العصور**

- د. عمر عبد السلام تدمري ج٢. المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت ١٩٨١

❖ **تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون**

- شمس الدين الشجاعي، نشرته: برباره شيفر، القاهرة ١٩٧٨.

❖ **تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه**

- تأليف: الحسن بن عمر بن الحسن بن عمر بن حبيب المتوفى سنة ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م. الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ١٩٨٢ ج٢.

❖ **تعطير الانام في تعبير المنام**

- عبد الغني النابلسي دار احياء الكتب العربية ـ القاهرة طبعة مصورة نقلتها (مكتبة الشريف الرضيّ في قم. د. ت.)

❖ **تفسير الالفاظ الدخيلة في اللغة العربية**

- طوبيا العنسي، دار العرب، القاهرة ١٩٦٤ ـ ١٩٦٥.

❖ **تقويم البلدان**

- ابو الفداء (صاحب حماه) توفي ٧٣٢هـ / ١٣٣٢م. تحقيق رينو والبارون دي

سلان ـ طبعة باريس ١٨٤٠.

❖ **الجبهة الإسلامية في عصر الحروب الصليبية**

- للدكتور حامد غنيم ابو سعيد دار الثقافة. القاهرة ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م).

❖ **الجواب الصحيح عن مَنْ بدل دين المسيح**

- لأبن تيمية الحراني ت (٧٢٨هـ)، دار العاصمة، السعودية ١٤١٤هـ. تحقيق علي بن حسن بن ناصر ورفاقه.

❖ **حوادث الزمان ووفيات الشيوخ والاقران**

- شهاب الدين احمد بن محمد بن عمر الشهير بابن الحمصي (٨٤١ ـ ٩٣٤هـ) تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية ـ صيدا ـ لبنان.

❖ **الخزانة الشرقية**

- حبيب زيات، بيروت. المطبعة الكاثوليكية ١٩٤٦.

❖ **خطط الشام**

- محمد كرد علي، بيروت الطبعة الثانية ١٣٩١ هـ - ١٩٧١م.

❖ **الدارس في تاريخ المدارس**

- النُعيمي (توفي ٩٢٧هـ ـ ١٥٢١م) نشره جعفر الحسني ـ دمشق ١٩٥١.

❖ **دائرة المعارف الإسلامية**

- القاهرة ـ لجنة من المستشرقين، الطبعة المصورة لدار المعرفة ـ بيروت (د.ت).

❖ **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**

- شهاب الدين أحمد بن حجر العسقلاني المتوفي ٨٥٢هـ تحقيق:محمد

سيد جاد الحق. دار الكتب الحديثة بالقاهرة.

❖ **دستور معالم الحكم**

- للقاضي القضاعي المتوفي ٤٥٤هـ القاهرة ١٣٣٢هـ - ١٩١٤م بعناية محمد عبد القادر الرافعي الكتبي صاحب المكتبة الازهرية - مطبعة السعادة.

❖ **دول الإسلام**

- شمس الدين ابي عبد الله الذهبي المتوفى ٧٤٦هـ الطبعة الأولى - مطبعة دائرة المعارف النظامية بمدينة حيدر آباد الدكن سنة ١٣٣٧هـ.

❖ **الدولة البيزنطية**

- د. السيد الباز العريني، دار النهضة العربية ١٩٨٢، بيروت.

❖ **الديارات النصرانية في الكوفة وضواحيها**

- محمد سعيد الطريحي، بيروت ١٩٨١

❖ **ديوان ابن الوردي**

- تحقيق د. احمد فوزي الهيب.دار القلم - الكويت ط١ (١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م)

❖ **ذاكرة عراقية**

- روفائيل بطي، دار المدى - دمشق ٢٠٠٠

❖ **رحلة ابن جبير**

- ابن جبير (٥٣٩ – ٦١٤هـ) (١١٤٤- ١٢١٧م) دار صادر بيروت (د.ت)

❖ **زاد المعاد في هدى خير العباد**

- لأبن قيم الجوزية (٦٩١ - ٧٥١هـ) تحقيق - عرفان عبد القادر حسونة العشا - دار الفكر - بيروت ١٤١٥هـ - ١٩٩٥

❖ **السلوك لمعرفة دول الملوك**

- تقي الدين ابي العباس احمد بن علي بن عبد القادر العبيدي المقريزي

المتوفى ٨٤٥هـ تحقيق: محمد عبد القادر عطا ج٣ دار الكتب العلمية / بيروت ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥

❖ **شذرات الذهب في اخبار من ذهب**

- لأبي الفلاح الحسن بن العماد الحنبلي، الطبعة الثانية - دار المسيرة، بيروت ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م.

❖ **شرح كنوز السنة**

- للدكتور أ ـ ي ـ فنسنك تعريب: محمد فؤاد عبد الباقي، نشر مكتب الاعلام الإسلامي (بالاوفست) ـ طهران ١٤٠٤هـ).

❖ **شرح نهج البلاغة**

- لأبن أبي الحديد المعتزلي (١١٩٠ ـ ١٢٥٨م) القاهرة.

❖ **الصليبيون في الشرق**

- ميخائيل زابوروف، ترجمة الياس شاهين، موسكو ١٩٨٦.

❖ **طبقات الشافعية الكبرى**

- تاج الدين ابو النصر عبد الوهاب السبكي (توفي ٧٧١هـ/١٣٦٩م)

❖ **العلاقات العربية التركية**

- مجموعة من المؤلفين. جزآن في مجلد واحد، إسطنبول ١٩٩٣، إصدار معهد البحوث والدراسات العربية بالاشتراك مع مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية.

❖ **العلاقات بين المسلمين والمسيحيين في بلاد الشام**

- أعمال مؤتمر آذار ٢٠٠٤، جامعة البلمند والمعهد الفرنسي للشرق الأدنى وجامعة القديس يوسف (بيروت) لبنان ٢٠٠٥م-١٤٢٦هـ ٢١٩ ص بالعربي، ٣٣٠ ص بالفرنسي.

❖ **العراق قديماً وحديثاً**

- عبد الرزاق الحسني، بيروت، مطبعة دار الكتب ١٩٨٠.

❖ **عيون الاخبار**

- ابن قتيبة الدينوري (٨٢٨ ـ ٨٨٩هـ) باريس ١٩٤٩.

❖ **عيون الانباء في طبقات الاطباء**

- ابن ابي أصيبعة (١٢٠٠ـ ١٢٧٠م)، القاهرة ١٨٨٤

❖ **كتاب الفتوة**

- لأبي عبد الله محمد بن ابي المكارم المعروف بابن المعمار الحنبلي البغداد ي المتوفي سنة ٦٤٢هـ. تحقيق مصطفى جواد وزملائه، مطبعة شفيق، بغداد ٥٨ ـ ١٩٦٠.

❖ **الفن العربي الإسلامي**

- د. عفيف بهنسي دمشق. دار الفكر، الطبعة الأولى ١٩٨٣.

❖ **فوات الوفيات**

- محمد بن شاكر الكتبي المتوفى ٧٦٤هـ دار صادر ـ بيروت

❖ **قاموس الصناعات الشامية**

- محمد سعيد القاسمي (١٨٤٣ - ١٩٠٠)، محمد بن محمد القاسمي (١٨٦٦ - ١٩١٤)، خليل العظم (١٨٧٠ ـ ١٩٢٦)، ظافر القاسمي. دار طلاس دمشق ١٩٨٨.

❖ **قاموس الكتاب المقدس**

- لجنة من الكتاب منشورات مكتبة المشعل ـ بيروت. ط٦ (١٩٨١)

❖ **القاموس المحيط**

- الفيروز آبادي، دار الرسالة. الطبعة الثانية ١٩٨٧بيروت.

❖ **قبرس والحروب الصليبية**

- د. سعيد عبد الفتاح عاشور القاهرة ١٩٥٧

❖ **القصارى في نكبات النصارى**

- اسحاق ارمله ط١ (١٩١٩)

❖ **قصة الاضطهاد الديني في المسيحية والإسلام**

- توفيق الطويل، القاهرة ـ الزهراء للاعلام ١٤١٢هـ ـ ١٩٩١م

❖ **الكامل في التاريخ**

- ابن الأثير، دار صادر ـ بيروت

❖ **اللؤلؤ المنثور في تاريخ العلوم والاداب السريانية**

- اغناطيوس افرام الأول برصوم، مطبعة الشعب، بغداد، ١٩٧٦.

❖ **مجمع البحرين ومطلع النيرين**

- فخر الدين الطريحي (المتوفى ١٠٨٥هـ) تحقيق احمد الحسيني، دار مكتبة الهلال، بيروت ١٩٨٥.

❖ **المحلي**

- ابن حزم الاندلسي (٩٩٤ ـ ١٠٦٤م)، بيروت ١٩٨٨م /١٤٠٨م

❖ **المدونة الكبرى**

- عبد السلام بن سعيد سحنون (٧٧٧ ـ ٨٥٤هـ)، القاهرة ١٩٠٥م / ١٣٢٣م

❖ **مذكرات تاريخية** (تتضمن بيان ثورة دمشق والحريق الكبير فيها..)

- لأحد كتاب الحكومة الدمشقيين نشرها وعلق عليها: الخوري قسطنطين الباشا المخلصي مطبعة القديس بولس في حريصا (لبنان) عن نسخة مكتبة برلين المرقمة ٩٧٨٨.

❖ **معادن الذهب في الاعيان المشرفة بهم حلب**

- لأبي الوفا عمر العُرضي تحقيق: عيسى سليمان ابو سليم ـ عمّان ـ الأردن ١٩٩٢.

❖ **معجم البلدان**

- ياقوت الحموي، ط٢ (دار صادر) بيروت ١٩٩٥

❖ **المغني (في الفقه الحنبلي) مقدمة في الوثائق الإسلامية**

- لأبن قدامة المقدسي (١١٤٧ ـ ١٢٢٣م) نشر مكتبة القاهرة، وطبعة وزارة الاوقاف الكويتية ـ الكويت ١٩٨٤م /١٤٠٤م

❖ **مقدمة في الوثائق الإسلامية**

- الدكتور قاسم السامرائي، الطبعة الأولى، دار العلوم، الرياض (المملكة العربية السعودية) ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

❖ **مسالك الابصار في ممالك الامصار**

- ابن فضل الله العمري شهاب الدين احمد بن يحيى المتوفى ٧٤٩هـ ـ ١٣٤٨م. اصدره فؤاد سزكين ج ٢٧. معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية (في اطار جامعة فرانكفورت ـ المانيا ـ ١٤٩هـ ١٩٨٩م.

❖ **المصباح المنير**

- لأحمد بن محمد بن علي الفيومي المتوفى ٧٧٠هـ دار الهجرة ـ ايران ـ قم ط٢ (١٤١٤هـ)

❖ **الملابس العربية والإسلامية في العصر العباسي**

- صلاح حسين العبيدي بغداد، وزارة الثقافة، دار الرشيد للنشر ١٩٨٠.

❖ **ملوك الطوائف ونظرات في تاريخ الإسلام**

- تأليف: دوزي، تعريب كامل كيلاني، مكتبة عيسى البابي الحلبي وشركاه ـ القاهرة ١٩٣٣م ـ ١٣٥١هـ

❖ منتخبات التواريخ لدمشق

- محمد اديب آل تقي الدين الحصني ج١-٢ (١٣٤٦هـ/ ١٩٢٧ - ١٩٢٨م). المطبعة الحديثة بدمشق.

❖ المنتظم في تاريخ الملوك والامم

- لأبن الجوزي (١١١٦ - ١٢٠١م) دار الكتب العلمية - بيروت - ١٩٩٣م/ ١٤١٢ - ١٤١٤هـ.

❖ منشآت السلاطين

- احمد افريدون بك التوقيعي (توفي ٩٩٠هـ - ١٥٨٢م)، طبع مصر ١٢٦٤م.

❖ من ذيول العبر في خبر من غبر

- شمس الدين محمد بن احمد الذهبي (توفي ٧٤٨هـ) ومحمد بن علي بن الحسن شمس الدين ابو المحاسن (٧١٥ - ٧٦٥هـ)

❖ مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام

- محمدعبد الله عنان (١٨٩٦ - ١٩٨٦) القاهرة / ١٩٢٩م /١٣٤٧هـ

❖ الموسوعة العربية الميسرة

- باشراف محمد شفيق غربال، دار الشعب ومؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، مطابع الشعب بالقاهرة ١٩٦٥.

❖ الموشى

- لأبي الطيب محمد بن اسحق بن يحى الوشاء ليدن - مطبعة بريل ١٨٨٦م - ١٣٠٢هـ تحقيق: nnow-Rudolph E. Br

❖ مؤيد الدين ابن العلقمي

- حسين محمد الساعدي، النجف ١٩٧٢، دراسات تاريخية - ٢ -

❖ **النهاية في غريب الحديث والأثر**

- ابن الاثير الجزري - أبو السعادات المبارك بن محمد (١١٤٩ - ١٢١٠م). القاهرة ١٩٦٣ ـ ١٩٦٥م.

❖ **نثر الدر**

- لأبي سعيد منصور بن الحسين الآبي، القاهرة (١٩٨٠ ـ ١٩٩١)

❖ **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**

- لأبي المحاسن يوسف ابن تغري بردي (١٤١٠ ـ ١٤٧٠م) القاهرة ١٣٤٨ - ١٣٩٢هـ ـ ١٩٢٩ ـ ١٩٧٢)

❖ **نزهة الانام في مجالس الشام**

- لأبي البقاء عبد الله بن محمد البدري الدمشقي المصري المولود سنة ٨٤٧هـ. القاهرة ١٣٤١هـ المطبعة السلفية

❖ **نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق**

- يوسف رزق الله غنيمة، مطبعة الفرات ـ بغداد ١٩٢٤.

❖ **النصارى (حوارات حول المستقبل)**

- عمرو عبد السميع، القاهرة مكتبة التراث الإسلامي (١٩٩٢)

❖ **وزراء النصرانية**

- لويس شيخو (الأب) (١٨٩٠ ـ ١٩٢٧م) لبنان ـ بيروت ـ المكتبة البولسية ١٩٨٧

❖ **ولاة دمشق في عهد المماليك**

- محمد أحمد دهمان دمشق ـ دار الفكر ط٢ (١٩٨٤م)

❖ **وفيات الاعيان وانباء أبناء الزمان**

- ابن خلكان (١٢١١ ـ ١٢٨٢م) القاهرة ١٢٢٩هـ /١٨٨١ ـ ١٨٨٢ وطبعة ١٩٤٩.

❖ **ياد نامه ايراني مينورسكي**

- تدوين: مجتبى منيوي وايريج افشار ـ تهران ١٣٤٨ انتشارات دانشكاه تهران ١٣٤٨هـ.

❖ **اليهود في البلدان الإسلامية**

- صموئيل ايتنجر سلسلة عالم المعرفة رقم ١٩٧، الكويت ١٩٩٥



❖ **المجلات:**

- مجلة المقتطف (مصر)
- مجلة الهلال ـ القاهرة (مصر)
- مجلة المنار ـ القاهرة (مصر)
- مجلة كلية الآداب بجامعة الأسكندرية (مصر)
- مجلة المجمع العلمي العربي (دمشق)
- مجلة المجمع العلمي العراقي (العراق)
- مجلة المورد (العراق)
- مجلة المشرق (لبنان)
- مجلة الأزهر (مصر)
- مجلة بين النهرين (بغداد).



❖ المصادر الاجنبية:

- Reinhart Picter Anna Dozy 1820- 1883:
  Catalogus codicum orientalium bibliothecac academiae Lugduno Batavac, Vol. 1, 2 1851.
- Carl Broekelmann 1868- 1950:
  Geschichie der arabischen litteratur (GAL).
  Leiden, E.J. Brill 1996.
- Aleksandr Aleksandrovic Vasilev.
  History of the Byzantine empire, 324 – 1453/ A.A. Vasiliev
  Prime Ministerial Ottoman Archives, Books of.
  Churches, Book of Kammah, No: 8.
- Rabino, M.H.L. Le Monastere De Sainte Catherine Du Mont. Sinai, Le Caire, 1938.
- Les Manuscripts Arabes De LE Mescurial, Hartwig Derenbouog, Paris 1884.
- EL Hassan Bin Talal (Crown Prince Of Jurdan: Christianity In The Arab World.
  SCM Press ltd. London. 1998.
- Lewis, Jeoffry, Modern Turkey (Ernest Bonn) London, 1974.
- Eryilmaz, Bilal: Osmanli devletinde millet sistemi/ Istanbul: ağacyay, 1992.
- Sahin, M. Süreyya: Fener Patrikhanesi ve Türkiya. ötükenyay. 1980.



فهرس الآيات القرآنية

الآيــة	الرقم	الصفحة
سورة البقرة		
وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ	٢٢١	١٢٣
فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾	١٧٥	١٥٦
كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ ...	٢١٦	١٧٢
سورة آل عمران		
فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ...	٢٠	٦٧
وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ...	٨٥	١٧١
شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ	١٨	١٧١
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ	١١٨	١٧٩
سورة النساء		
وَمَا صَلَبُوهُ	١٥٧	١٦١
سورة المائدة		
ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ	٣	١٧١
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ ...	٥١	١٢٨
فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ ...	٥٢	١٨٢
فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟	٥٣	١٨٢
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ	٥٤	١٨٠

سورة الأعراف

سورة الأنفال

سورة التوبة

سورة الرحمن

سورة المجادلة

سورة القلم

سورة الإنسان (الدهر)

سورة عبس

سورة الغاشية

سورة القارعة

سورة الهمزة

سورة المسد

سورة الزلزلة

سورة الممتحنة

سورة الفجر

سورة المزمل

سورة الحديد

فهرس الأحاديث

فهرس الأشعار

فهرس الأعلام والأماكن والمصطلحات

فهرس الأعلام

فهرس الأماكن

فهرس الاصطلاحات والألفاظ الحضارية والأقوام والجماعات

صورة الوثائق الأصلية للمخطوطة الليدنية (هولندا)

الحمد لله ولي الاعانه

لم ير يوم من نهار الاخيار والسيراء • كمثل نهار حريق في دمشق جرا

ولا رأى مثله في اعصر سالفت • راي ومثبه ذاك الخطب ليس يرى

اني القديم حدثت قبل عنه فلا • تسل به عن جريك الدمع كيف جرا

مصيبة دهمت ليلا فما تركت • بالنار للعين لا عينا ولا اثرا

النجم تقايت كبيد الغني بها • فقد اودى صب من بعد التراثر

كانما الناس موتى عندها اسفا • حذر الارض ايديهم لهم حفرا

منهم من تراهم في منازلهم • كانما هي اجداث لمن قبرا

يفتشون على ما شاخ من ذهب • وفضة فيرون الجمر والحجرا

يبكي عليهم وهم يبكون من اسف • حزنا على اغنيا اصبحوا افتقرا

كانوا يعيرون بالاعطا سايلهم • فاستوجبوا ميرة العافي بغير مرا

يا ليلة حصلت وزر الذين دعوا • لها ولم يجدوا من دونها وزرا

لو ملها أقوى عارات راقهم • ولو اليد لنفع سيف في الضررا

تبدو النار عقاب قربها حنط • والبقعة رضي ما زال منتشرا

نار علت فارتها كل فاقرة • ما مثل نار راحنا العين نار سقرا

جالت فجازت علينا في تعاهدها • وما صعق وردها حتى سفا الكدرا

وتلك ما ابدعة بدعوا الجفلى من المصايب لا ادعو لها النفر

عم العرالها كل الورى قصدا • فيعز الهدام فيها يجبل المطرا

كم من ربوع اعادتها لنا دمنا • ينوح فيها غراب البين اذ عبرا

ويندب الرابع الغادي بها ساتها • مخافة ان يرى في غبرها عبرا

لا يملك الصبر فيها من اصيب بها • وليس يكسب اجرا غير من صبرا

يوم الثلاثا

يوم الثلاثا كيوم الحشر في كرب • ثان اذا الشيعت للنظر انتظرا

اني الحريق به ذكر الرحيق فكم • بالهم والغم من صاح به سكرا

نار كان بها هول المعاد في • تلك العباد لاحراق الذي كفرا

تفرقت شمل البرى كان مجتمعا • فالناس ان قرد امتها اقدا نفرا

ما شاهدا سمعت اذناي صارخها • ليلا فادغر سمعي يدري الخبرا

لا غروان فطرت منا القلوب اسى • فهي التي حرها تد فطر الحجرا

حكو بجميع ارسال الشواظ بها • فما عليه مرامي الفطر قد فطرا

وكم اتتنا جلابيبا مخترقة • حقيقة لا مجازا تظهر العبرا

وطال ما خد فوق الارض جامعا • من عارجين سبتنا فيه غارجا

هني على الورق المبيض كاتبها • فاحمر واسود اذ فيه اللهيب قرا

فلو راي هولها الوراق لا عترت • منه القريحة او انسته ما شعرا

وما نسى سراجا بعدها ابدا • لما راي من لهيب هو لها استعرا

وكم قناطر قد هدت وقد هدت • وكم حوانيت عبل فاندثرا

وما قواره ما زال منبجسا • لم يبق منه غادر وردا ولا صدرا

وهيامه فوقها هيكل من خشب • اضحت مسندة تستوقف البصرا

حروب نار النار الحرب قد شبت • منذ اقبلت جيوش تتهل النكرا

تحكي الحراب غداة الطعن السنها • لما تباشر في احراقها البشرا

لو نال البرابر كشر كي بعض صيدتها • ذاك ما فيه بنا العمر وانكسرا

التي السلام الينا الشام من جور • ولم يكن قبل هذا يعرف الجورا

ولم يرد السيف والرمح الا صيم له • عونا فاحرق حتى التبر والورقا

شرقا وغربا البيت اهد تد لحت • لما ظلام دجاها السند واعتكرا

وجاور الجامع المعمور جاد لها . فكاد ينقض حتى ينقض الجدرا
وكم تطاير شرار هو لها فرمى . على المنارة نار القدح الشررا
دبت إليها دبيب النمل فاحتملت . في صورة العجز وصفها الشعرا
قضى علينا بها الرحمن فانتزعت . في ساعة فرقت احزابا زمرا
ابلت جديدا وافنت ما ملاقرت . بيد الخراب لها ما كان قد عمرا
ولم تدع احدا حتى بلا سنه . فتلك داهية منها الاذى عمرا
هذا قضاء اله العرش قدره . ومن يرد قضاء الله والقدرا
وهذه عبرة جاءت لمعتبر . في كل امر عجيب ينعم البصرا
فالحمد لله اذ باللطف اخمدها . عنا وسلم منها هذه المعمورا
والشكر لله اذ كانت مواهبه . تزيد بالفضل والنعمى لمن شكرا
اذ صاننا وحمانا في منازلنا . بكافل باسمه اهدى لنا الظفرا
لولاه في الشام لم يحفظ لنا وطن . ولا قضينا بها من دهرنا وطرا
سعى فشمر ذيل العزم حين سعى . بهمة لم تفتها الصمد والحذرا
كالغيث تحسن الشغا بمدد . وافي رايا نعيم العيش قد حضرا
فاخمد الله تلك النار حين خفت . بالامر من نائب السلطان والامرا
وجاء بالنصر والفتح المبين لنا . على العناية الذي لولاه لا انتصرا
سيف حماية دين الله يشهره . فدام فينا بحسن الذكر مشتهرا
وكيف لا يطفى النيران مقدمه . والبحر من فعله والاسم قد ظهرا
والليث يحمي الشرا والرعب سطوته . فكيف ان رام منه الباس او زارا
فالله يحميه ما غنت مطوقة . تحركت بالنسيم العود حين سرى

نظمت يوم السبت ... في دمشق المحروسة سنة اربعين وسبعمائة ...
... محمد ...

الحمد لله الموفق ... فتيا

ما قول ... ائمة المسلمين فيما اعتمده النصارى بدمشق المحروسة
وحريق اوقعوه في الجامع الاموي عمره الله تعالى بذكره وحريق المادنة الشرقية
واوقاف المدرسة الامينية وما فيها من سلاح المسلمين وغير ذلك من الاموال
هل ينتقض بذلك عهدهم وهل يلزمهم ضمان ما اتلف بالحريق ويؤخذ ذلك من
اموالهم واذا انتقض عهدهم فما الحكم فيهم هل يقتلون او ينفون الى بلاد
النصارى اذا كان متمولهم وكبارهم وروساؤهم شاركوا على حريق الجامع
المذكور وحريق دمشق المحروسة بما فعلوه واعترفوا بذلك فهل يجب على ...
المتولين ... جريان الضمان ام لا وهل ينتقض عهده بهم ام لا واذا اسلم احدهم
فهل يصح اسلامه ام لا واذا صح اسلامه فهل يصح اسلامه خاصة او ...
وهل يحميه اسلامه من الضمان بسبب الحريق ام لا واذا كان لهم ...
من ابائهم وهم يعتقدونه ولا يرون مخالفته وامرهم بما فعلوه فهل ينتقض
عهده ايضا ام لا افتونا ماجورين ...
ينتقض عهدهم ويؤخذ اموالهم ولولي الامر ان يعاقبهم بالقتل عوض
ما اتلف بالحريق المذكور منهم من وقف وعقار وقماش وغير ذلك من الاموال
ويثاب ... الله تعالى على ذلك والله اعلم كتبه علي السبكي

... الحمد لله

نعم يلزمهم ضمان ما اتلفوه من الاموال والعقار والسلاح وغير ذلك
واذا كانوا قد سعوا في الارض بالفساد فللامام ان يقتلهم سياسة
وله اجلاؤهم عن البلد كلهم الى موضع وراء الاسلام من دار الاسلام ويكون ذلك
... من فسادهم واسلام من اسلم منهم لا يكون موجبا لسقوط ما وجب عليه

[illegible]

حضر الي شهوده يوم تاريخه الرشيد سلامه بن سليمان بن مرجي النصراني
كاتب المقر العلي سيف الدين الجمقدار الملكي الناصري بشهوده به عارفون
واشهد علي نفسه طايعا انه في شهر شوال سنة تاريخه حضر عنده الي بيته
المكين يوسف بن مجلي النصراني عامل الجيش والمكين جرجس بن ابي الكرم كاتب
الخوطات والمكين يوسف النصراني الراكيلي كاتب بها دراهيم كان واحضروا
معهم راهبين احدهما يسمي ميلاني يعرف صناعة النفط والاخر يسمي
عازر وذكروا ان الراهبين المذكورين حضرا من بلاد قسطنطينيه ثم انه
عاد وذكر ان الراهب المسمي ميلاني يعرف صناعة النفط والنار واتفقوا
علي حريق ما يقدروا عليه من اماكن المسلمين بدمشق المحروسه ثم انهم
توجهوا بعد ذلك الي بستان المكين يوسف الراكيلي بجوبر واقام
الراهبان المذكوران عنده في طبقة علي باب البستان المذكور واحضر لهم
المكين عامل الجيش ما اراد وامر النفط والحوايج وعملوا سبع كعكات محشوه
بارود ونفطا ودق فحم وغير ذلك مما يعرفوه والبسوا الراهبين المذكورين
قباين تترية وتخفيفتين بجوخ وزنارات ثم نزلا من البستان المذكور ودخلا
الي الدهشة الاموية وقعد احدهما علي دكان شرقي القيسارية وقعد علي
باب الدكان فلوسا وتحيل حتي ادخل كعكة واحده من تلك الكعكات ثم خرجا
الي قصبة السوق البزوري واشتريا قبايرد ثم بسطا القبا علي انهما يطويانه
فانبسط احدهما الي الدكان والقي كعكة ثانية بين الدراريب وركبا من باب
الفراديس دابتين وطلعا الي البستان المشار اليه واخبرا بما فعلاه وفي تلك
الليلة احترق الحريق الاول ثم ان المكين الراكيلي كتب ورقة وارسلها الي

مكين

المكين عامل الجيش والمكين جرجس عرفهما بصورة الحال ثم كتب الي الحاضر المسمي
بلاده المشهود عليه وهو الرشيد ورقة وارسلها مع مملوكه مبارك يعرفه من
جهة دراهم لنا عامل الجيش وتولي اخر الورقة ان الشغل قد انقضي ثم انهم كتبوا الحاكما يا
الي العلم الاميوري يا مليح وروت ان يجتهد في تجهيزهما وتركيبهما من البحر
في يوم وصولها الي البلاد ثم انهم بعد ذلك احضروا عيسي اخو يحيي المعروف بابن بنس
ورقه ودفعوه علي انه يحيل في ادخال النار الي اخلي مكان الطاحون المستجده
علي باب قيسارية القواسين وعدوا مده وده بخمسمائة درهم قبض منها ثلاثمائة
واخذ كعكه ثالثه واستمال النصراني ساكن الدكان حتي وضع الكعكه في سقف
الدكان وفي تلك الليلة احترق الحريق الثاني وهو قيسارية القواسين
وما معها ثم انهم دفعوا خمسمائة درهم لمخلوف النصراني الطواف علي انه
يرمي حراريق دهن باقطار البلد ليبقي عندهم الفتن بذلك ثم انه حضر عندهم
اثنان من بيروت معهم كتاب صاحب بيرهم انه بلغه خراب ما حول الكنيسة
فان كانوا يحتاجوا ان يكتب الي صاحب الصعيد بكاتب مولانا السلطان الملك الناصر
في ذلك بعرفوه وفيه فصول كثيرة فجهزوا الغلامين المذكوران الي القدس الشريف
فلما قدموا كتبوا الحاكما امن يوسف الراكيلي الي جماعه مسمي بحري كاتب المقر العالي
سيف الدين قريبه يجبا الوصيفتهما واكرامهما وكتبوا كتابا الي صاحب بيرهم
قبل الحريق الثاني يعرفه بالاول وفيه فصول كثيره وكتبوا فيه بالرد لما يليك
الخاله دمشق ينحوليه ذلك اكابر النصاري بدمشق وهذه صورة ما اقر به
الحاضر المسمي اعلاه من غير زيادة ولا نقصان والله المستعان في تاسع ذي القعده
سنة اربعين وسبعمايه

ولا يستخدموا في الحمام مسلما وتلبس المرأة ... لبا رزه خفيه احدهما اسود والاخر ابيض
ويشدوا الزنانير على غير الحرير في اوساطهم ويجزوا مقادم رؤوسهم بحيث لا يتشبهوا
بالمسلمين في عمامة ولا نعل ولا في فرق شعر ومن ذلك ان لا يتسموا باسمائهم ولا يتكنوا
بكناهم ولا يركبوا الخيل ... ويركبوا الحمير ... عرضا من غير زين ... ولا
يتخذون شيئا من السلاح ولا يبيعوا الخمر ولا يخدموا الملوك ولا الامرا فيما يجري امرهم
على المسلمين من كتابة او امانة او وكالة ولا ما فيه تامر على المسلمين ولا يجعل لهم كلمة
يشتغلون بها عن المسلم ولا يستخدموا المسلمين في اعمالهم الشاقة ولا يجاوزوا المسلمين
ببنائهم ولا يعلوا على المسلمين في البنيان ولا يساووهم ولا يحتالوا على ذلك بحيلة ولا
يرفعوا اصواتهم في كنائسهم ولا مع موتاهم ولا يشترون من الرقيق مسلما ولا ما جرت عليه
سهام المسلمين ولا من سباه مسلم ولا ... ولا يحتالوا عليه ومن ذلك ان لا يحدثوا
في مداين المسلمين واعمالها ديرا ولا كنيسة ولا قلية ولا صومعة راهب ولا يجددوا
ما خرب من كنائسهم التي ثبت عقدهم عليها ولا يمنعوا كنائسهم ان ينزلها احد من المسلمين
ثلاث ليال يطعمونهم ولا ياووا جاسوسا ولا من فيه ريبة لاهل الاسلام ولا يغشوا المسلمين
ولا يعلموا اولادهم القرآن ولا يظهروا شركا ولا يمنعوا ذوي قراباتهم من الدخول في الاسلام
ان ارادوه وان اسلم احد منهم فلا يوذوه ولا يساكنوه وان يوقروا المسلمين ويقوموا لهم
عن مجالسهم ان ارادوا الجلوس بها ويتجنبوا اوساط الطرق وان لا يجهروا ولا يتظاهروا
ولا يبيعوا مسلما ... ولا يضربوا ناقوسا ولا يدلوا على عورات المسلمين ولا ... شيئا
من موات المسلمين ولا غير موات ومن زنا منهم بمسلمة قتل ومتى خالفوا شيئا من ذلك
فلا ذمة لهم وتحل لهم ما يحل من اهل المعاندة والشقاق ولا ... مراسيمنا
الشريفة بذلك رسمنا باحضار بطارقة النصارى على اختلاف مذاهبهم ورؤسا اليهود
وخزانينهم الى بين يدي الحاكم والايمة العلما وقريت عليهم هذه الشروط والتزموا
بها

بها وخرجوا على حكم ما يعتقد وتنحى من خرج ... طوائفهم عنها واشهد عليهم والتزموا ابدا اهل
الذمة كافة واستقر حكم ذلك على حكم الشريعة المطهرة ورسمنا باحضار بطارقة النصارى
على اختلاف مذاهبهم ورؤسا اليهود بان لا يستخدم من الملة النصرانية يهودي ولا نصراني
ولا سامري واستقر ذلك بالابواب الشريفة جميعا ... الى ان يسارع الى امتثال
ذلك والعمل به في جميع المملكة الشامية ويكتب بمضمون ما رسمنا الى سائر الاعمال وعمالهم
كافة ويشدد عليهم بالالتزام بذلك كما اعتمد في الابواب الشريفة ولا يمكن احدا من
الخروج من اهل الذمة عن حكمه وليعتمد في جميع ما شرحناه ولا يقبل من احد ان يشفع
في ذلك ... عنه وليتلوا الذي ذكره يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى
اولياء بعضهم اولياء بعض ومن يتولهم منكم فانه منهم ان الله لا يهدي القوم الظالمين وليفعل
... ذلك مقالا وفعلا وليعتمد في ذلك مضمون قوله صلى الله عليه وسلم صغروهم
كما صغرهم الله تعالى ... والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

من حقوق العباد من مال او قتل والله اعلم

جواب [illegible]

ثم يلزمهم ضمان ما اتلفوه من الاموال والعقار والسلاح وغير ذلك واذا كانوا
قد سعوا في الارض بالفساد فللامام ان يقتلهم سياسة وله اجلاؤهم عن اماكنهم
الى موضع يراه الامام من دار الاسلام ويكون ذلك مانعا من فسادهم واسلام
من اسلم منهم لا يكون موجبا لسقوط ما وجب عليه من حقوق العباد من مال او قتل والله اعلم

جواب [illegible]

الحريق المذكور موجب لنقض العهد ممن صدر منه ونقض العهد موجب
للقتل ومعلوم ما اشتمل عليه الفعل المذكور من المفاسد من خراب المادنة
والاوقاف واتلاف السلاح المستعد للتقوي على العدو المخذول
وما قصد من اتلاف المسلمين واموالهم وخراب مدينتهم واماكنهم وما
في اظهاره لهم من القوة والجراة على هذه الدولة القاهرة خلد الله ملك
مالكها وادام اقتداره واعز انصاره واهلك عدوه ثم ذلك موجب
لتضمين ما اتلفوه واخذ ذلك من اموالهم ويمنعون من الرجوع الى بلادهم
ومساكنهم ورؤسائهم وكبارهم ومن استأجروهم ومن تواطأ معهم
في الغرم ونقض العهد ولا يكون اسلام من اسلم منهم موجبا لسقوط الضمان
ولا مانعا من اخذ اموالهم وانما يكون موجبا لحقن دمهم اذا تبين صحة اسلامه
وينتقض عهد من امرهم بذلك ممن له عهد ويصير حربيا والله اعلم
كتبه محمد بن ابي بكر المالكي

جواب الحنابلة

ثم ينتقض عهدهم بذلك ويتعين قتلهم ويلزمهم ضمان ما اتلفوه بذلك
من الاوقاف والاموال وغيرها ولا يكون اسلامهم مانعا من ذلك
وما

وما بعد ذلك من اموالهم يكون فيئا للمسلمين ومن واطا على شيء مما
ذكر واعان عليه بوجه من الوجوه او علم به ولم يعلم به المسلمين
انتقض عهده ايضا والله اعلم كتبه علي بن المنجا الحنبلي ح

بسم الله الرحمن الرحيم نسخة المرسوم الشريف الوارد من الابواب ادامها الله
العالية السلطانية بعد ان اجمع ملك سلطانا تعالى في معنى اهل الذمة من النصارى واليهود والسامرة
والشروط التي شرطت عليهم والمرسوم الذي رسم به كتب ثلاث نسخ بخطوط العدول والشهود
ليكون عند كل طائفة منهم نسخة يقروها ويعلموا ما فيها ويدخلوا تحت ما رسم به فيها
وان يشهد عليهم ان عندهم نسخة المرسوم الشريف وانهم قد دخلوا تحته لكن ومتى
خرجوا عنه حل دماؤهم واموالهم للملة الاسلامية نوضح للعلوم الكريمة ان المجلس العالي تحقق
ان اهل الذمة من اليهود والنصارى وزاد ما منعوا فيه من التشبه من الزي بالائمة لو ... عندهم
وتوقف عندما ضرب عليهم من الذلة والمسكنة ومجاوزة احكام الذمة الشروط عليهم
ومباينة عقود العهد الذي انما تقرهم لانهم على ما سلف من اقراره بايديهم وحمل على ... الشرعي
واحكامها ولحق بالعمل بشروطها من لم يعش ذمة الا بالدخول تحتها والتمسك بها
وقد برزت مراسيمنا الشريفة الى جميع ممالكنا المحروسة بالديار المصرية واعمالها والبلاد
الشامية وثغورها بان يعتمد في جميع اهل الذمة احكام الشريعة المطهرة فيما يلزمهم من
الشروط التي ترتبت عليها عقود الذمة لهم وان يحملهم بالشروط العمرية ... وتحذيرا
احكامها وتحقيقا وعملا بما تقدم من ايامها وتحفظا ... ولزمنا
اهل الذمة بما كتبه الله عليهم من الذلة والصغار ... عما كانوا يتطرقون اليه من
مباشرة المسلمين ... من شرك ... عون الجبار
ثم لا يتشبهون بالمسلمين في ملبوسهم ولباسهم ويلبس النصارى العمامة الازرق ...
الشعرى ويكون عشرة اذرع فما دونها ويلبس اليهود كذلك ويكون عمامة صفرا
ويلبس السامري عمامة حمرا كذلك ويمنع نساؤهم من التشبه بنساء المسلمات في زيهم
فالمراة السامرية والنصارى يلبسن ... الكتان المصبوغ بالازرق واليهودية تلبس
... مصبوغا بالصفرة ولا يدخل احد من الرجال والنساء الحمام الا بعلامة تميزه عن المسلم ...

جزء فيه شروط أمير المؤمنين عمر بن
الخطاب رضي الله عنه على النصارى وفيه حديث
واصل الدمشقي ومناظرته لهم رضي الله عنه
رواية أبي عمرو عثمان بن أحمد السماك
رواية علي بن محمد بن بشران عنه
رواية أبي علي الحسن بن غالب
ابن علي المقرئ عنه
رواية أبي بكر محمد بن عبد الباقي بن محمد البزاز البغدادي عنه
رواية الشيخ الأجل أبي حفص عمر بن
محمد بن معمر بن طبرزد
رحمهم الله تعالى

من نعم الفتاح على على الفلاح
اذا قضى منه الاطر
سامحه المولى الاطر
امين

بسم الله الرحمن الرحيم

لا اله الا الله وحده لا شريك له عدة للقائه وامانا من عذابه

اخبرنا الشيخ الاجل ابو حفص عمر بن محمد بن معمر بن طبرزد رحمه الله قراءة عليه
في مدرسة اصحاب الصالحية كثرهم الله تعالى في يوم الاثنين سابع جمادى الاخرة
من سنة ثلاث وستمائة قال اخبرنا ابو بكر محمد بن عبد الباقي البزاز
قال اخبرنا ابو علي الحسن بن غالب بن علي الحربي المقرئ قراءة عليه فاقر به
في يوم الثلاثاء حادي عشر ذي الحجة من سنة ست وخمسين واربعمائة قال
اخبرنا ابو الحسين علي بن محمد بن عبد الله بن بشران السعدي قراءة عليه في شهر
ربيع الاول من سنة اربعمائة فاقر به قال اخبرنا ابو عمرو عثمان بن احمد
ابن عبد الله المعروف بابن السماك قراءة عليه فاقر به في صفر سنة اثنتين واربعين
وثلاثمائة حدثنا ابو محمد عبيد بن محمد بن خلف البزاز صاحب ابي ثور ثنا الربيع
بن ثعلب ابو الفضل ثنا يحيى بن عقبة بن ابي العيزار عن سفيان الثوري والوليد
ابن نوح والسري بن مصرف يذكرون عن طلحة بن مصرف عن مسروق عن عبد الرحمن
ابن غنم قال كتبنا لعمر بن الخطاب رضي الله عنه حين صالح نصارى اهل الشام

بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب لعبد الله عمر امير المؤمنين
من نصارى مدينة كذا وكذا انكم لما قدمتم علينا سألناكم الامان لانفسنا وذرارينا
واموالنا واهل ملتنا وشرطنا لكم على انفسنا ان لا نحدث في مدائننا ولا فيما
حولها ديرا ولا كنيسة ولا قلاية ولا صومعة راهب ولا نجدد ما خرب منها
ولا نحيي ما كان منها في خطط المسلمين ولا نمنع كنائسنا ان ينزلها احد من المسلمين في ليل
ولا نهار وان نوسع ابوابها للمارة وابن السبيل وان ننزل من مر بنا من المسلمين ثلاث
ليال نطعمهم ولا نؤوي في منازلنا ولا كنائسنا جاسوسا ولا نكتم غشا للمسلمين
ولا نعلم اولادنا القرآن ولا نظهر شركا ولا ندعو اليه احدا ولا نمنع احدا من ذوي
قرابتنا الدخول في الاسلام ان ارادوه وان نوقر المسلمين ونقوم لهم من مجالسنا
اذا ارادوا الجلوس ولا نتشبه بهم في شيء من لباسهم في قلنسوة ولا عمامة ولا نعلين
ولا فرق شعر ولا نتكلم بكلامهم ولا نتكنى بكناهم ولا نركب السروج ولا نتقلد السيوف
ولا نتخذ شيئا من السلاح ولا نحمله معنا ولا ننقش على خواتيمنا بالعربية ولا نبيع
الخمور وان نجز مقادم رؤوسنا وان نلزم زينا حيث ما كان وان نشد الزنانير
على اوساطنا وان لا نظهر الصليب على كنائسنا ولا نظهر صلباننا وكتبنا في شيء
من طرق المسلمين ولا اسواقهم ولا نضرب بنواقيسنا في كنائسنا الا ضربا
خفيفا ولا نرفع اصواتنا بالقراءة في كنائسنا في شيء من حضرة المسلمين ولا نخرج
شعانين ولا باعوثا ولا نرفع اصواتنا مع موتانا ولا نظهر النيران معهم في شيء
من طرق المسلمين ولا اسواقهم ولا نجاورهم بموتانا ولا نتخذ من الرقيق ما جرى عليه
سهام المسلمين ولا نطلع عليهم في منازلهم فلما اتيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالكتاب
زاد فيه ولا نضرب احدا من المسلمين شرطنا لكم ذلك على انفسنا واهل ملتنا
وقبلنا عليه الامان فان نحن خالفنا في شيء مما شرطناه لكم وضمناه على انفسنا فلا ذمة لنا

والكنيسة ... والقلاية ...

الشعانين ... والباعوث ...

وقد حل ثم ما يحل من اهل المعاندة والشقاق وبالاسناد قال

اخبرنا الشيخ ابو الحسين علي بن محمد بن محمد بن عبد الله بن بشران السكري قال اخبرنا

ابو عمرو عثمان بن احمد بن عبد الله بن السماك ثنا عبيد بن محمد بن خلف البزار ثنا الحسن

بن الصباح البزار حدثنا محمد بن بشر المستمي الصنعاني عن محمد بن الحسين عن واصل

قال اسر غلام من بني بطارقة الروم وكان غلاما جميلا فلما صاروا الى

دار السلام دفع الى الخليفة وذلك في ولاية بني امية فسماه بشيرا وامر به الى الكتاب

فكتب وقرا القرآن وروى الشعر وقاس وطلب الاحاديث وحج فلما بلغ واجتمع

اتاه الشيطان فوسوس اليه وذكره النصرانية دين ابائه فهرب مرتدا من دار

الاسلام الى ارض الروم فاتي به الى الملك فسأله

عن حاله وما كان فيه وما الذي دعاه الى الدخول في النصرانية فاخبره برغبته

فيه فعظم في عين الملك فرأسه وصيره بطريقا من بطارقته واقطعه قرى كثيرة

فهي اليوم تعرف به فقال الخاقاني بشير وكان من قضاء الله وقدره انه اسر

ثلاثون رجلا من المسلمين فلما دخلوا على بشير سائلهم رجلا رجلا عن دينهم وكان

فيهم شيخ من اهل دمشق يقال له واصل فسأله بشير فابى الشيخ ان يرد عليه شيئا

فقال بشير ما لك لا تجيبني قال الشيخ لست اجيبك اليوم بشيء قال

بشير للشيخ اني سائلك غدا فاعد جوابا وامر برده الى الاسر فلما كان من الغد

بعث بشير فادخل الشيخ اليه فقال بشير الحمد لله الذي كان قبل ان يكون

شيء وخلق سبع سموات طباقا بلا عون كان معه من خلقه فعجبا لكم معاشر العرب

حين تقولون ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون

فسكت الشيخ فقال له بشير ما لك لا تجيبني فقال كيف اجيبك وانا اسير في

يدك فان اجبتك بما تهوى اسخطت علي ربي وهلكت في ديني وان اجبتك بما لا

تهوى خفت على نفسي فاعطني عهد الله وميثاقه وما اخذ النبيون على الامم

انك لا تغدر بي ولا تمحل بي ولا تبغ بي باغية سوء وانك اذا سمعت الحق

تنقاد له فقال بشير فلك علي عهد الله وميثاقه وما اخذه عز وجل

على النبيين وما اخذ النبيون على الامم اني لا اغدر بك ولا امحل بك ولا

ابغيك باغية سوء واني اذا سمعت الحق انقدت اليه قال الشيخ اما ما

وصفت من صفة الله عز وجل فقد احسنت الصفة واما ما لم يبلغ علمك ولم

يستحكم عليه رأيك اكثر والله اعظم واكبر مما وصفت فلا يصف الواصفون

صفته واما ما ذكرت من هذين الرجلين فقد اسات الصفة الم يكونا ياكلان

الطعام ويشربان ويبولان ويتغوطان وينامان ويستيقظان ويفرحان

ويحزنان قال بشير بلى قال فلم فرقتم بينهما قال بشير لان عيسى بن

مريم عليهما السلام كان له روحان اثنتان في جسد واحد روح يعلم بها الغيوب

وما في قعر البحار وما يتحات من ورق الاشجار وروح يبرئ بها الاكمه والابرص

ويحيي بها الموتى قال الشيخ روحان اثنتان في جسد واحد قال

بشير نعم قال الشيخ فهل كانت القوية تعرف موضع الضعيفة منهما قال

بشير قاتلك الله ماذا تريد ان تقول ان قلت انها لا تعلم وماذا تريد ان قلت

انها تعلم قال الشيخ ان قلت انها تعلم قلت فما يغني عنها قدسها حين لا تطرد هذه

الآفات عنها وان قلت انها لا تعلم قلت فكيف تعلم الغيوب ولا تعلم موضع روح معها

في جسد واحد فسكت بشير قال الشيخ اسالك بالله هل عبدتم الصليب

مثلا لعيسى بن مريم انه صلب قال بشير نعم قال الشيخ فبرضا كان منه ام سخط

قال بشير هذه اخت تلك ماذا تريد ان تقول ان قلت برضى منه قلت ما نقمتم

اعطوا ما سالوا وارادوا وان قلت بسخط قلت فلم تعبدون ما لا يمنع نفسه ثم قال

الشيخ لبشير نشدتك بالله هل كان عيسى يأكل الطعام ويشرب ويصوم ويصلي ويبول
ويتغوط وينام ويستيقظ ويفرح ويحزن قال نعم قال الشيخ نشدتك بالله لمن كان
يصوم ويصلي قال لله عز وجل ثم قال بشير وا غماه انا نخ ما ينبغي لمثلك ان يعيش
في النصرانية اراك رجلا قد تعلمت الكلام وانا رجل صاحب سيف ولكن غدا ائتك
من يخزيك الله على يديه ثم امره بالانصراف فلما كان من غد بعث بشير الى الشيخ فلما
دخل عليه اذا عنده قس عظيم اللحية قال له بشير ان هذا رجل من العرب له علم وعقل
واصل في العرب وقد احب الدخول في ديننا فكلمه حتى تنصره فسجد القس لبشير وقال
قديما اتيت الي الخير وهذا افضل ما اتيت الي ثم اقبل القس على الشيخ فقال ايها الشيخ
ما انت بالكبير الذي قد ذهب عقله وتفرق عنه حلمه غدا اغطسك في المعمودية غطسة
تخرج منها كيوم ولدتك امك قال الشيخ وما هذه المعمودية قال
القس ماء مقدس قال الشيخ من قدسه قال القس قدسته انا والاساقفة
قبلي قال الشيخ فهل كان لكم ذنوب وخطايا قال القس نعم كثيرة قال
الشيخ فهل يقدس الماء من لا يقدس نفسه قال فسكت القس ثم قال اني لم اقدسه
انا قال الشيخ فكيف كانت القصة اذن قال القس انما كانت سنة من عيسى
ابن مريم قال الشيخ فكيف كان الامر قال القس ان يحيى بن زكريا اغطس عيسى
ابن مريم عليهما السلام بالاردن غطسة ومسح برأسه ودعا له بالبركة قال الشيخ
فاحتاج عيسى الى يحيى يمسح رأسه ويدعو له بالبركة فاعبدوا يحيى يحيى خير لكم من
عيسى اذن فسكت القس فاستلقى بشير على فراشه وادخل كمه في فيه [illegible] يضحك
قال للقس قم اخزاك الله دعوتك لتنصره فاذا انت قد اسلمت قال ثم ان امر
الشيخ بلغ الملك فبعث اليه فقال ما هذا الذي قد بلغني عنك وعن تنقصك
ديننا ووقيعتك فيه قال الشيخ ان لي دينا كنت ساكتا عنه فلما [illegible]

سالت

الاردن نهر [illegible]

وتبين عنه صح

سالت عنه فلم اجد بدا من الذب عنه قال الملك فهل في يديك حجة قال
الشيخ نعم ادع الي من شئت يحاجني فان كان الحق في يدي فلم تلومني [illegible] بالحق
وان كان الحق في يديك رجعت الى الحق فدعا الملك بعظيم النصرانية فلما دخل عليه
[illegible] قال الشيخ ما [illegible] قال الملك [illegible]
[illegible] هذا الذي [illegible] قال الشيخ [illegible]
من [illegible] قال الملك [illegible]
[illegible] قال الشيخ فانتم تكرهون [illegible] منه ما
[illegible] من بني آدم من الغائط والبول والنوم والسهر وانتم [illegible] تزعمون
[illegible] [illegible] لكم [illegible] الحيرة قال القس
[illegible] شيطان من شياطين العرب رمانا به البحر [illegible] فاخرجوه حيث جاء فاقبل
الشيخ على القس فقال عبدتم عيسى بانه لا اب له فهذا آدم لا اب له ولا ام
خلقه الله عز وجل بيده واسجد له ملائكته فضموا آدم مع عيسى حتى يكون لكم الهان اثنان
فان كنتم انما عبدتموه لانه احيى الموتى فهذا [illegible] مكتوب عندكم في التوراة
والانجيل [illegible] ولا انتم [illegible] فدعا الله عز وجل له فاحياه حتى كلمه
[illegible] مع عيسى حتى يكون لكم [illegible] ثلاث وان كنتم انما عبدتموه لانه اراكم العجب
فهذا يوشع بن نون [illegible] حتى غربت الشمس [illegible] فرجعت [illegible]
[illegible] يكون مع عيسى يكون لكم رابع اربعة وان كنتم انما عبدتموه لانه
عرج به الى السماء فمن ملائكة الله عز وجل مع كل نفس اثنان بالليل واثنان بالنهار
يعرجون الى السماء ما لو ذهبنا نعدهم لالتبس علينا عقولنا واختلط علينا ديننا
وما ازددنا في ديننا الا تحيرا ثم قال ايها القس اخبرني عن رجل حل به
موت ايكون اهون عليه او القتل قال القس القتل قال فلم [illegible] عيسى [illegible]

عذبها بنزع النفس ان قلت انه قتلها فأبرأ منه من قتلها وان قلت انه لم يقتلها
فأبرأ منه من عذبها بنزع النفس قال الشيخ اذهبوا به الى الكنيسة العظمى
فانه لا يدخلها احد الا تنصر قال الملك اذهبوا به قال الشيخ لماذا يذهبون بي ولا حجة
علي دحضت قال الملك لن يضرك انا عجبت من بيوت ربك عز وجل ...
... قال لن تذهبوا به فلما دخل الكنيسة ...
اذنيه ورفع صوته بالاذان فجزعوا الملك جزعا شديدا وضربوه ولببوه وجاؤوا
به الى الملك فقالوا ايها الملك احل بنفسه القتل فقال له الملك لم ... بنفسك فقال
فقال ايها الملك اين ذهب بي قال ... لترى بيتا من بيوت الله عز وجل
اذكر فيه ربي عز وجل قال ... وذكرت ربي ... [illegible]
كلما ذكر الله في كتابكم ... ذكر الله ... قال الملك صدق ... سبيل
لكم عليه قالوا ايها الملك لا نرضى حتى نقتله فقال الشيخ انكم متى تقتلوني فبلغ ذلك
ملكنا وضع يده في قتل القسيسين والاساقفة وخرب الكنائس وكسر الصلبان
ومنع النواقيس قال ... فانه يفعل ذلك قال نعم فلا تشكوا فعلموا ان ... فتركوه
قال الشيخ ايها الملك ما عاب اهل الكتاب على اهل الاوثان قال بما عبدوا ما عملوا
بايديهم قال فهل انتم تعبدون ما عملتم بايديكم هذا الذي في كنائسكم فان كان
في الانجيل فلا كلام لنا فيه وان لم يكن في الانجيل فلم تشبه دينك بدين اهل الاوثان
قال الملك صدق فهل تجدون في الانجيل قال لا قال الملك فلم تشبه
ديني بدين اهل الاوثان فامر بنقض الكنائس فجعلوا ينقضونها ويبكون قالت
القسيسون هذا الشيطان من شياطين العرب رمى به البحر اليكم فاخرجوه من حيث
جاء فلا يقطر من دمه قطرة في بلادكم فيفسد عليكم دينكم فوكلوا به رجالا فاخرجوه
الى بلاد دمشق ووضع الملك يده في قتل القسيسين والاساقفة والبطارقة
حتى

حتى هربوا الى الشام لانهم لم يجدوا احدا يجاحه تم الحديث بحمد الله
وعونه وصلى الله على سيدنا محمد واله وصحبه وسلم

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم
هذه نسخة الفتيا التي قرئت بالامارة بدمشق المحروسة
على الامراء والمقدمين والقضاة في سابع شعبان سنة ... وسبعمائة
للشيخ الامام العالم العلامة شيخ الاسلام وبركة الانام مفتي المسلمين وبقية المجتهدين
وقدوة المحققين تاج العارفين ولسان المتكلمين وحجة المناظرين ... الطالبين
امام الزاهدين وسنان المجاهدين اوحد عصره وفريد دهره ناصر السنة
وقامع البدعة الحجة النوراني والجاهد الرباني بقية السلف الصالحين تقي الدين
قدس الله روحه ونور ضريحه الحمد لله الذي ارسل رسوله بالهدى ودين
الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون واخبر رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم
انه لا تزال من امته طائفة على الحق ظاهرين لا يضرهم من خالفهم
ولا من خذلهم الناصرون لانهم ... وعنده مجاهدين يقاتلون
المشركين ومنهم على الشريعة ... ويقاتلون الذين اوتوا الكتاب حتى يعطوا
الجزية عن يد وهم صاغرون واشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له
الذي كل الخلق اليه صائرون واشهد ان محمدا عبده ورسوله الصادق المأمون
اما بعد فان الله سبحانه وتعالى رضي الاسلام لنا دينا كما قال تعالى اليوم اكملت لكم دينكم
واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا واخبر انه لا يقبل دينا غيره فقال
ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين وقال سبحانه
شهد الله انه لا اله الا هو والملائكة واولوا العلم قائما بالقسط لا اله الا هو العزيز الحكيم
ان الدين عند الله الاسلام وجعل محمدا صلى الله عليه وسلم اخر الرسل وخاتم الانبياء كما قال
تعالى ما كان محمد ابا احد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وجعل امته خير امة
اخرجت للناس كما ذكره في كتابه العزيز وقال النبي صلى الله عليه وسلم انتم توفون

سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله تعالى وجعل دعوته عامة لجميع الخلق عربهم
وعجمهم وأسودهم وأحمرهم وإنسهم وجنهم أهل الكتاب منهم وغير أهل الكتاب كما قال
تعالى وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا وقال تعالى قل يا أيها الناس
إني رسول الله إليكم جميعا الذي له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت
فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله واتبعوه لعلكم تهتدون وقال
النبي صلى الله عليه وسلم فضلت على الأنبياء بخمس جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة
وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي ونصرت
بالرعب مسيرة شهر وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة
وقال صلى الله عليه وسلم والذي نفسي بيده لا يسمع بي من هذه الأمة يهودي ولا
نصراني ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار وقد دعا الله في كتابه جميع أهل الأرض عموما
وخصوصا إلى دينه وفرض عليهم ذلك ثم أمر بجهاد من لم يتبعه فقال تعالى كتب عليكم
القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم
والله يعلم وأنتم لا تعلمون وقال تعالى يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل
الله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة
إلا قليل إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ويستبدل قوما غيركم ولا تضروه شيئا
والله على كل شيء قدير وجعل للمجاهدين سعادة الدنيا والآخرة فقال تعالى قل هل تربصون
بنا إلا إحدى الحسنيين إما النصر والظفر وإما الشهادة والجنة وقال صلى الله عليه وسلم
إن في الجنة لمائة درجة ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين السماء والأرض أعدها الله تعالى
للمجاهدين في سبيله وقال صلى الله عليه وسلم مثل المجاهد في سبيل الله مثل
الصائم القائم القانت الذي لا يفتر من صوم ولا صلاة وقيل يا رسول الله أي الناس
أفضل فقال رجل آخذ بعنان فرسه في سبيل الله كلما هيعة طار إليها قيل ثم على إثره
قال

قال رجل معتزل في شعب من هذه الشعاب يعبد ربه ويدع الناس من شره وجعل
الجهاد في سبيل الله أفضل من الحج والعمرة وغيرهما قال الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه
لا أعلم شيئا بعد الفرائض أفضل من الجهاد في سبيل الله لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال رأس الأمر الإسلام
وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله فالجهاد الشرعي الذي ينبغي أن يقصد
به صاحبه وجه الله وأن تكون كلمة الله هي العليا وكلمات الله كتابه وما فيه من أمره ونهيه
وخبره قيل للنبي صلى الله عليه وسلم يا رسول الله الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية
ويقاتل رياء فأي ذلك في سبيل الله فقال من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله
وقد قال الله تعالى أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد
في سبيل الله لا يستوون عند الله والله لا يهدي القوم الظالمين إلى قوله إن الله عنده
أجر عظيم فجعل الجهاد أعظم من عمارة المسجد الحرام بالحج والعمرة والطواف فقد تقدم أن
سقي الحجيج من ماله الأشربة الحلوة كما كان يفعل قبل هذا الوقت وجعل جماعة الذين
يقاتلهم صنفين أحدهما من لا ينتسب إلى الكتاب أصلا فهم يقاتلون حتى يسلموا كما قال
النبي صلى الله عليه وسلم أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن
محمدا رسول الله فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله
فإن كانوا قد انتسبوا إلى الإسلام ولم يلتزموا شرائعه مثل مانعي الزكاة فإنه يجب قتالهم
حتى يلتزموا جميع شرائعه ولو نطقوا بالشهادتين ولو صلوا الصلوات الخمس قال الله تعالى وقاتلوهم
حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فمتى كان بعض الدين لغير الله وجب القتال ولهذا لما
توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وارتد من ارتد من العرب فقال قوم نحن نصلي الصلوات
الخمس ولا نزكي فقال أبو بكر لأقاتلنهم فقال عمر كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا
رسول الله فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها قال

الصديق الى قتال الا بحقها فان الزكوة من حقها والله لو منعوني عناقا كانوا يؤدونها الى
رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعها قال عمر فما هو الا ان رايت
الله قد شرح صدر ابي بكر للقتال فعلمت انه الحق فاتفق الصحابة على قتال مانعي
الزكوة وان كانوا يصلون الصلوات وكذلك الخوارج قال فيهم النبي صلى الله عليه وسلم
يحقر احدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم وقراته مع قراتهم يمرقون
من الاسلام كما يمرق السهم من الرمية اينما لقيتموهم فاقتلوهم فان في قتلهم اجرا لمن قتلهم
عند الله يوم القيامة وكان سبب ذلك انهم يستحلون دما المسلمين واموالهم
فايما طايفة تركت شريعة من شرايع الاسلام من الصلوة او الزكوة او الصيام او الحج
او الجهاد وجب جهادهم على ذلك ولذلك لو امتنعوا من ترك بعض محرمات
الشريعة مثل اكل الدم والميتة ولحم الخنزير او نكاح ذوات المحارم او شرب الخمور
او استحلال دما المسلمين واموالهم فهولا القوم الشاربين قتالهم من وجوه كثيرة بالكتاب
والسنة والاجماع حتى يدخلوا في شرايع الاسلام كلها الصنف الثاني
من الذين يجب قتالهم اهل الكتاب قال الله تعالى قاتلوا الذين لا يومنون بالله ولا باليوم
الاخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين اوتوا الكتاب
حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون وقال النبي صلى الله عليه وسلم في المجوس
سنوا بهم سنة اهل الكتاب وكان النبي صلى الله عليه وسلم اذا بعث اميرا على سرية
او جيش اوصاه في خاصة نفسه بتقوى الله وبمن معه من المسلمين خيرا ثم يقول
اغزوا بسم الله وفي سبيل الله قاتلوا من كفر بالله لا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا
تقتلوا وليدا واذا حاصرت اهل حصن فادعهم الى احدى ثلث شهادة ان لا اله الا الله
وان محمدا رسول الله فان هم اجابوك الى ذلك والا فادعهم الى ان يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون
فان اجابوك الى ذلك والا فاستعن بالله وقاتلهم فيجب على المسلمين ان يقاتلوا اهل الكتاب

من اليهود

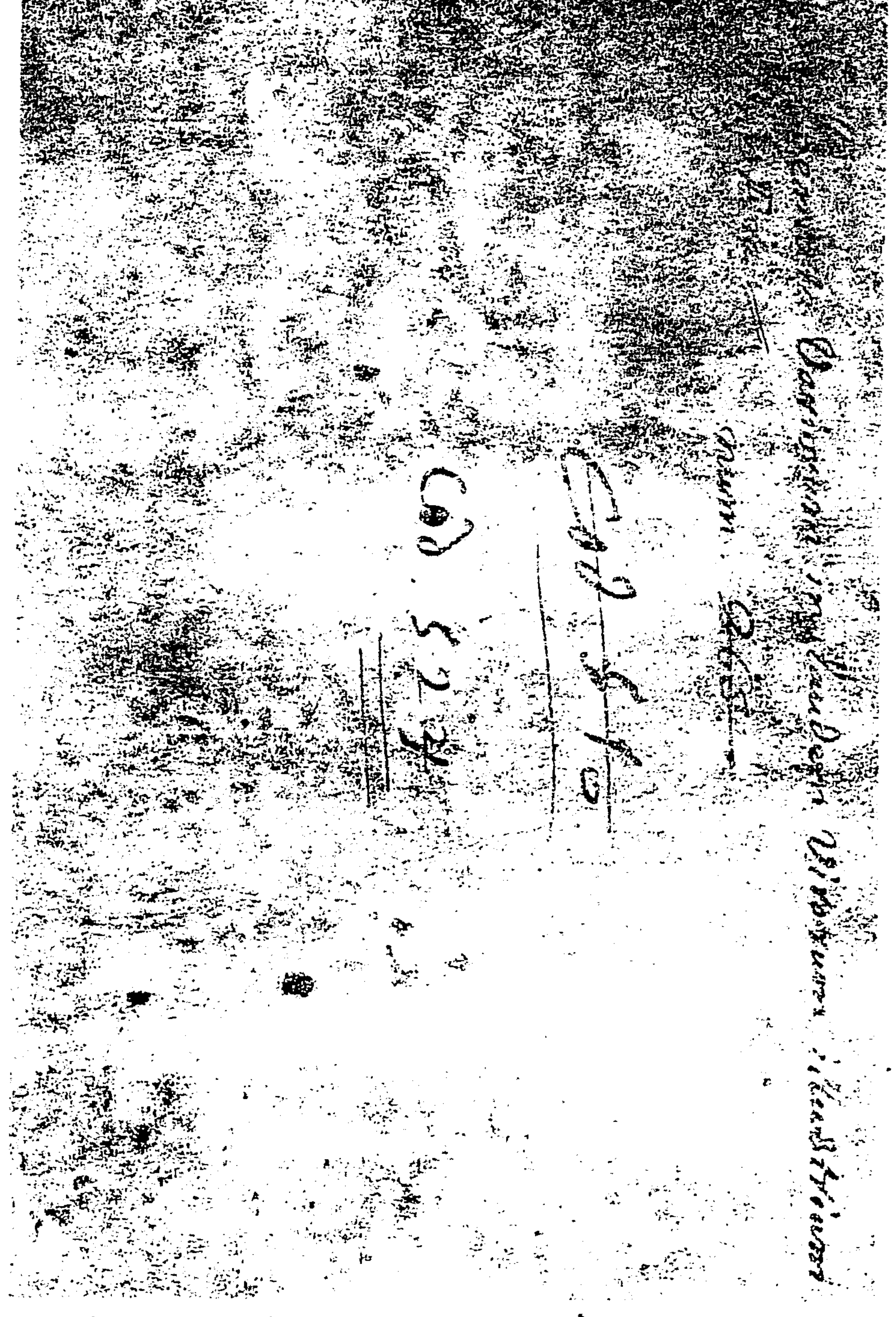
من اليهود والنصارى ومن له شبهة كتاب وهم المجوس الذين يسلموا او يعطوا الجزية
عن يد وهم صاغرون فغزا النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه اليهود والنصارى
غزا اليهود بني النضير الذين انزل الله فيهم سورة الحشر وبني قريظة الذين ذكرهم الله
في سورة الاحزاب وغيرهم وغزا النصارى غزوة تبوك التي انزل الله فيها سورة براه
وكانت اخر غزواته قدم من المدينة الى تبوك لغزو النصارى من العرب والروم
فتخلف عن الغزاة جماعة منهم من اعتذر باعذار باطلة ومنهم من اعترف بذنبه قال
الله في ذم المخلفين عن الغزاة من المنافقين الذين انزل الله دعاهم وطعن عليهم وفضحهم
سيحلفون بالله لكم اذا انقلبتم اليهم لتعرضوا عنهم فاعرضوا
عنهم انهم رجس وماواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون وقال ويحلفون بالله انهم
لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون لو يجدون ملجا او مغارات او مدخلا لولوا اليه
وهم يجمحون واما الثلاثة الذين اعترفوا فهجرهم النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون
خمسين ليلة لا يسلم عليهم ولا يرد عليهم السلام وامر نساهم بهجرانهم فلعلهن حتى تاب
الله عليهم وبعث النبي صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل رضي الله عنه الى اليمن فلما قبض
النبي قام بذلك خلفاوه الراشدون الذين امرنا باتباع سنتهم قال العرباض
بن سارية رضي الله عنه وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظة بليغة ذرفت
منها العيون ووجلت منها القلوب فقال قايل يا رسول الله كان هذه موعظة مودع
فماذا تعهد الينا فقال اوصيكم بالسمع والطاعة فانه من يعش منكم بعدي فسيرى
اختلافا كثيرا فعليكم بسنتي وسنة الخلفا الراشدين من بعدي تمسكوا بها وعضوا
عليها بالنواجذ واياكم ومحدثات الامور فان كل بدعة ضلالة فقد امرنا رسول الله
صلى الله عليه وسلم باتباع سنة خلفايه الراشدين فاما ابو بكر الصديق رضي الله عنه
فغزا اهل الردة من ارتد وا عن الدين بالكلية وعن بعض شرايعه ثم غزا الكفار

من عمر بن الخطاب [illegible] بالشام [illegible] ثم [illegible] مسلمون محاصرون دمشق
فلما فتحها امير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعلى عهده كان الفتح العظيم والنصر
[illegible] فلما فتحت الشام [illegible] فطلب منه اهل الكتاب
[illegible] على شروط اشترطها عليهم فعقدها لهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه
الذمة التي [illegible] وكان يجددها عليهم [illegible] من عند الله تعالى [illegible]
والاسراف [illegible] على المسلمين او استكتابهم واستعمالهم فكان من [illegible] عمر
رضي الله عنه وغيره [illegible] كان عمر رضي الله عنه [illegible] ابي موسى الاشعري [illegible]
[illegible] فقال [illegible] الى الحساب فانطلق [illegible]
به الى عمر رضي الله عنه فلما [illegible] فقال [illegible] كاتب [illegible]
حتى يقرا [illegible] جاءتنا من الشام فقال يا امير المؤمنين انه لا يدخل المسجد قال لم اجنب هو
قال لا ولكنه نصراني قال فضرب عمر فخذي ضربة كاد يكسرها ثم قال اما سمعت
قوله تعالى يا ايها الذين امنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى اولياء بعضهم اولياء بعض [illegible]
[illegible] قلت يا امير المؤمنين ما لي وله له دينه ولي كتابته فقال
عمر رضي الله عنه لا اكرمهم اذ اهانهم الله ولا اعزهم اذ اذلهم الله ولا ادنيهم اذ اقصاهم
الله وكان بعض الناس يتوهم ان المسلمين يحتاجون اليهم في [illegible]
ابن الوليد الى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ان بالشام [illegible]
[illegible] عن استعماله فراجعه واخبره انه لا يستغني عنه [illegible]
عن استعماله [illegible] وذكر ان المال يضيع اذا لم يستعمله فكتب اليه عمر رضي الله عنه
مات النصراني والسلام [illegible] انه لو مات لتستغني عنه [illegible]
سبحانه وتعالى جعل اهل الاسلام خير اهل الارض فما من فضل يوجد في غيرهم الا [illegible]
[illegible] ولا عيب يوجد في بعضهم الا وهو في غيرهم اكثر [illegible]
وعلم

وعلم وخبرة [illegible] وكتابة [illegible] وحلم [illegible] واحسان وسياسة
وشجاعة ونجابة [illegible] ولصححه هذا لا شك فيه لمن تامله واذا وجد فيهم من فيه
[illegible] ما كان في المسلمين من هو اكمل منه واعظم امانة وقد قال الله تعالى في
[illegible] يا ايها الذين امنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يالونكم خبالا الاية فنهانا
الله تعالى ان نستبطن في امورنا قوما غيرنا وقوله تعالى لا يالونكم خبالا اي لا يقصرون
[illegible] فساد امركم وهذا يظهر منهم [illegible] احيانا كما قد صح من
بعض النصارى في فتنة التتار وغيرها وظهر منهم من بطانة العدو والتجسس [illegible]
[illegible] من اليهود وقد قيل في المثل كل العداوة قد ترجى مودتها الا عداوة من عاداك في الدين
[illegible] قوله تعالى يا ايها الذين امنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم اولياء تلقون
اليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول واياكم ان تؤمنوا بالله ربكم ان كنتم
خرجتم جهادا في سبيلي وابتغاء مرضاتي تسرون اليهم بالمودة وانا اعلم بما اخفيتم وما
اعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل الى قوله الا قول ابراهيم لابيه لاستغفرن
لك وما املك لك من الله من شيء يعني اقتدوا بابراهيم في التبري [illegible]
[illegible] لابيه بالاستغفار فانه [illegible] كما قال تعالى ما كان للنبي والذين
امنوا ان يستغفروا للمشركين ولو كانوا اولي قربى من بعد ما تبين لهم انهم اصحاب الجحيم [illegible]
[illegible] بل قولوا ربنا عليك توكلنا واليك انبنا واليك المصير ربنا لا تجعلنا فتنة
للذين كفروا واغفر لنا ربنا انك انت العزيز الحكيم [illegible] سبحانه وتعالى بان
[illegible] الكفار من اليهود والنصارى وغيرهم من حول الحرم فقالوا انقطع تجارتنا فقال
تعالى انما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا وان خفتم عيلة فسوف
يغنيكم الله من فضله ان شاء ان الله عليم حكيم [illegible]
[illegible] الكفار من اليهود والنصارى [illegible] فسوف يغنيكم الله من فضله

ارتشا ومن ترك لله شيئا عوضه الله خيرا منه فكيف وفي اوليائه الكفاية عن الاستعانة
باعداء الله وقد وصف الله المؤمنين حيث يقول يا ايها الذين امنوا من يرتد منكم عن دينه
فسوف ياتي الله بقوم يحبهم ويحبونه اذلة على المؤمنين اعزة على الكافرين يجاهدون
في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم فوصف الله سبحانه وتعالى الذين يحبهم ويحبونه [illegible]
المؤمنين والعزة على الكافرين يتواضعون للمؤمنين ويستعلون على الكافرين ثم يجاهدون
في سبيل الله الكفار والمنافقين ولا يخافون من يلومهم على ذلك ولذلك قال محمد رسول
الله والذين معه اشداء على الكفار رحماء بينهم وقد قال نبينا صلى الله عليه وسلم انا نبي الرحمة وانا نبي
الملحمة وروي عنه انا الضحوك القتال اي انا الضحوك للمؤمنين اضحك في وجوههم وانا نبي القتال
للكافرين [illegible] فاذا
كان الكفار [illegible] الذي هو [illegible]
هو حب الاديان والبغض وعاداه والله يبغضه وقد غضب عليه ولعنه [illegible]
في القرآن فكيف ينبغي للمؤمن [illegible] فيكرمه او يلي من ابعده الله فيقربه [illegible]
معنى قول عمر رضي الله عنه [illegible] رجلا [illegible] سلطانا [illegible] السلطان عدوه ويبغضه
سلطان دنياه فكيف يكون [illegible] سلطان وعلامه مقربا عدوه ويمكنه من [illegible]
له وهؤلاء اعداء الله ورسوله بلا شك جميع [illegible] فانه من عادى اولياء [illegible] فقد
عادى الجميع فكيف من قرب اعداء الله واعداء رسوله واعداء اوليائه واكرمهم وقدمهم
على عباده المسلمين فكيف يكون حاله عند الله في الدنيا والآخرة [illegible]
هؤلاء بلغوا ما جاءت به الرسل [illegible] على ما جاءت به الرسل قال الله تعالى لقد
ارسلنا رسلنا بالبينات وانزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وانزلنا الحديد
فيه باس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب [illegible]
[illegible] الحديد الذي هو السيف [illegible] الدين [illegible] المصحف

[illegible] فكيف يحسن بمؤمن ان يولي يهوديا او نصرانيا [illegible] القرآن الذي هو [illegible]
[illegible] ولاية [illegible] الذي هو عدو لله ورسوله
[illegible] على المسلمين [illegible] الله تعالى
[illegible] فهؤلاء [illegible]
[illegible] في بلادهم [illegible] البلاد [illegible]
[illegible] بين المسلم والكافر [illegible]
[illegible] مما يسر قلب المؤمنين [illegible] البلاء [illegible]
[illegible] للمسلمين [illegible] الا [illegible]
[illegible] كما سعى ولاة الامور [illegible] كانت قلوب المؤمنين
[illegible] اكثر وانما يكره ذلك منهم اما كافر ومنافق او من في قلبه مرض
[illegible] شيئا من [illegible]
[illegible] الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى ان تصيبنا
[illegible] قال الله تعالى فعسى الله ان ياتي بالفتح او امر من عنده فيصبحوا على ما اسروا في
انفسهم نادمين ويقول الذين امنوا اهؤلاء الذين اقسموا بالله جهد ايمانهم انهم لمعكم
حبطت اعمالهم فاصبحوا خاسرين وهؤلاء الذين يميلون الى [illegible] اليهود والنصارى [illegible]
[illegible] على المسلمين واعزاز لاعداء الله [illegible] مخذولة
[illegible] من النار قال [illegible] يحاربون الله ورسوله قال الله تعالى
لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا
ابناءهم او اخوانهم او عشيرتهم اولئك كتب في قلوبهم الايمان وايدهم بروح
منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه اولئك
حزب الله الا ان حزب الله هم المفلحون والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم



صورة مخطوطة الأسكوريال (رشف الرحيق في وصف الحريق)

ونثر ونظم وادب وعلم وشرح وما لبق وبسط وبسف
شروط المضبوط وضبط المشروط اما مولفاتي الشاهده
على نقصوري البالغ ومصنفاتي المثمرة التي بقلة الاطلاع
فمنها في العقد البهية الوردية في نظم الحاوي وفوائد فقهيه
منظومه ومنها في النحو شرح الخلاصة الالفية لابن مالك
وضوء الدرة على الفية ابن معطي وقصيدة اللباب وعلم
الاعراب وشرحها واختصار ملحة الاعراب نظما وتذكرة العرب
نظما وشرحا ومنها في العرائض الوسائل المهذبة في المسائل
الملقبة ومنها في الشعر والادبيات اعجاز الافكار
ومنها في غير ذلك تتمة المختصر في اخبار البشر اختصار تاريخ
صاحب حماه مع التذييل عليه والسماح في اثنائه
وارجوزه في تعبير المنامات وبعض خمسمائة بيت وارجوزه
في خواص الاحجار والجواهر ومنطق الطير نظما ونثرا
فيه نوع ادب تصوفي وما لا يحضرني الان ذكره وكان
الاولى به ستره اخرجت لك ادامك الله روايه الجميع
اتفاقك ورواية ما ادونه واجمعه بعد ذلك حسبما

اقترحه خاطرك العزيز واستوجبت به مدحي

فانا المادح وانا المجيز قالـــــه منشئه

عمر بن مظفر بن عمر بن محمد بن ابي الفوارس ابن الوردي

المعري الشافعي عفا الله عنه وصلى على

نبيه محمد وآله وصحبه وسلم في العشر الاول من

شعبان المبارك سنة خمس واربعين وسبعمائة

مقامـــــة تسمى رشف الرحيق في وصف الحريق

للصلاح الصفدي عفا الله عنه

حكى شعلة بن لهب عن ابي الزناد بن شهاب

انه قال لم تزل اذني منذ شنفها اوصاف دمشق تتلذذ

بما للاقلام من ذكر محاسنها من التعلق والعشق حتى بات

الحكم يشهد لكوني بها والجزم بان يعطى السمع ولم ار

القلب ونطقت الامر بالبصر وكسا لها ظما الشوق التوق

فتك بي ظما الشوق ولم تلطف السلسال الى الوطن

واحبت الى العطن فسرت فيها الى روض

اعلى من الرحمن على اعدائه وقام الـــــحرص

السرور تمرنه ى على سياقه وجرى الماء نصمنى لكم العراقه
وظلاني الروض لطيب عراقه ومثل الغصن لى سنا براوراقه
ونودى بانفاسه حر الصبابه والجوى وداوت بعدو الهوى
مقصود الهوى وفيه قلت
اضحى نسيم دمشق حياها الحيا يمشى الهوينا وظلال دوحها
وكانه من مايها وهضابها ما داس الا اعينا وجباها
وقطعت بها زمنا الانس وصال الحبيب وانتهى الى المقتضى بادى
الرقيب
شعر
شوقتنا الى الجنان فزدنا في احتساب الذنوب والاثام
ومنها في وصف الجامع ولم يطلع من سما صحنه صفتها وكم يعنى
العمر لو كان من نجومه فما اتفق له ذلك ولا تهيا وكم جليت
عروسه من عقود وقود وكم تمتعت منه الابصار بوجوه تجلى
البدر في ليالى السعود وكم من يلح له زاده وكم من اعطاف
زينت من محرابه قال الراسمجوعه المختار وان
العيون تود لو تفسح له من سواد جفونها اسنار قال
سيما لحوا سلسله وقد وردنا حمى الجامع ودخل ضيف

الطيف على نقله الهاجع واذا بالاصوات تجعوا الاوا
نلج ابواب السما وتلج فسالنا الخبر من عنده فقال الحريق
وقع في باب الجامع فانظر الى سنا الجو كما انشرب فمه
عقايق الذهب اللامع فبادرت الى الصحن والناس في وقعهم
والقلوب جاثيه بتلك النار كأنما
نشرت في حداد الظلام عصايبها وصعدت الى عنان السما
غربات ذوايبها دواسحبت في علو كانما
وعلت في الجو كانها العلام لابكة النصر
الميدان جاها وهي ترمى بشرر كالقصر فكم
الدطل كانبعة وكم نقص كاسحب الدراعيات وهي تتلو اهل
اما الحديث الغاشيه وثارت الرهام الاصل لاخد النار
منجرها كما قالت الخنسا كانه علم في راسه نار فكشف كانه
شاناه واتلى راسها من النار والهدم شعيقه ولو ان الحريق
على جاثيها زعيقه وفي الارض صحنها صفره فما شئنا الا
الابصار

وترقى اليها اولو العزم من النظاره وكادت نارها تكون
كنار القيامة وقودها الناس والحجارة فلو نفخ الطين
يدور وليسوفر النار بحث على الآفيه حسيرت
عيون دواسب النار حلبابه فعاقبي الهواجر وطنا
الدخان روضه سوس كللها نرجس واقاحي وعقد
الدخان سما اخرى والطلع الشرار فيها كواكب زهرا
فكان اهل دمشق دعوا طارفا السيل والقراب ليغرى وخافوا
ضلاله فرفعوا الدين البارق لطلل الوبه تحمرا الى ان اماها
البحر لا زال بعمره عجاجا ولا بحث سوقه تكاثر البحر لواجا
فانكسفت للوات من وجهه سراجا وهاجا وطعنها اذ
رات جوده عدبا فراتا وما سه ملحا اجاجا ولما طلع من
السما ما سمى النهار دعا اهلها ما روى كما الليل من اطلنا
وقف النادبون على الرسوم ورأوا صنع النار الى
نار الاخر فكان لكل عاين منها جز مقسوم
فلم تدر رسم الدار كيف يجيبنا ولا يحن من فرط الجوى كيف نسال

وأصبح باب الساعات وهو من أبواب الساعة وطنبها

الذي يعود مواصله والجامعة وعادت له مشر وقد آل

أمرها إلى الوحشة وقد آلت الأرعوشة كأن لم تزل بها سمرا

ولا شاهدت من بابها وقامت جنة وحجرا على راسها [illegible]

لا طلال الدائرة وفيما يتكل أطلال المتصلة بالجامعة

وخطوطها وزواياها كما خطها سور الدائرة معلقة

عندنا هذه وكنا في ذلك [illegible] الأطلال

[illegible] لما [illegible] المعالي

حرق [illegible] وفيد المعالي

غدت [illegible] كأن لها [illegible] الأماني

لها [illegible] الآماق لا [illegible] وما [illegible]

[illegible] سواء [illegible] [illegible] أهل [illegible]

[illegible] الوحش [illegible] [illegible]

[illegible] [illegible] وما [illegible] [illegible]

[illegible] [illegible] [illegible]

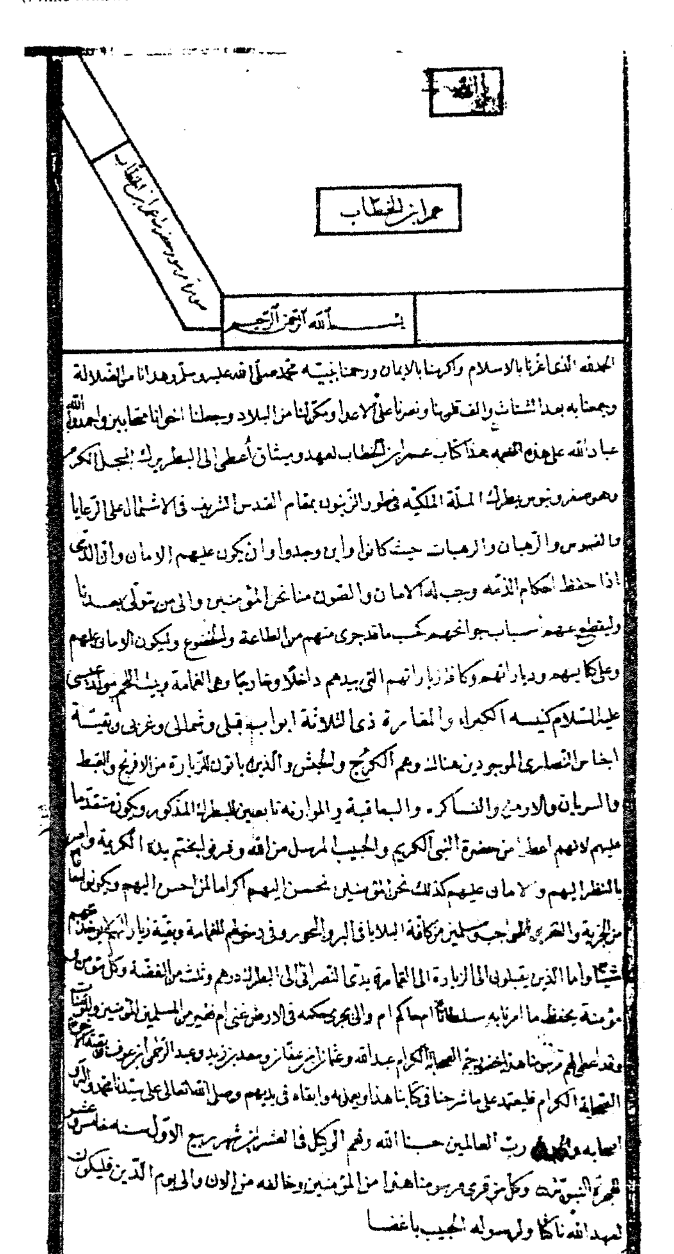
[illegible] [illegible] وكل [illegible]

[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

نموذج كتابة من مرسوم يضم توصية بحق رهبان دير طور سيناء مؤرخ بسنة ٥٩٥ هـ باللغة العربية في العهد الأيوبي نشرها ستيرن في كتابه «دراسات شرقية» عام ١٩٦٥م بلندن مع صورة لدير سانت كاترين

The Copy of the Firman (Edict) of Omar bin Hattab

(Prime Ministerial Ottoman Archives, Books of Churches, Book of Kamamah, No. 8)



عمر بن الخطاب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أعزنا بالإسلام وأكرمنا بالإيمان ورحمنا بنبيه محمد صلى الله عليه وسلم وهدانا من الضلالة
وجمعنا به بعد الشتات وألف قلوبنا ونصرنا على الأعداء ومكن لنا من البلاد وجعلنا إخوانا متحابين واحمدوا الله
عباد الله على هذه النعمة هذا كتاب عمر بن الخطاب لعهد وميثاق أعطي إلى البطريرك المبجل المكرم
وهو صفرونيوس بطريرك الملة الملكية في طور الزيتون بمقام القدس الشريف في الاشتمال على الرعايا
والقسوس والرهبان والراهبات حيث كانوا وأين وجدوا وأن يكون عليهم الأمان وأن الذمي
إذا حفظ أحكام الذمة وجب له الأمان والصون منا نحن المؤمنين وإلى من تولى بعدنا
وليقطع عنهم أسباب جوائحهم حسب ما قد جرى منهم من الطاعة والخضوع وليكن الأمان عليهم
وعلى كنائسهم وديارهم وكافة زياراتهم التي بيدهم داخلا وخارجا وهي القمامة وبيت لحم مولد عيسى
عليه السلام كنيسة الكبراء والمغارة ذي الثلاثة أبواب قبلي وشمالي وغربي وبقية
أجناس النصارى الموجودين هناك وهم الكرج والحبش والذين يأتون للزيارة من الإفرنج والقبط
والسريان والأرمن والنساطرة واليعاقبة والموارنة تابعين للبطريرك المذكور ويكون متقدما
عليهم لأنهم أعطي من حضرة النبي الكريم والحبيب المرسل من الله وشرفوا بختم يده الكريمة وأمر
بالنظر إليهم والأمان عليهم كذلك نحن المؤمنين نحسن إليهم إكراما لمن أحسن إليهم ويكونوا معافين
من الجزية والغفر والمواجب مسلمين من كافة البلايا في البر والبحر وفي دخولهم للقمامة وبقية زياراتهم لا يؤخذ منهم
شيء وأما الذين يقبلون إلى الزيارة إلى القمامة يؤدي النصراني إلى البطريرك درهم وثلث من الفضة وكل مؤمن و
مؤمنة يحفظ ما أمرنا به سلطانا كان أم حاكما أم واليا يجري حكمه في الأرض غني أم فقير من المسلمين المؤمنين والمؤمنات
وقد أعطي لهم مرسومنا هذا بحضور جم الصحابة الكرام عبد الله وعثمان بن عفان وسعد بن زيد وعبد الرحمن بن عوف وبقية الإخوة
الصحابة الكرام فليعتمد على ما شرحنا في كتابنا هذا ويعمل به وأبقاه في يديهم وصلى الله تعالى على سيدنا محمد وآله
وأصحابه وسلم والحمد لله رب العالمين حسبنا الله ونعم الوكيل في العشرين من شهر ربيع الأول سنة خمسة عشر من
هجرة النبوية وكل من قرأ مرسومنا هذا من المؤمنين وخالفه من الآن وإلى يوم الدين فليكن
لعهد الله ناكثا ولرسوله الحبيب باغضا

نموذج فرمان (العهدة العمرية محفوظ في الأرشيف العثماني في أسطنبول)

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان. أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها، أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم، ولا ينتقص منها ولا من حيزها، ولا من صليبهم، ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود.

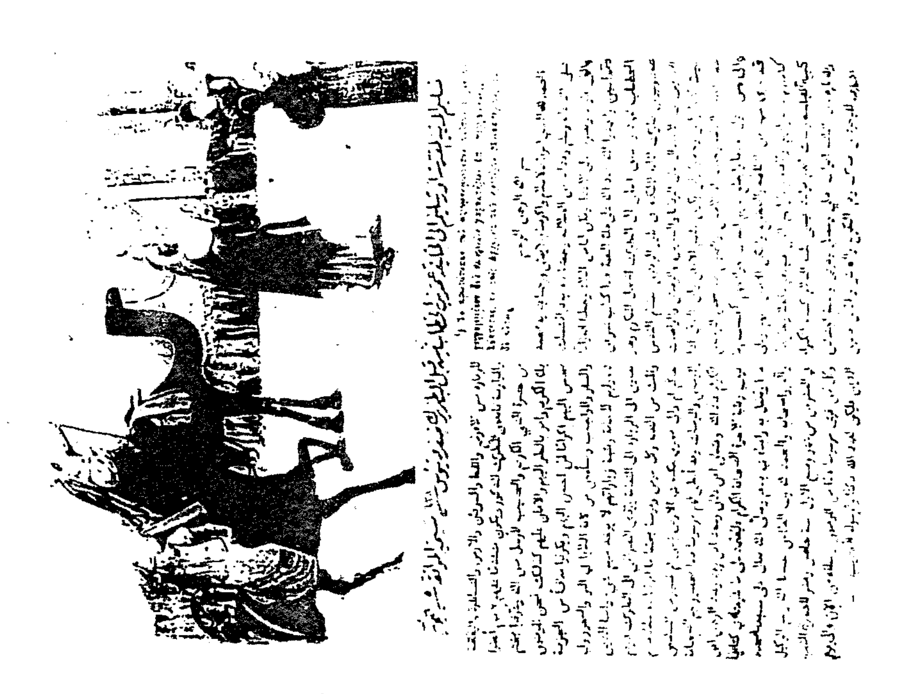
وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن، وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص. فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم، ومن أقام منهم فهو آمن، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية. ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلي بيعهم وصلبهم، فإنهم آمنون على أنفسهم حتى يبلغوا مأمنهم. ومن كان بها من أهل الأرض فمن شاء منهم قعد، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن شاء سار مع الروم، ومن شاء رجع إلى أهله. لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم. وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية.

شهد على ذلك:

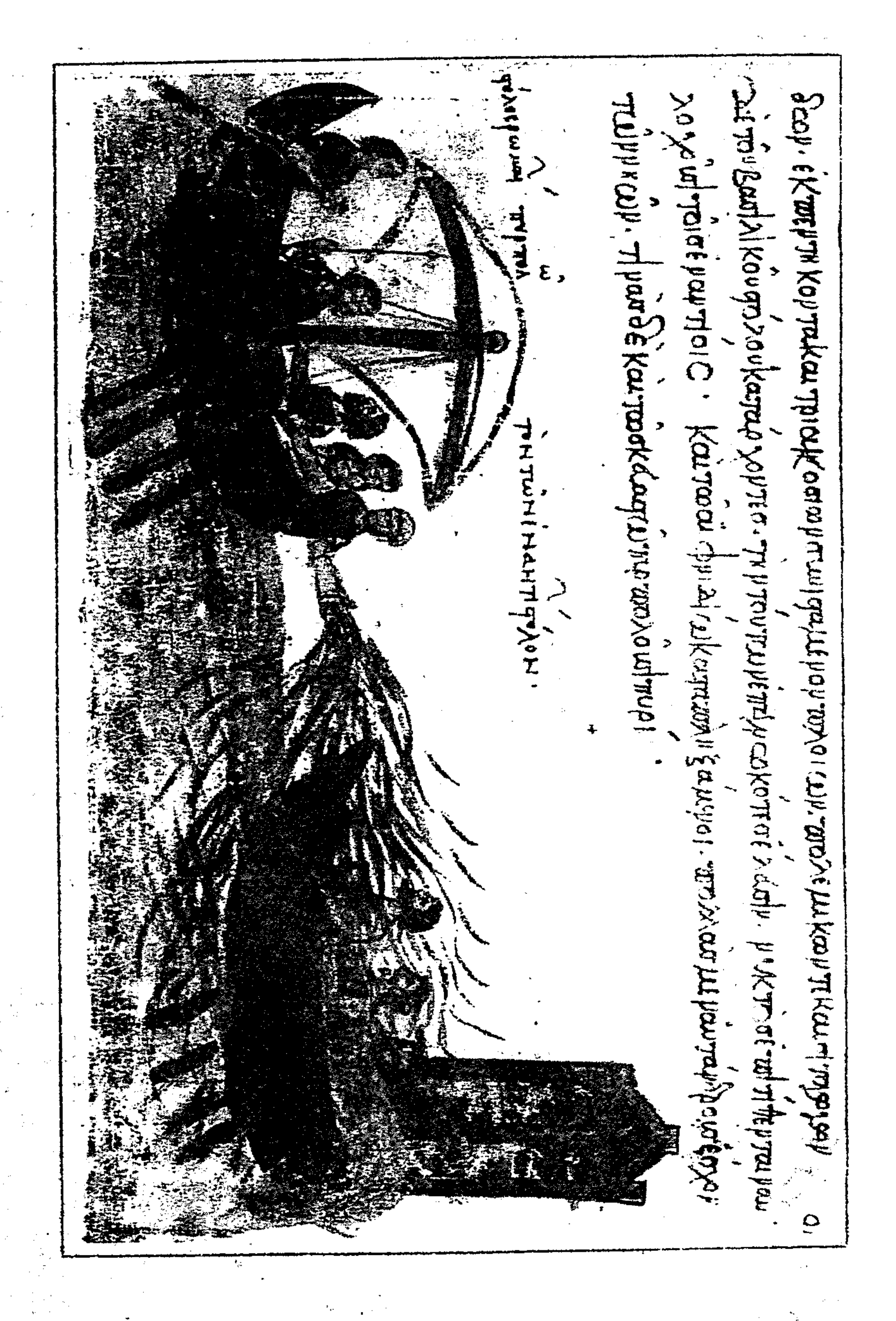
خالد بن الوليد   عمرو بن العاص   عبد الرحمن بن عوف   معاوية بن أبي سفيان

كتب وحضر سنة ١٥

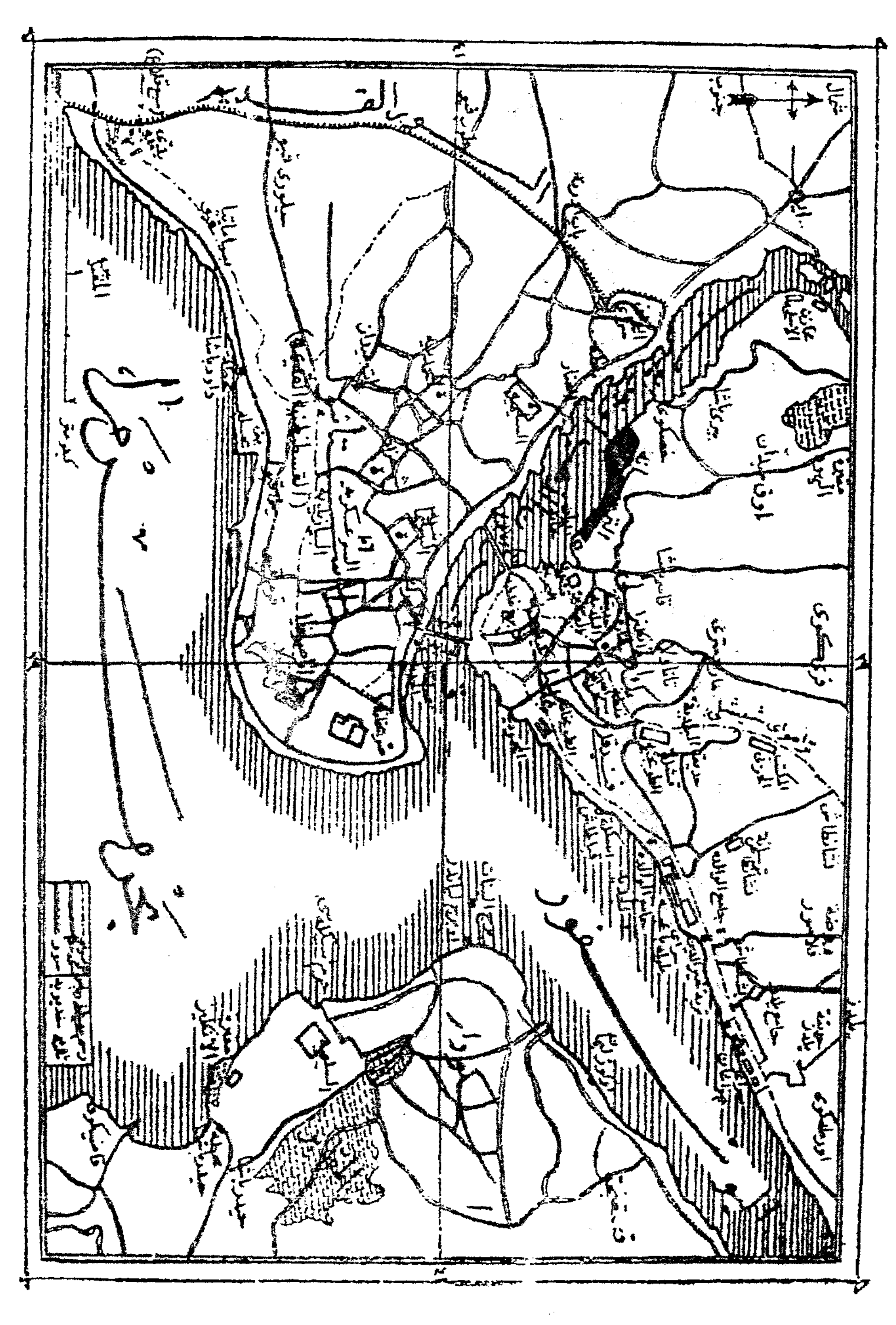
عمر بن الخطاب



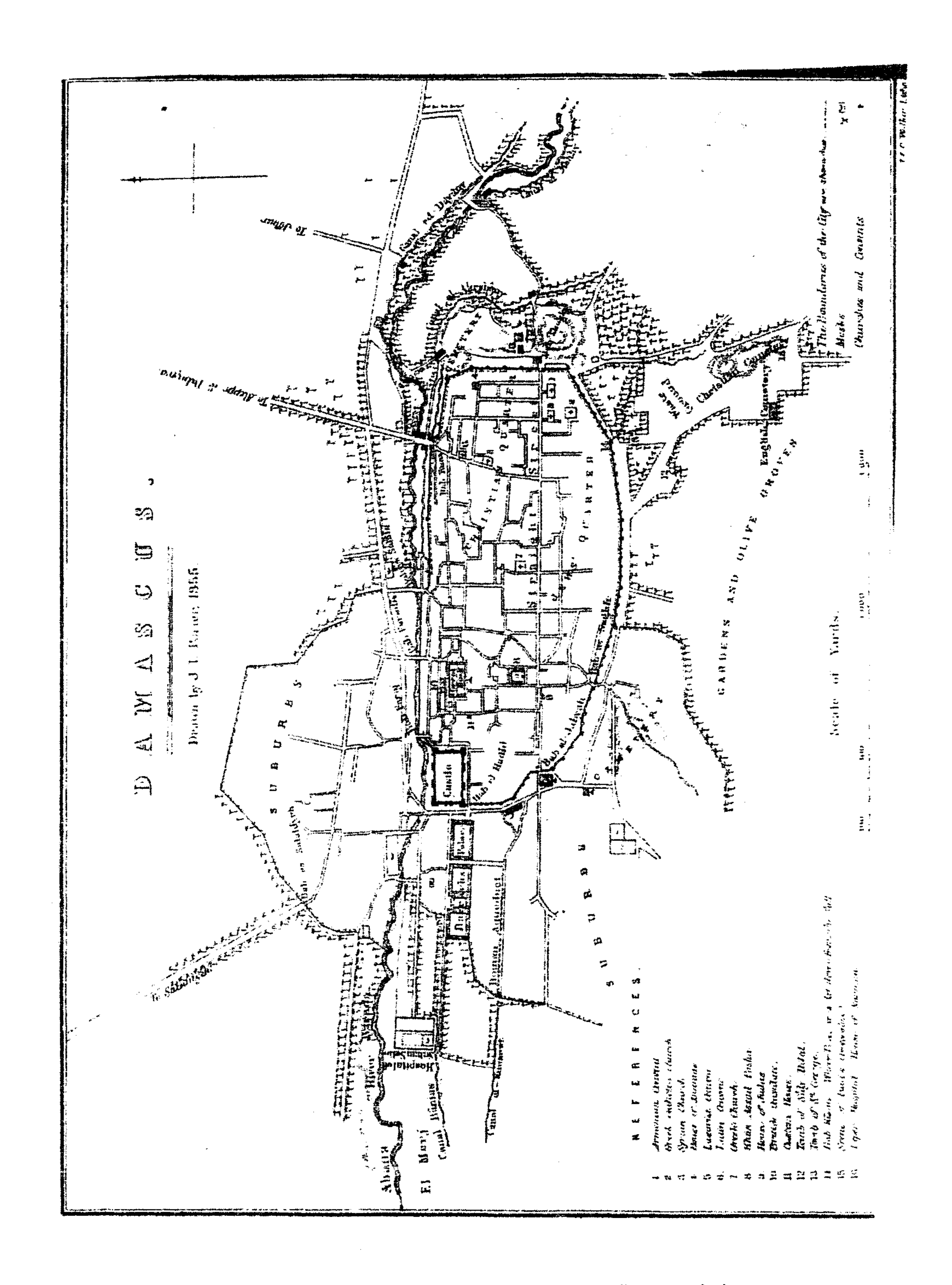
صورة لمنشور وزع في القدس فيه العهدة العمرية لأهل إيليا وصورة أخرى تمثل تسليم المدينة المقدسة (أورشليم في عصر عمر بن الخطاب من قبل البطريرك صفرونيوس سنة ٦٣٨م)



لوحة فنية تمثل استخدام النيران الإغريقية والتي اخترعها مهندس سوري نصراني اسمه كالينكوس Callinicus الذي فرْ بعد فتح الشام، ولعله كانت هنالك جالية نصرانية مهمة في المنفى كانت تعمل على استعادة الشام لسلطان النصارى



خريطة أسطنبول (القسطنطينية قديماً) والتي انطلقت منها المؤامرة على دمشق

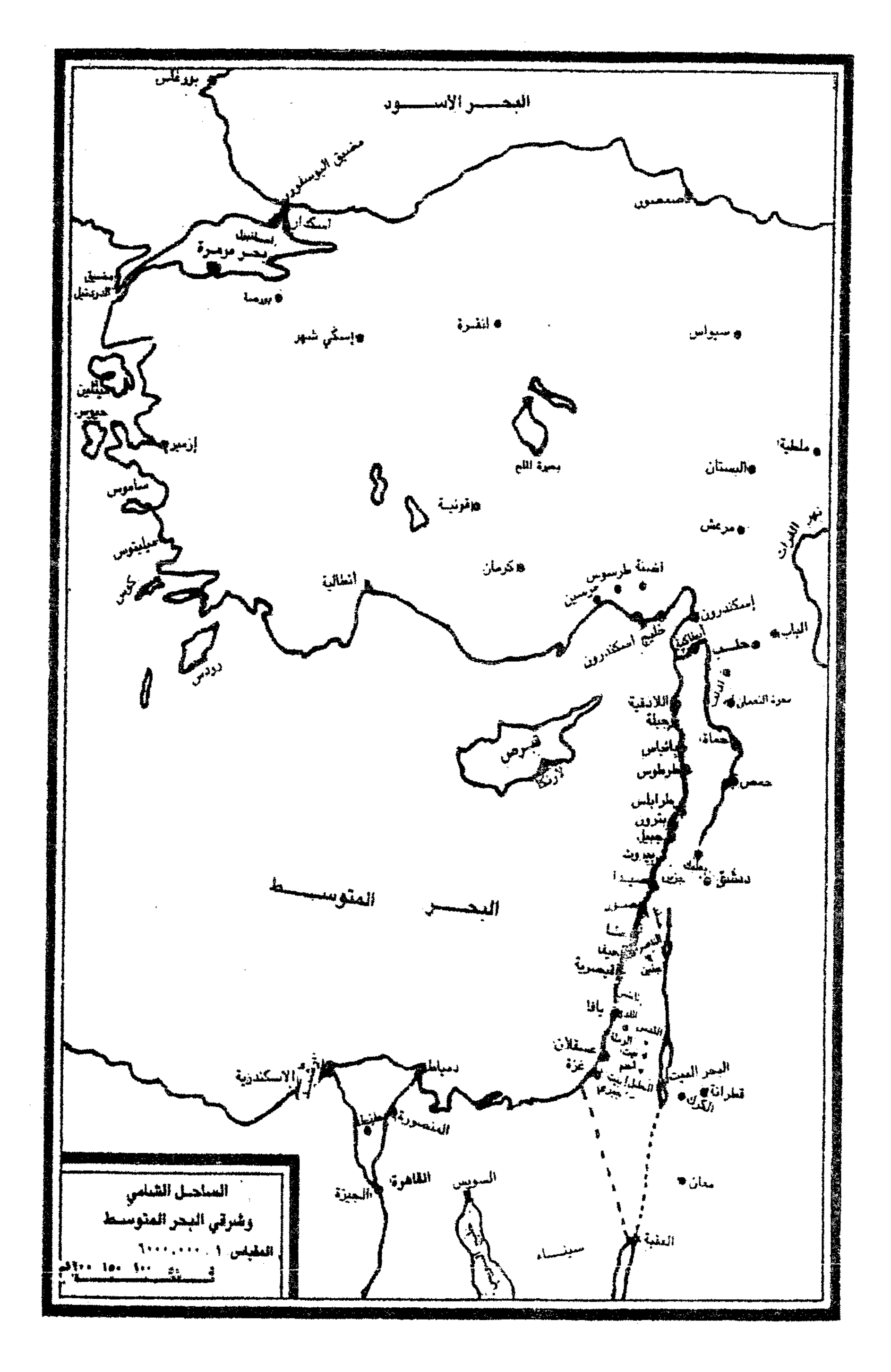


مخطط مدينة دمشق القديمة، تخطيط يعود لعام ١٩٥٥م

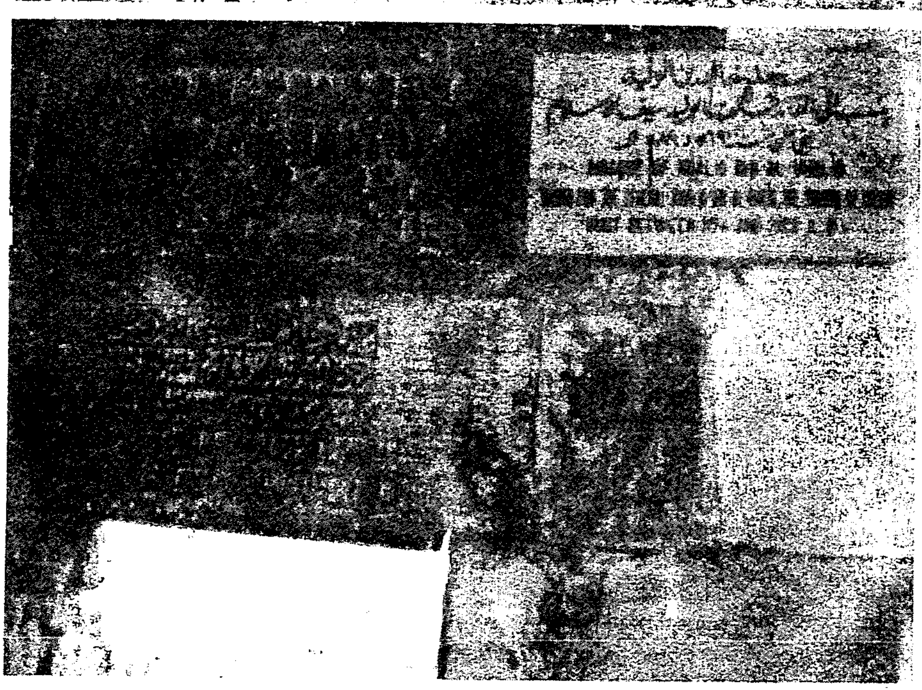


صورة لدمشق (الجامع الأموي وما يحيط به) تعود لعام ١٨٥٥، نشرت في كتاب

Fiveyers in Damascus - لندن



خريطة للساحل الشامي وشرقي البحر المتوسط



مسجد خالد بن الوليد الذي أسس عند الدير النصراني لدى دخوله دمشق

وهو اليوم يجاور قبر الشيخ أرسلان الدمشقي في وسط دمشق

فهرس المحتويات

٦- لوحة فنية تمثل استخدام النيران الإغريقية والتي اخترعهـا مهنـدس سوري نصراني اسمه كالينكوس Callinicus الذي فرَّ بعد فتح الشام، ولعله كانت هنالك جالية نصرانية مهمة في المنفى كانت تعمـل علـى استعادة الشام لسلطان النصارى

٧- خريطة أسطنبول (القسطنطينية قديماً) والتي انطلقت منها المـؤامرة على دمشق

٨- مخطط مدينة دمشق القديمة، تخطيط يعود لعام ١٩٥٥

٩- صورة لدمشق (الجامع الأموي وما يحيط به) تعـود لعـام ١٨٥٥، نشرت في كتاب Fiveyers in Damascus - لندن

١٠- مسجد خالد بن الوليد الذي أسس عند الدير النصـراني لـدى دخوله دمشق وهو اليوم يجاور قبر الشيخ أرسلان الدمشقي في وسـط دمشق.

١١- خريطة للساحل الشامي وشرقي البحر المتوسط







يعنى هذا البحث بحادثة تاريخية وقعت في عهد الدولة الأولى للعصر المملوكي(٦٤٨ ـ ٧٨٣ هـ) ففي السنة الأخيرة من ولاية تنكز زمن محمد بن قلاوون وفي السادس عشر من شهر شوال(٧٤٠ ـ ١٣٤٠م) استيقظ الدمشقيون على نبأ مفجع حيث شبت الحرائق في الجامع الأموي، وعدد من الأسواق، والعمارات الهامة بدمشق، وسرعان ما تبين أن وراء هذا الحادث عمل إرهابي دُبر له بإحكام من قبل مجموعة صليبية خارجية، ويضم هذا الكتاب كل ما يتعلق بهذه الحادثة الخطيرة، وتداعياتها السياسية والاقتصادية والثقافية، مدعماً بالوثائق التاريخية النادرة التي حصل عليها المؤلف من مكتبة جامعة لايدن الشهيرة في هولندا.

كتاب جدير بالقراءة يكشف عن جوانب مثيرة في التاريخ الدمشقي.

الناشر